

2267  
.156  
.366



a32101 001594611b

~~JUN 15 1989~~

DATE ISSUED DATE DUE DATE ISSUED DATE DUE

~~SEP 27~~

~~[REDACTED]~~

DUE JUN 15 1989

~~EB 14~~

~~[REDACTED]~~

~~[REDACTED]~~ DUE JUN 15 1997

~~JUN 15 1997~~  
~~TEB 6 JUN 15 1997~~

DUE JUN 15 1997

~~XXXXXX~~ JUN 15 2011

~~XXXXXXXXXXXX~~  
DUE JUN 15 1984  
MAR 2 1984

1882

1882

1882

1882

1882

1875



سوق البر

# مذكرات البرودي

من شاء منكم ان يعزله  
فليسع عي معزها البرودي  
١٩٥١

الجزء الاول

بيروت - دمشق ١٩٥١

١٩٥١ - ١٩٥١ م

LIBRARY  
OF THE  
MUSEUM OF  
COMPARATIVE ZOOLOGY  
AND ANATOMY  
HARVARD UNIVERSITY  
CAMBRIDGE, MASS.

al-Bārūdī, Fakhr

إذا اضتممت زأجي، فأنا مع الحق - ارسطو

Mudhakkarāt

# مذكرات البرودي

سِتُون سَنَةً تَكَلَّمَ

بِقَلَمِ  
فَخْرِي الْبَارُودِي

بَيْرُوت - دَهْمَسُوق - ١٩٥١

طبع على مطابع دار «الحياة»



## الاشهاد

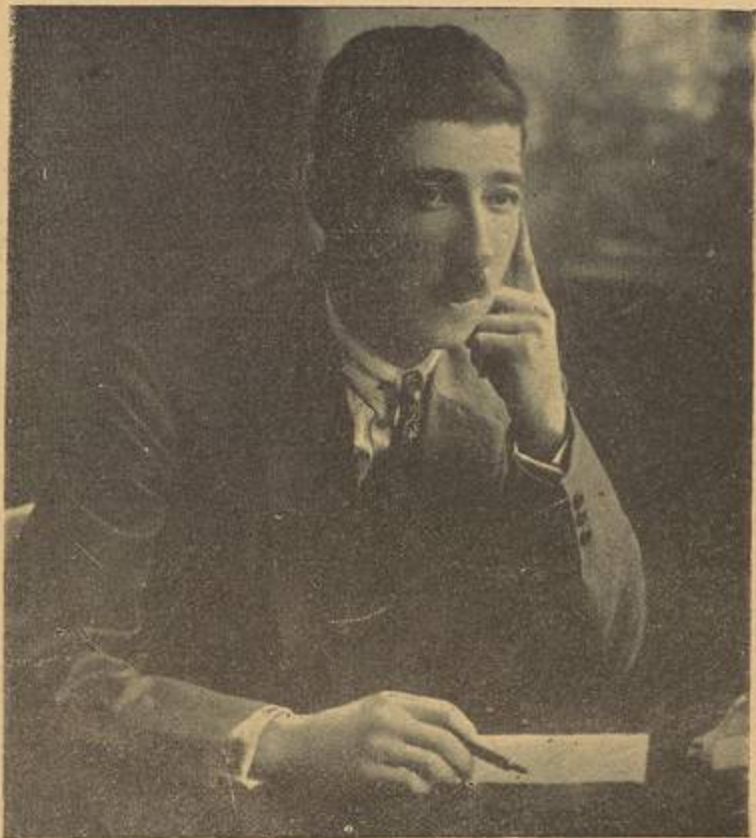
الى شباب العرب :

اهدي مذكراتي هذه ليطلعوا فيها على صفحات من تاريخ  
بلادهم الحديث لعلهم يجدون فيها عبرة وذكرى .  
دمشق ، اول اب ١٩٥١

فخري البارودي

2267  
.156  
.366

4-16-57  
O.L.L.  
7.1.1.



رسي

## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب الي كثير من الاخوان ان انشر مذكراتي . ولما لم تكن لدي مذكرات يومية مدونة ، فقد اعتذرت . ولما الحوا ، عدت الي ما دونته ، والى ذاكرتي استمد منها الوحي .

ليس المهم في كتابة المذكرات سرد الحوادث التي تمر بالانسان بل بيان اثرها في حياته . والواقع ان المذكرات التي تعني بالتوجيه الخفي هي التي تنال شأنا . فسرد حوادث البطولة هو توجيهه خفي نحو البطولة ، وذكر الام الوطن وبيان ما مر به من محن ، هو توجيهه غير مباشر لتقديس الوطن والدفاع عنه .

واهم ما في المذكرات هو وصف حياة الكاتب وروحه وبيئته ليجد فيها القارئ صورة واضحة للكاتب وللمجتمع فيحس وهو يقرأها ان الكاتب حي الي جانبه ، يحدثه ويقص عليه اخباره ، فيكون شاهد عيان خالد ، يساعد المؤرخ على ايضاح الحقائق .

ويجب ايضا الا تفقد المذكرات روح الحكاية ، وان يحس القارئ انه يقرأ فيها قصة حياة ، وحياة وطن في فترة معينة

- لا ان يشعر انه امام كتاب معلومات جاف . فالمعلومات تفقد روتقها اذا لم تكن مطبوعة بطابع الكاتب ، ممزوجة بعاطفته وحفقات قلبه .

على هذا اقدم الى القراء هذه المذكرات ، كتبتها بكل صدق وامانة ، وعملت بقول الحكيم القائل : «اذا اختصم اخي مع الحق فاننا مع الحق» .

دمشق في ١-٨-١٩٥١

فخري البارودي



## هارب من الموت

في صباح يوم من ايام الخريف ، سنة ١١٨٩ هجرية (١٧٧٥ ميلادية) ، طرق شاب غريب باب دار آل الشويكي ، في محلسة «الشويكة» اليوم ، وكانت في ذلك الزمن قرية في ضاحية دمشق القريبة ، ففتح الباب ، وخرج منه كهل استقبال الطارق ببشاشة .

كان الطارق فتى في ريعان الشباب ، ثيابه رثة ملطخة ، فيها صاحب الدار ، وسأله : اهذه دار الشيخ عبد الحلیم الشويكي ؟

فاجابه : نعم هذه داره ، فماذا تريد ؟

قال : لي حديث ، طويل اريد ان اقصه عليك !

ادخله الرجل الى الغرفة الاولى من الدار ، المعدة للضيوف ، ورحب به . وما ان استقر به المقام ، حتى طلب شيئا ياكله ، قائلا انه لم يذق طعاما منذ يومين . فسارع صاحب الدار وجلب ما وجد من حواضر البيت ، فأقبل الضيف يلتهم الطعام التهاما لشدة جوعه

حذق صاحب البيت ، سعيد بن عبد الحلیم الشويكي ، في الضيف الشاب ، فتمثل فيه ملامح صديق قديم لجده عبد الغفار الشويكي ، يدعى الشيخ ظاهر العمر (١) ، فقد كان ظاهر العمر -

---

( ١ ) جاء في دائرة معارف البستاني ان ظاهر العمر كان حاكم عكا وشيخ مشايخ بلاد صفد . وما لبث ان ضم اليه طبريا وصيدا . خرج على السدولة العثمانية في اواسط القرن الثامن عشر ، فجهزت الدولة عدة حملات ضده ، فعادت كلها خائبة . وفي سنة ١١٨٩ هجرية جرد حاكم مصر محمد ابو الذهب حملة ضد الظاهر ، بايعاز من الدولة ، فاستولى على غزة ، ثم على عكا . وقد هرب الظاهر اولاً الى جبال صفد ، ثم الى صيدا التي كان يحكمها احد رجاله احمد اغا الدنكرلي . وهنا جردت الدولة اسطولا حاصر صيدا بقيادة حسن باشا ، فانقلب الدنكرلي على سيده ورفض محاربة الاتراء ، وظل الظاهر يحاربهم وحده حتى قطع امله من النصر ، ففر من صيدا قاصدا بلاد بشارة ليحتمي عند صديقه الشيخ قبلان ، من اسرة علي الصغير ، في قلعة هونين . وفي الطريق كمن له الدنكرلي وقتله .

لهذا الشاب - ابيض البشرة ، واسع العينين ، صغير الغم ، رقيق الشفتين ، طويل الحاجبين ، مدور الانف ، طويل الذراعين ، خفيف الشعر اسوده (٢) . وكان ظاهر العمر يتردد على بيت عبد الغفار قديما . فلما توفي عبد الغفار ، استدعى ظاهر نجله الشيخ عبد الحلیم الى عكا ، فسافر اليها بين ١٧٣٢ و ١٧٣٥ . وكان عبد الحلیم فقيها شاعرا ، ففوض اليه ظاهر امر الفتوى في عكا والبلاد الخاضعة لحكمه ، واختاره مرييا لاولاده ، يدرسهم الاداب والفقه .

ظل سعيد يتفرس في وجه ضيفه وهو يأكل ، ويسائل نفسه : ايكون هذا الشاب من انساب ظاهر العمر ؟ لقد سمع سعيد اخيرا ان الحرب وقعت بين ظاهر العمر والعثمانيين ، وان حاكم مصر ، « ابا الذهب » جرد جيشا وزحف به على عكا ، ففر ظاهر العمر امامه . ترى هل فر هذا الشاب ، هو الاخر ، من عكا ، وجاء ينشد ملاذا في دار الشويكي ؟



لم يكن سعيد مخطئا في حدسه ، اذ ما انتهى الضيف من الاكل حتى قال : رايتك تحددق بي كثيرا ، فهل تريد ان تعرف من انا ؟ فاجاب سعيد : نعم . . . يخيل لي انك من آل الظاهر ، اليس كذلك يا ضيف الخير ؟

قال : اصبت ، انا محمد بن احمد بن ظاهر العمر . وقد تركت قريبتكم الشيخ عبد الحلیم الشويكي في بلاد بشاره ، واظننه التجأ الى بيت علي الصغير « شيخ المتاوله » .

فنهض سعيد وعانقه قائلا : انا ابن الشيخ عبد الحلیم !

راح الضيف يسرد حكايته ، فقال ما خلاسته : بعد احتلال عكا ، هربت مع جدي الظاهر ، وبقيت معه حتى مقتلته على يد احمد

---

(٢) هذه صفات ظاهر العمر كما وردت في تاريخ « الشيخ ظاهر العمر » للخوري مسطنتين الباشا المخلصي ( ص ١٤٩ ) .



اغا الدنكلي . وكان والدك الشيخ عبد الحلیم معنا ، فتركته في بلاد  
بشاره ، ولجات هناك الى بيت علي الصغير ، وفي نيتي السفر الى  
دمشق ، وقد آووني واطعموني ، ثم دلوني على الطريق الى دمشق .  
ومنذ خمسة ايام وانا اسعى من قرية الى قرية ، حتى وصلت صباح  
اليوم الى هنا . ولما لم يكن لنا في دمشق من اصدقاء غير آل الشويكي ،  
فقد بحثت عنهم ، فدلوني على داركم ، واحمد الله اني حظيت بك ،  
اني اريد الاختفاء في مكان لا تصل اليه يد الدولة ، لاكون امينا على  
حياتي حتى يقضي الله امرا كان مفعولا ، فأشر علي بما افعل !

فطمأنه سعيد وهذا من روعه ، قائلا : انت بعد اليوم منا ،  
فلا بأس عليك . قم واسترح ، وغدا نرى ما يكون !

\*\*\*

في صباح اليوم التالي اصطحبه سعيد الى الحمام ، واستبدل  
له اسماله بثياب شامية . وبعد ايام اخذه الى رئيس مصنع بارود  
(لأوجاق-الكيجري) الانكشارية وكان صديقا له، فقدم اليه محمدا،  
زاعما انه نسيبه ، وطلب له عملا في المصنع ، فقبله الرئيس حالا  
وسلمه الى «الاسطه» ، اي رئيس العملة ، ليعلمه الصنعة . ومنذ  
ذلك الحين ، تحول اسمه من محمد الظاهر الى محمد البارودي .

وبعد زمن اتقن محمد الصنعة، واصبح رئيسا للمصنع، واحرز  
رتبة الاغوية . ولم يمض على دخوله دمشق بضع سنوات حتى  
تزوج ورزق عدة اولاد . وقد لاقى حتفه بحادثة انفجار في المصنع ،  
فقدفه الانفجار من محلة السنجدار الى امام دائرة المشيخة في  
الساحة العسكرية (وهي قصر العدل اليوم) ، فتكسرت اضلاعه ، ولم  
يسلم غير راسه . وقد بقي حيا ثلاثة ايام ينازع الموت . وفي اليوم  
الثالث عاد ولده حسن من الحج ، فمات قرير العين برؤيته .

\*\*\*

يتضح مما ذكرت ، ان جدي الاول ، محمد بن احمد بن ظاهر  
العمر ، الذي تلقب بالبارودي ، دخل دمشق سنة ١٧٧٥ م . وعلى

هذا الاساس اكون انا : فخري بن محمود بن محمد حسن بن محمد بن حسن بن محمد الظاهر (الملقب بالبارودي) بن احمد بن ظاهر العمر اما نسبي من جهة والدتي ، فانا فخري بن نظيرة ابنة امين بن سليمان العلمي ، المعروف بالكيلاراميني ، واصله من القدس . ولم اذكر نسبي هذا على سبيل التفاخر ، بل لتسجيل الواقع ، ورحم الله الشاعر القائل :

قالوا : «ابن من انت يا هذا ؟» ، فقلت لهم :  
«اني امرؤ جسدته الاعلى ابو البشر !»

قالوا : « وهل نال مجدا ؟ » ، قلت : « واعجبي ،  
اسألوني بمجد ليس من ثمري ؟ »

\*\*\*

ولدت في الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس ، الواقع في  
٥ رجب سنة ١٣٠٤ هجرية ،  
في دارنا في حي القنوات بدمشق .  
وكان جدي محمد حسن  
البارودي قد سافر يومئذ الى  
بيروت في طريقه الى الاستانة ،  
ونزل فيها ضيفا على صديقه  
فخري بك ، والد الداماد احمد  
نامي ، فابرق كاتب دائرتنا  
يوسف افندي الكاتب الى  
جدي يبشره بولادتي ، فاجابه  
جدي مبارك ، تاركا لوالدي  
الخيار ان يسميني اما «محمد  
فخر الدين » او « واصل » ،



والدي محمود البارودي  
( توفي ١٣٢٢ هجرية )





جدي لوالدتي امين العلمي الكيلاراميني ،  
وهو بلباس « السلاخشور » اي حرس  
السلطان عبد العزيز .



جدي لوالدي محمد حسن البارودي  
( توفي ١٢٠٧ هجرية )

فاختار والدي الاسم الاول .  
ومع الزمن حذف الناس منه  
اسم « محمد » ، ثم ما لبثوا ان  
لقبوني بـ « فخري » وحذفوا  
« الدين » ، وهكذا استقر اسمي  
نهائيا على « فخري » وحده ،  
وما زال كذلك الى اليوم .

## عمر الكتابات

نشأت في محيط «ارستقراطي» بالنسبة لذلك الزمن . كان آل البكري احوال والدي ، وابناء العظم ابناء عمه والدتي ، وآل العلمي اولاد عمها ، وآل العابد والركابي وشيخ الارض والشيخ فضلي والحسيبي وغيرهم من اصهارنا . ونظرا لكثرة التزاوج بين الاسر الدمشقية ، كانت اسر كثيرة تمت الينا بالنسب .

ولما كنت وحيدا لوالدي ، ولم يكن في هذا الفرع من آل البارودي ولد ذكر سواي ، فقد ربيت بالدلع والدلال ، على ايادي الاهل واكتاف الحشم . ولولا لطف الله ، وانتسابي في شبابي لحلقة الناهضين من تلامذة الشيخ ظاهر الجزائري رئيس الاحرار في القرن التاسع عشر ، لكنت اليوم في عداد الموتى الاحياء !

كان ذلك المحيط محيط نفاق وجهل . وكل من اراد التقرب من الاغنياء لقضاء حاجة - حتى ولو كان منتسبا الى الامام علي كرم الله وجهه ، او الى احد الصحابة الكرام رضي الله عنهم - يصدق عليهم المديح والثناء جزافا ، فيصدقونه ، وتنتفخ رؤوسهم بغرور دائم . ولا ابالغ اذا قلت ان اكثرهم كانوا ينظرون الى الناس نظرتهم الى العبيد والخدم .

وما زلت اذكر كيف كان هذا التأليه ينعكس في احاديث الناس ، فقد كنا نسمع الخدم والمزارعين والباعة يذكرون اماننا آباءنا واجدادنا بهذه اللهجة : رحم الله جدك ، ما كان ابهى طلعتة ، وما اكرمه ، وما اعظم جاهه . كان عندما يمر في المحلة ، ينهض الناس اجلالا له ، ويفتحون له الطريق الخ .

هكذا كانوا يحسبون سلام الباشا او البك نعمة من الله . وفي وسط هذا المحيط نشأت . واني احمد الله انه يسر لجدي احضار مرب لي ، خلصني من ايدي الخدم الجهلاء . ذلك ان السلطان عبد

الحמיד لما تولى الملك بعد خلع السلطان مراد ، طرد حاشية السلطان  
المخلوع ، فتفرق افرادها في انحاء المملكة ينشدون عملا ، وجاء  
بعضهم الى دمشق ، فاستخدم جدي منهم مصطفى اغا رئيس  
طباخي السراي (اشجي باشي) والخصي خير الدين اغا (حرم اغاسي) .  
وقد اختار خيرا الدين مرييا لي ، فكان لا يفارقني لحظة ، ويسهر  
على تربيتي ، ويمنع الاهل والاصدقاء من مداعبتي بكلمات نابية .



**الخدم والحشم :** كان ذوات تلك الايام ، ومعظمهم من اصحاب  
المزارع الاغنياء ، يكثر من اقتناء الخدم . فلكل ذات في داره «وكيل  
خرج» يشرف على مصروف الدار ، وكاتب للمحاسبة ، وقهوجي ،  
وحوذي وندل (سفرجي) وسائس . وكانت بيوت «الاكابر» تعج  
بالخدم من سود وبيض ، خاصة بالممالك المنتمين الى الشركس  
والكرج . وكانوا يقتنون ايضا الجواري على اختلاف الوانهن ،  
ويستولدون الاماء . ومنهم من كان يعترف بولده ، ومنهم من  
يحرمه اكراما لزوجاته واولاده .

وكان جميع الخدم تقريبا اميين جهلة ، خصوصا ان الذوات  
كانوا يبحثون عن ارخص الخدم اجرا ، ليوفروا بعض درهمايات في  
الشهر . على ان بعضهم كانوا يحسنون معاملة الخدم ، فيستبقونهم  
في بيوتهم حيث يتزوجون ويصبحون كأفراد العائلة .  
ومما يؤسف له ان تربية الاولاد كانت في ايدي الخدم الجهلة ،  
وما تزال كذلك الى اليوم . وانه لمن المؤلم ان حكوماتنا العربية لم تعر  
هذا الموضوع الاهمية المناسبة حتى الان ، فلم تفتح مدارس لاعداد  
مربيات الاطفال والخدم .



**الخجا نفوس (١) :** كان في دمشق نساء يعلمن القرآن

( ١ ) الخجا كلمة اصطلاحا على اطلاقها على المرأة التي تعلم الاطفال مبادئ  
القراءة . وهي مشتقة من كلمة « خواجه » التركية ، ومعناها المعلم .



الكريم دون سواه ، فارسلتني والدتي الى دار احدها «الخجا نفوس» ، في محلة التعديل في القنوات .

كانت دارها صغيرة ، فيها غرفة متسعة ، يجلس فيها الاولاد . منهم من يأتي بطراحة ، ومنهم من يأتي بجلد شاة . ولا يزيد عمر اكبرهم عن السابعة . يجلسون من الصباح الى المساء في هذه الغرفة الرطبة . واذا تكلم احدهم او لعب اكل «الفلقة» . وكانت الخجا نفوس كسيحة ، لديها عصي كثيرة مختلفة الطول لضرب الاطفال ، فلا يفوتها طفل قريب او بعيد .

وكانت كبيرات البنات يقمن بخدمة الدار من كنس وشطف وجلي . اما الصبيان فممنهم من يشري حوائج الخجا ، ومنهم من ترسله لجلب «الزوادات» من دور اولاد الاغنياء . اما انا فنظرا لرشاقتي وخفتي ونباهتي - على رايها - فقد سلمتني معالجة بعض مشاكل الاولاد .

وكان من تلامذة الخجا المرحوم منير الدلائي (ابو عصام) . وكان لا يحسن اخراج الحروف صحيحة لصفه ، فاقراته الخجا يوما حرف الذال ، فلغظه كالزاي ، ولما كررت له الحرف ولم يضبطه ، غضبت واحضرت خيطا رفيعا من «المصيص» وعقدت به لسانه عقابا له . ولم يمض عشر دقائق حتى ضب اللسان على الخيط وتورم ، وازرق وجه الطفل . ولما رات اخته «افاكت» ذلك ركضت عائدة الى بيتها ، فرات والدها المرحوم محمد الدلائي امام الباب فاخبرته بما جرى ، فاسرع مع جاره علي الساطي الطبيب الشهر ، الى دار الخجا .

وحاول الساطي قطع الخيط ، فلم يتمكن من ادخال مقصه الرفيع ، لان اللسان كان قد غطى الخيط . وكانت حالة الطفل تزداد سوءا ، وقد جحظت عيناه وكادت روحه تزهب ، لولا ان الله وفق ، وتمكن الساطي من ادخال ميل رفيع بين اللحم والخيط ، فرفع طرفا من الخيط وقطعه بالمقص ، فنجى الطفل .

وعلى الاثر شتم الوالد الخجا شتما قبيحا وانبها تائيبا عنيفا  
واخذ ولديه وذهب بهما . ولم يعودا بعد ذلك الى الخجا .

وكنت امازح منيرا بعد ان كبر ، ودخلنا المدرسة الاعدادية .  
وكان طويل اللسان ، فاقول له : «ليت الخجا قطعت لسانك يا  
مفزور !» ، فيغرق في الضحك !

\* \* \*

«الختمة» : من المعلوم ان اولاد المسلمين كانوا يحتفلون باكمال  
قراءة القرآن الكريم في الكتاب او الخجا بختمة . وكان للختمة احتفال  
خاص . وهكذا اقاموا لي مهرجانا يوم ختمت القرآن ، فخرج  
الطلاب جميعا من دار الخجا نفوس الى دارنا في موكب مشى فيه  
الطلاب بصف مزدوج ، ينشدون الاناشيد المدرسية . وكان عمري  
ست سنوات آنذاك . ومن الاناشيد التي انشدوها :

سلام سلام سلام سلام  
سلام عليكم كثير السلام

ومنها : بلبل الاقبال غرد وبشير السعد قال  
ظهر الهادي محمد شمس افلاك الكمال

ولما وصل الموكب الى دارنا وقف والدي وجدي لامي ، وجمع  
غفير من احوال والدي ووالدتي مع بعض اصدقاء والدي في باحة  
دارنا «البراني» الخارجية الخاصة بالرجال ، وتناول احدهم المقرا  
- ويسمونه كرسي المصحف - من على راس حامله ، فوضعه على  
حافة حوض الماء (البحرة) ، والمصحف فوق الكرسي ، ووقفت امامه  
وانا مرتد ثيابا مزركشة بالفضة صنعت خصيصا ليوم الختمة ،  
وعلى رأسي طربوش زينوه بالماس واللؤلؤ . ثم رفع الطربوش وكيل  
خرج دائرتنا امين اغا ابو كامل ، وابدله بطربوش جديد بدون حلي ،  
وبدات قراءة الفاتحة ثم قرأت من اول سورة البقرة ، حتى وصلت  
الى الاية الكريمة : «والذين يؤمنون بما انزل اليك وما نزل من قبلك



وبالآخرة هم يوقنون . اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون ، ان الذين كفروا سواء عليهم اانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى ابصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم »  
ولما وصلت الى هنا ، خطف اكبر الاولاد طربوشي وركض به الى والدي واعطاه اياه مباركا له بالختمة . فاعطاه والدي دينارا ذهبيا «حلوانا» له مع الطربوش ، وفرق على كل من الاولاد ريالا مجيديا .



**الختان :** ما تزال حفلات الختان التي تقام اليوم في احياء دمشق النائية ، كما كانت قبل خمسين سنة : يقام الاحتفال في دار صاحب الختان ، ويحضره تلامذة الخجا او الكتاب الذي يتعلم فيه المختون ، كما يجري في مهرجان الختمة .

بمناسبة ختاني اقاموا لي مهر جانا فخما ، وزين اهلي راسي بالماس والجواهر ، واركبوني حصانا سارت امامه صفوف الطلاب بالاناشيد السابقة (سلام سلام سلام سلام) ، فطاف الموكب سوق الحميدية وسوق الطويل ، ثم عدنا الى دارنا .

وبعد ان اكل المدعوون ورفقائي وتلامذة الخجا الحلويات ادخلوني الى غرفة خاصة ، فامسكتني رجل قوي العضلات ، بينما اجري لي الجراح علي الساطي عملية الختان . وكانت العادة ان يجريها المزين (الحلاق) لا الطبيب . وما زلت اذكر ان جرحي لم يشف بسهولة ، فتعذبت ثلاثة اشهر . وقد وعدت والدي ان تقيم لي «سيرانا» كبيرا عند شفائي وبرت بوعدھا .

**الكتاب :** الكتاب هو شبه مدرسة اهلية ، يتعلم فيها الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب عند شيخ يتناول اجره اسوعيا . وكانت الاجرة تسمى «خميسية» لان الاولاد كانوا ياتون بالمرتب يوم الخميس ، وكان يتراوح بين القرش والبشلك في الاسبوع .

وكثيرا ما كان الوالد ينقل الولد من كتاب الى كتاب ، ليقتصد نصف قرش . وكان الاغنياء يعطون المعلم زيادة عن الخمسية رغيفا من الخبز . والكتاب عبارة عن غرفة رطبة يجلس الاولاد فيها على الارض فوق الحصر ، وامام كل طفل صندوق صغير يضع فيه صبرته (١) وادواته . وكان اكثر الشيوخ من اشباه المتعلمين ، ممن اغلقت في وجوههم ابواب الرزق ، فتسلطوا على هذه الصنعة للارتزاق .

والواقع ان الكتابيب كانت زرائب لحبس الاطفال في النهار ، حتى ترتاح امهاتهم منهم . وكان الشيخ يستخدم الاطفال كما يريد ، فمنهم من يكنس ، ومنهم من يشطف ، ومنهم من يقوم بخدمة ساقى الشاي للشيخ وضيوفه .

\*\*\*

**انا في الكتاب - بعد**  
 الختمة والختان ، ارسلني اهلي الى كتاب « الشابكية » في محلة القنوات . وقد وقع الاختيار عليه لانه قريب من دارنا ، فلا يبعد عنها اكثر من ستين مترا .



نافذة كتاب « الشابكية » التي كان فخري يجلس الى جانبها

كان الكتاب عبارة عن غرفة عفنة ، اشبه بالسجن منه بالمدرسة وكان شيخه الشيخ عثمان المصري طاعنا في السن ، يتجاوز عمره الثمانين . وكنت اجلس الى جانب النافذة ، اتطلع منها الى الخارج ، ولا افهم كلمة مما سمع .

(١) الصبرة هي اسم الرسالة التي كان يقرأ فيها الغلام مبادئ القراءة وما تزال تدعى بهذا الاسم في المدارس الصغيرة .



هكذا لم اتعلم عند الشيخ عثمان كلمة واحدة تزيد عما قرأته عند الخجا نفوس . فنقلني والذي الى كتاب «القبه» ، عند مدخل الدرويشية في القنوات . وكان شيخه فظا قاسيا ، ومع ذلك تعلمت عنده شيئا من مبادئ الكتابة والحساب .

وبعد بضعة اشهر استعار والي سوريا ناظم باشا دارنا في القنوات ، وتعهد بان يسلمنا اياها بعد بضعة اشهر ريثما يجد دارا مناسبة له . وعلى الاثر انتقلت عائلتي الى بلدة «دوما» حيث تملك دارا واسعة . وبدلا من ان يعيد الينا والي دارنا في دمشق في بضعة اشهر ، ظل فيها سبع سنوات . . .

اما انا فقد نقلني والذي مع العائلة من كتاب دمشق ، الى كتاب الشيخ عرابي في دوما، وهو واقع في داخل جامع «ابي الرهيج» . وكان الشيخ عرابي شرسا ، لا يعرف وجهه الضحك ، وكانت غرفة الكتاب لا ترى الشمس ابدا ، فساءت حالتني الصحية من التردد عليه ، وعندئذ نقلني والذي الى كتاب الشيخ احمد مجيد في جامع الرئيس ، في الحارة الشرقية . وكان هذا الشيخ حسن الخط والخلق فعلمني في مدة قصيرة الحساب والقراءة والخط ، ثم ادخلني في طريقته ، وهي الطريقة الرشيدية . وكان هو شيخ هذه الطريقة في دوما . وهي احدى الطرق الصوفية .

وبقيت في هذا الكتاب الى ان تركنا دوما وعدت مع اسرتي الى دمشق ، حيث استأجر والذي دارا في السنجدار لان والي لم يشأ ان يترك دارنا في دمشق . وعندئذ دخلت المدرسة العازرية مما سرد تفصيله .

\*\*\*

**ثلاث اواق لحمية :** عندما كنت في دوما ، وقعت لي حادثة لا بأس من سردها ، لتصير جانب من حياة ذلك المحيط . ففي ذلك الحين (السنة ١٣١٣ هجرية) قدم من مصر الى دمشق الشيخ محمد الدندراوي ، شيخ مشايخ الطريقة الرشيدية . ثم جاء الى دوما

لزيارتها ، وحل في بيت آل الرئيس ، حيث اقيم له استقبال عظيم  
وما زلت اذكر كيف انه مد رحله امام جميع الناس ، ولم ينهض  
لاحد من زائريه ، حتى ولا للقائمقام .

وفي المساء ، بعد الطعام ، اقيمت حفلة «ذكر» ، ثم راح الناس  
يقبلون يده ، ويمرون بها على وجوههم ورؤوسهم . ولما وصلني  
الدور ، قبلت يده . وكنت يومئذ في السابعة من عمري ، فقدمني  
اليه الشيخ احمد مجيد ، وعرفني بانني «النجل الوحيد للحسيب  
النسيب ، الوجيه النبيه» الى اخر المعروفة المعروفة . فدعا لي  
الشيخ بالتوفيق والفتح .

وهنا عصفت بي النخوة ، فدعوت الشيخ الى «سيران» غدا  
في «المزرعة» ، وهي دوحة غنية بالمياه والاشجار ، فقبل دعوتي  
وهو يقول : بارك الله ! بارك الله !

بعد انتهاء الحفلة نصف الليل ، عدت الى البيت ، فايقظت  
والدتي ، وطلبت اليها ان تعطيني المظمورة (١) التي اجمع فيها  
خرجيتي ، حتى اشترى ثلاث اواق لحما ، تعمل بها «صفيحة»  
للشيخ الدندراوي في المزرعة !

وما ان سمعت والدتي الخبر وادركت انني دعوت فعلا  
الشيخ الكبير الى «سيران» حتى طار صوابها ، فايقظت والدي  
وابلغته الحكاية ، فما كان منه الا ان ارتدى ملابسه ، واستدعى  
الخدم ، واوفد الرسل الى املاكه في قرى الجرباء والريحان  
والعبارة لاستقدام الذبائح ، كما ارسل اخرين الى المزرعة لاعداد  
المكان للسيران . وعند الصباح توافدت علينا الخيول والبغال  
والحمير لنقل الضيوف ، وارسل والدي عربته الخاصة لنقل  
الشيخ الدندراوي ، فكانت حفلة عامرة بكل معنى الكلمة .  
عدنا في المساء الى البيت منهوكي القوى ، وانا افكر في الدعوة

(١) المظمورة هي علية من الفخار ، ذات شق لادخال الدراهم فيها .  
وبعضهم يسميها «المكبورة» .



التي كنت اظن - على صغر سني - ان ثلاث اواق من اللحمة تكفي لها . وفي الصباح التالي استدعاني والدي ، فادركت ما ينتظرني فهربت الى الحوش واختبأت في زريبة البقر ، ورفضت الذهاب اليه . وعندئذ جاء بنفسه يناديني من خارج «البايكة» ، فلم اجد بدا من الخروج ، ووقفت امامه مطرقا ، واذا به يقول : ايه . . هل انبسطت امس يا حبيبي ؟

فلم اجبه ، فقال : لا تخف ! تقدم !

وتقدمت منه ، واذا به يصفعني صفعة على وجهي ، كادت تخلع رأسي ، ففررت من امامه وهو يقول : سود الله وجهك . . كنت تريد ان تسود وجهي بدعوتك . . . خذ هذا الدرس عبرة لك في المستقبل !

هذه الصفعة كانت اقوى صفعة «اكلتها» من والدي في حياتي، وكانت سبب انصرافي عن الطريقة الرشيدية ، بل عن جميع الطرق . وبعد مدة قليلة عادت اسرتنا من دوما الى دمشق ، وانطوت بذلك تلك الصفحة في حياتي .

## من مدرسة الى مدرسة

في المدرسة العازرية : بعد عودتنا من دوما الى دمشق ، ارسلني والدي الى المدرسة العازرية ، تلميذا داخليا ، لكي اتعلم اللغة الفرنسية ، وذلك سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ ، وقد شعرت حالا بالفرق الكبير بينها وبين الكتاتيب التي تعاقبت عليها ، فهذا معهد علمي بكل معنى الكلمة ، لا زرائب للاطفال . والحمد لله على ان وزارات المعارف حاربت تلك الكتاتيب ، وقيدت فتح المدارس الاهلية بشروط علمية وصحية .

ولا اذكر سوى اليسير عن ايامي في تلك المدرسة . ومن ذلك حادث وقع مع ابن خال والدي فوزي البكري . كان فوزي في الصف الرابع : وانا في الصف الاول . وفي يوم عطلة في الصيف ، ذهبتا معا الى القابون ، حيث زرنا والده فوزي باشا البكري . ولما سألني الباشا عن حالة المدرسة ، قلت له انها حسنة ، لولا ان عدد «المشمشات» التي يقدمونها الينا بعد الطعام قليل جدا .



فخري في المدرسة العازرية  
سنة ١٨٩٨ ميلادية

وفي اليوم التالي اوصلنا الباشا الى المدرسة ، وقابل رئيسها وقال له : ان الاولاد يشكون من قلة الفواكه ، فاذا كنتم لا تقدرتون على اشباعهم فاننا نستطيع ان نرسل اليهم المشمش الكسافي كل يوم !

فاستحيى الرئيس ووعده باجراء اللازم . وكانت غرفة الطعام كبيرة ، يأكل فيها الطلاب جميعا باشراف احد الرهبان . وبينما كنا نتناول طعام الغداء ، دخل علينا الرئيس ووراءه عدد

من الاساتذة ، وخلفه خادم يحمل طبقا كبيرا مليئا بالمشمش .  
فوقفنا جميعا احتراما له ، واذا بالرئيس ينادي بصوت عال :  
مسيو بكري . . اين هو مسيو بكري ؟

فاجاب فوزي : بريزان . . (يعني حاضر)

فتناول الرئيس الطبق من الخادم ، وقدمه الى فوزي قائلا  
بلهجة كلها سخرية : «تفضل اشبع مشمش» !

وارتبك فوزي ، واجاب : انا لم اطلب فواكه . . ولكن الذي  
طلبها فخري البارودي !

وكنت اجلس في زاوية اخرى من القاعة مع صفار الاطفال ،  
فتقدم نحوي الرئيس وقال بلفة عربية محطمة : انتي ما في  
شبع مشمش ؟

فاجبته : نعم . . ما في شبع !

فاعطاني الطبق ، فتناولته بكل بساطة قائلا : مرسى مون بير . .

وهكذا وضعت الطبق امامي ، ورحت افرق منه على رفاقي  
دون اي خجل ، بعكس فوزي الذي لم يعد يجرا على النظر الى  
الرئيس من شدة خجله !

\*\*\*

على الرغم من «شيطنتي» ، ومن ان «السينيال» لم يفارقني  
يوما واحدا اثناء وجودي في المدرسة ، فقد تعلمت الفرنسية ،  
واصبحت اتكلمها بشيء من السهولة . وما يزال لدي دفتر من  
دقاتر تلك المدرسة ، فيه تاريخ دخولي اليها ، وخروجي منها ،  
وقد كتبت عليه الادارة الملاحظة التالية عني : «دائما معاقب عقابا  
خفيفا . .»

اديت الفحص للانتقال الى الصف الثاني في السنة الثانية  
( ١٨٩٨ - ٩٩ ) ، ولكن والذي لم يلبث حتى نقلني الى مدرسة



أخرى . ولا ادري السبب حتى الان ، ولكنني بقيت اتأسف على انتقالي ، لان ذلك صرفني عن اتقان اللغة الفرنسية ، وقد احتجت اليها كثيرا عند دخولي معترك السياسة ، خاصة في العهدالفرنسى .

\*\*\*

**المدرسة الريحانية :** نقلني والدي من العازرية الى مدرسة «الريحانية» ، وهي مدرسة اهلية اسسها الشيخ محمد المبارك (جد الشيخ محمد المبارك النائب الحالي) وخلفه فيها الشيخ عبد الجليل الدرہ . وقد جمعت نخبة صالحة من ابناء دمشق .

كانت المدرسة تتألف من ثلاثة صفوف ، ثم اسسوا فيها صفا رابعا سموه «صف مخصوص» لكبار الطلاب ، تعطى فيه الدروس الادبية زيادة عن دروس الصف الثالث ، ويستظهر طلبته قصائد شعرية ، اذكر منها «لامية العجم» و«لامية العرب» ، وغير ذلك . وعلى الرغم من صغر سني ادخلوني الى هذا الصف . وكانت الاجرة فيه ريبالا مجيديا في الشهر .

كان اساتذة المدرسة يسمحون لطلاب «الصف المخصوص» بحضور اجتماعاتهم الخاصة ، وحلقات السمر التي يعقدونها ، فتدور فيها المذاكرات الادبية والانشيد . ولما كان شرب الشاي نقطة الدائرة في هذه الاجتماعات ، فقد كان اكثر الاناشيد عنه . واذكر منها :

يا مدير الشاي هيا واسقنا كاس الحميا  
ان تكن راضي عليا . . . (نسيت الباقي)  
ومنها ايضا :

يا حسن شاي لاح في بلوره يزهو كتبر في لجين رائق  
اداره الساقى على الندمان في زينة معشوق ولون العاشق

وبين الطلبة الذين اجيز لهم حضور جلسات الاساتذة ، السادة لعلفي الحفار ، عزت حباب ، خليل ملص ، شكري العجلاني



اما انا ، فرغما عن كوني من  
تلامذة الصف ، فانهم لم  
يسمحوا لي بالحضور نظرا  
لصغر سني ، وتعويفا على  
ذلك «انتدبوني» مع ممدوح  
العابد لكي نهىء لهم الشاي ،  
على ان نبقي خارجا . فكتنا  
نغلي الماء في «السماور» ،  
ونخمره في «البراد» ونصبه في  
الكؤوس ، وعندئذ ندق عليهم  
الباب ، فيخرج الينا الساقى  
صاحب النوبة في ذلك اليوم ،  
ويستلمه منا مع العدة .  
وكانت العدة مؤلفة من السماور  
والبراد وعلبة الشاي والسكر  
واكياس الفحم وطاسة غسيل  
الكؤوس والملاعق الصغيرة، والكل



الشيخ محمد المبارك  
مؤسس المدرسة الريحانية

موضوع في صندوق خاص ذي بيوت عديدة . وكان الصندوق  
رفيق الشيوخ والمعلمين في «السيران» يوم العطلة الاسبوعية .

وبفضل انتدابي لهذه «المهمة» ، اتيح لي عن غير قصد ، ان  
اتعرف الى محلة «زقاق المحكمة» التى تقوم فيها المدرسة الريحانية  
وان ادخل بيوتها . ذلك ان الثقاب (الكبريت) كان مجهولا فى تلك  
الايام . وكان الناس يحتفظون فى بيوتهم بجمرة كبيرة الحجم ،  
مطمورة فى «المنقل» ، فتبقى ٢٤ ساعة قبل ان تصبح رمادا .  
وكلما احتاج اصحاب الدار الى «ولعة» ، اقتطعوا من الجمرة قبسا  
لاشغال النار .

وجرت العادة ان يقترض الجار من جاره قبسا او قطعة من

الجمر . فلما عينوني محضرا للشاي ، اضطررت ان اذهب كل مرة الى البيوت المجاورة ، «اشحذ» منها قبسا لاشعال «السماور» ، وهكذا طرقت مع الزمن ابواب جميع بيوت الحي ، وتعرفت الى اهلها . وما يزال ببالي اسماء بعض تلك الاسر ، منها ال الصبان ، وال مراد ، وال الحديدي ، وسواهم . وكثيرا ما كنت في ساعة الحشرة استعير الجمرات من اربعة او خمسة بيوت في آن واحد ، على سبيل الاحتياط ، فاذا انطفأت «ولعة» تكون الاخرى جاهزة !

ومر على طـلاب «الصف المخصوص» زمن طففت فيه عليهم «موضة» التعمم بعممة بيضاء . ومن بين الذين تعمموا السادة لطفسي الحفار ، خليل ملص ونسيب البكري . واراد الاخير اقتناعي بالتعمم ، فلم يفلح . وقد ظل هو متعمما مدة سنة ونصف . وقبل ان ينتقل من المدرسة الريحانية ، الى المدرسة الاعدادية (اي مكتب عنبر) خلع العمامة ، كما خلعها لطفسي الحفار . اما خليل ملص فقد «ملص» منها بعد ان اعتمر بها ببضعة ايام . وهكذا تبددت موجة التعمم في تيار العصر الجديد .



السيد نسيب البكري بالعمامة البيضاء في عهد المدرسة الريحانية



**المدرسة الياغوشية :** كان أبناء «الذوات» في ذلك الزمن يأتفون دخول المدارس الحكومية ، واذا دخلوها بالفسوا في الصلف والتمرد . وما اقل الذين نجحوا منهم فيها في تلك الايام .

في ذلك الحين عين والذي السيد علي السقا اميني ، رئيس كتاب مديرية المعارف ، وليا لامري ، فاقنع والذي بنقلي من المدرسة الريحانية الى «مكتب الياغوشية» . وكان الاتراك يطلقون اسم مكتب على المدارس الحكومية . وكان في دمشق يومئذ ١٣ مدرسة



المدرسة الياغوشية كما تبدو اليوم ، وقد اصبحت الان ماوى للاجئين من فلسطين

حكومية للذكور ، ومنها المدرسة الياغوشية المشار اليها ، الواقعة بين محلة الخضيرية والشاغور ، وفيها خمسة صفوف .

اختارت مديرية المعارف لادارة هذه المدرسة ، الشيخ ابو الخير المنير . ورغم عمته البيضاء وانتسابه الى طبقة الشيوخ المعلمين ، فقد كان فتى قويا ، وقد وقع الاختيار عليه لرجولته وشجاعته ، لان المدرسة واقعة بين حيي الشاغور والميدان ، اللذين اشتهر سكانهما بالمرجلة «والقبضيات» .

وكان الحيان في حالة حرب دائمة ، تقع بينهما  
المعارك بصورة مستمرة . واذا ذكر الشاغوري  
او الميداني امام اهل الاحياء الاخرى من دمشق ، قالوا عنه :  
«دعنا منه ، فان هذا اصعبه ثخينة» . ويقصدون بذلك انه  
صعب المراس ، قاسى القلب .

وكان من الطبيعي ان تمتد الخصومة بين الحين الى طلاب  
المدرسة ، فعند خروجهم في المساء منها ، كان الشجار يبدأ بين  
الطلاب الشاغوريين والطلاب الميدانيين . ولو لم يكن مدير المدرسة  
الشيخ المنير قوي الشكيمة صنديدا ، يملأ قلوب الطلبة رهبة  
وخوفا ، لدار القتال كل يوم داخل المدرسة من الصباح الى  
المساء !

ولم يكن الشجار مقصورا على ابناء المدرسة الياغوشية  
فيما بينهم ، بل كثيرا ما كنا نتشاجر مع ابناء الكتاتيب الاهلية ،  
فيندخل رجال الشرطة لتفريقنا . ولا بد من الملاحظة بان  
ابناء المدرسة - على اختلاف احيائهم واحزابهم - كانوا يقفون  
صفا واحدا في وجه الطلاب الغرباء و ضد «زعران» الحارات .  
وكانت محافظ الجلد التى نضع فيها الكتب ونحملها على ظهورنا ،  
دروعنا الواقية في المعارك !

\*\*\*

**«السلحة» الطلبة :** ما دمنا نتحدث عن مشاجرات  
الطلاب ، فلا بأس من ذكر «الاسلحة» التى كنا نستعملها في ذلك  
الحين ، وهى النقيرة ، والمداحة ، والمقلاع ، والنقفيه ، والشبرية  
والبونينة .

النقيرة قطعة من غصن غليظ ، مقطوع من شجرة «الدردار»  
او اللوز ، طولها من شبر الى شبر ونصف ، رأسها مبري حاد  
كرأس المسمار .



المداحة قطعة من قماش صوفى ، بيضوية الشكل ، موثوقة الى حبلين من الجانبين ، يلفها التلميذ حول خصره تحت زناره . وعندما يشتبك بشجار ، يخرجها ، ويضع فيها الحجارة ، ويقذفها بها الى مسافات بعيدة .

المقلاع ، ويسميه بعضهم «ألبان» ، هو اكبر من المداحة ، فاذا كان حجر المداحة بحجم اللوزة ، فإن حجر المقلاع بحجم الجوزة الكبيرة ، وقد يكون احيانا بحجم الرمانة .

التقفية ، ويقال لها «العققات» ، هي شعاب من اغصان الشجر ، تشد اليها خيوط من المطاط ، في وسطها جلدة توضع فيها الحصوة ، فتقذفها بعيدا . وكنا نستعملها لصيد العصافير .

الشبرية خنجر صغير ، اما البونية فهي قطعة من حديد او نحاس ، فيها اربعة ثقبو تدخل بالاصابع ، ولها انصال مسنة ، وهي خطيرة جدا .

بعد وصف هذه «الاسلحة» لا ننسى ذكر الامواس على اختلافها ، ومنها ذات الكباس ، وكذلك العصي والقضبان والحجارة والطوب ، وكل ما تقع عليه الايدي في الازقة ، وفي ساحة «الكونة» .

\* \* \*

**الكلاوي ومعلم التركية :** قلت ان مدير الياغوشية الشيخ المنير كان مرهوب الجانب لقوته وشجاعته ، لذلك استهابه الطلاب . ولكنهم ما كانوا ليترددوا في الاعتداء على المعلم الضعيف . وانني اضرب مثلا على ذلك الحادثة التالية :

كان في مدرسة «القماحين» معلم للغة التركية ، وكان قاسيا على الطلبة ، لا يغفر لهم اي ذنب ، ويجازي كل قصور بالضرب او بالفلق .

وكان بين الطلاب تلميذ «مدلل» عند اهله ، يسمى محمد

حسن راجحه ، من سكان باب الجابية ، له خال معدود بين كبار «القبضيات» ، يلقب بالكلاوي ، وكان الكلاوي يحب ابن اخته محمد حسن جبا زائدا ، حتى سماه باسم عائلته ، وكناه من صغره بابي حسن .

هذا الغلام عصي مرة على معلم التركية ، وابى ان يحفظ الدرس فهدده المعلم بالفلق اذا داوم على التمرد ، فخرج الغلام يبكي وذهب يشكوه الى خاله الكلاوي ، فما كان من هذا الا ان اخرج من جيبه مسدسا من نوع «النيكل» واعطاه اياه ، وامره ان يذهب ويطلق الرصاص على المعلم !

وعاد الغلام بالفعل ، ووجد المعلم في المكتب ، فاخرج المسدس واطلق عليه رصاصتين شردتا عنه ، فسارع بعض الاولاد وحالوا بين محمد حسن وبين المعلم .

وما يزال هذا المعلم الى اليوم في قيد الحياة ، وهو السيد محمود الصباغ مدير البنك الزراعي السابق . وقد رويت هذه الحادثة للتدليل على العقلية التي كانت تسود مدارسنا في نهاية القرن التاسع عشر .

\*\*\*

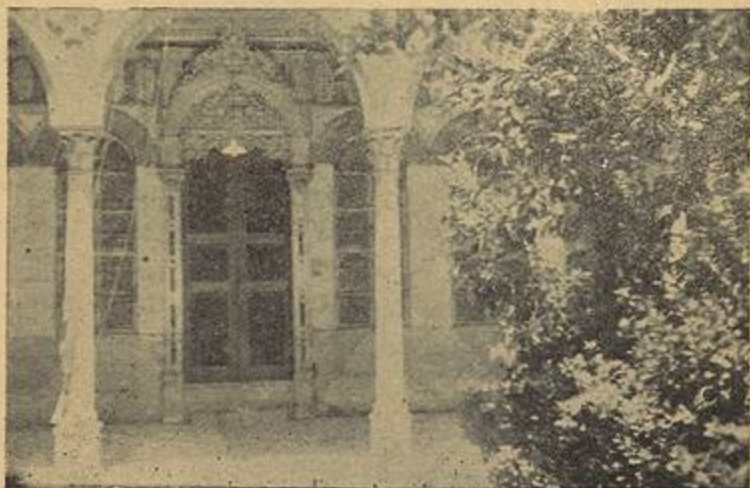
**الفحص والشهادة :** في اخر العام المدرسي (سنة ١٣١٦ - ١٣١٧) انهينا دروسنا وادينا الفحص امام مميزين انتدبتهم مديرية المعارف من موظفي الدولة فنجحت بحمد الله ، ونلت الشهادة الابتدائية من مدرسة الياغوشية بدرجة اعلى وبهذه الشهادة دخلت المدرسة الاعدادية المعروفة بمكتب عنبر .



## سبع سنوات في الاعدادية

**مكتب عنبر :** كان مكتب عنبر المدرسة الملكية الاعدادية (اي التجهيزية) الوحيدة في دمشق يومئذ ، يتراوح عدد طلابها دائما بين الخمسمئة والخمسين والستمائة . وكان الطلاب النهاريون يتعلمون مجانا ، والداخليون يدفعون اجرة مقابل النوم والطعام . والمدرسة ذات سبعة صفوف ، ولها شهادتان ، المتوسطة تعطى في انتهاء السنة الخامسة ، والاعدادية تعطى في انتهاء السنة السابعة وتدرس فيها العلوم الالية : القرآن الكريم ، العلوم الدينية العقائد ، الفقه الشريف منه كتاب الصلاة ، كتاب الصوم ، كتاب الحج ، كتاب الزكاة ، كتاب النكاح .

وكانوا يدرسون في كل صف كتابا من هذه الكتب ، ثم علم



باب قاعة المكتبة في مكتب عنبر ، اي المدرسة الاعدادية



الاخلاق ، المنطق ، اللغة العربية (منها الصرف ، النحو ، ترجمة ، تطبيقات) اللغة التركية ، قواعد ، الكتابة الرسمية ، (الرسائل الديوانية) ، الادبيات العثمانية ، اللغة الفرنسية ، قواعد ، قراءة ، املاء ، اللغة الفارسية (قواعد ، قراءة ، ادبيات) كتاب الكلكستان ، علم الثروة (الاقتصاد) ، علم احوال السماء (قوزموغرافيا) ، جغرافيا عامة ، جغرافية الولايات العثمانية ، تاريخ الدولة العثمانية ، تاريخ العمومي ، حفظ الصحة ، خلاصة القوانين ، علم الاشياء ، علم الحساب : العملي والنظري ، الجبر ، الهندسة الخطية ، المجسمة ، السطحية ، الرسمية ، المثلثات المستوية ، اصول الزراعة ، الرسم ، حسن الخط ، الكيمياء ، العضوية والمعدنية ، الفيزياء ، ويسمون بها علم الحكمة او الماكينا (ميكانيك) اصول مسك الدفاتر (دوبيا) المواليد الثلاثة : المعادن طبقات الارض ، النباتات ، الحيوانات . هكذا كانوا يدوخون رؤوس الطلبة بهذه العلوم . وكان مدير المدرسة تركيا ، واكثر معلمها من الاتراك ايضا ياتون بهم من الاناضول والروم ايلي ، والقليلون منهم من الاستانة ، حتى ان معلم العربية في زمننا كان من الاتراك المعممين الملقبين بالسفطه ، واسمه اسماعيل حقي افندي . ولم يكن في مكتب عنبر من ابناء العرب غير استاذان : محمد المرعشلي معلم القواعد والقراءة التركية والشيخ محيي الدين الخاني معلم الدينية وكلاهما من دمشق .

\*\*\*

الولي : كان مفروضاً ان يكون لكل تلميذ ولي مسؤول عنه ، فاما ان يكون الوالد او الوصي اذا كان الغلام يتيماً . ونظراً لبعد والدي عن دوائر الحكومة وكل امر الولاية علي الى صديقه علي السقا اميني ، رئيس كتاب دائرة المعارف في دمشق . وبدون ان يكلفني هذا الولي اي عناء ، استحصيل على الاوراق الرسمية (١) التي تلزم لي كتلميذ ، وقدمها الى ادارة المدرسة ،

( ١ ) شهادة النفوس الرسمية وتسمى ورقة نفوس ، الشهادة الصحية ، شهادة المدرسة الابتدائية .

فقبلتني في الصف الاول ، وذلك في السنة الدراسية ١٣١٧ - ١٣١٨  
مالية .

\*\*\*

**رفاقي في المدرسة :** فرحت بدخول هذه المدرسة  
فرحا كبيرا ، لان تلميذ المدرسة الاعدادية ، كان يتمتع في تلك  
الايام بمكانة عالية في الاوساط العائلية ، نظرا لتفشي الجهل فيها  
وكان الشاب الذي يحرز الشهادة الاعدادية يعد من ارقى شباب  
ذلك الزمن ، وينظر اليه الناس نظرة اهل هذا الجيل الى حملة  
الدكتوراه !

واكثر كبار موظفي حكومتنا اليوم هم من خريجي مكتب عنبر ،  
ومنهم فخامة الرئيس شكري القوتلي . واذكر من بين ذوي المهنة  
الحررة السادة : سعيد محاسن ، سعيد الغزي ، سعيد حيدر ،  
والمرحومان فوزي الغزي ومظهر رسلان ، وصفي رسلان ، الدكتور  
صالح قنباز ، الاداري اسعد خورشيد ، الدكتور فؤاد الساطي ،  
 وغيرهم من رجالات البلاد .

وكانت المدرسة الاعدادية تضم طلابا من جميع ابناء البلاد ،  
ولم تكن مقتصرة على الدمشقيين فقط ، وهكذا كان اكثر الداخلين ،  
اذا لم اقل جميعهم ، من ابناء عواصم المتصرفيات (١) والاقضية .

وكان عدد طلبة الصف الاول يتراوح بين المائة والخمسين  
والمائتين ، فلا يتم التحصيل فيه ويحصل على الشهادة الا قسم  
قليل منهم ، وهكذا لم يزد عدد الذين كانوا ينالون شهادة مكتب  
عنبر ، عن عشرين تلميذا في كل عام .

عرفت في هذا المكتب رفاقا كثيرا ، ذهب بعضهم في ما بعد  
الى الاستانة ودخلوا مدارسها العالية كالطب ، والحقوق ، والهندسة  
والملكية ، والبيطرة ، ودار المعلمين وغير ذلك من المدارس .

---

( ١ ) المتصرفية كانت تسمى عندالانراك سنجق ، وهي ما يسمى اليوم محافظة



ومن الاخوان الذين رافقتهم في صف واحد منذ الدخول حتى الصف الاخير السادة : سعيد محاسن ، حسن فرحات ، نسيب النابلسي ، عبد الرحمن رشيدات العجلوني . وكان محاسن وفرحات يتسابقان على الدرجة الاولى دائما ، ولا بد من ان يكون احدهما الاول والاخر الثاني . كذلك كان النابلسي والعجلوني يتسابقان على الدرجة الثالثة دائما ولا بد من ان يكون احدهما الثالث والاخر الرابع . اما انا فكننت من «عفاريت» المكتب ، ولم تكن درجتني متفوقة بل كانت دائما تحت درجة الاعلى ، ولم ارسب اية سنة .

\*\*\*

**اول بيت نظمته :** كان من رفاقي في الصف السيد

توفيق الداودي ابن اخ الشيخ محمد الداودي ، المعروف بنظم الشعر . فكان توفيق يردد علينا احيانا قصائد عمه . وفي احد الايام ، ونحن في الصف الرابع نستعد في ساعة المذاكرة لدرس الهندسة ، قام توفيق الداودي يقرأ علينا قصيدة لعمه طويلة

عريضة ، فشغل الطلاب وازعجهم . ورجاه البعض ان يكف عن القراءة فلم يفعل .

وكانت القصيدة دالية فقامت الى اللوح (السيوره) وكتبت عليه هذا البيت ، وهو اول بيت نظمته في حياتي ، على بحر القصيدة التي كان يقرأها :

توفيق ان العلك في اشعاركم  
وقف عليكم يا بني الداودي!  
فضحك الطلاب ، وقامت الضجة ، وغضب توفيق منه وخرج من الصف الى الملعب .



فخري في المدرسة الاعدادية



وفي اليوم الثاني جاء توفيق مبكرا وبيده قصيدة ادعى انه  
نظمها ، هذا مطلعها :

اخساً بوجهك ايها البارودي واحذر اسودا درعها داوودي !

هجاني في القصيدة هجاء قبيحا استفزني ، فتوعدته بالجواب  
في الغد ، وذهبت الى البيت وانا مضطرب البال ، وقضيت الليل  
افكر حتى تمكنت من نظم ابيات كلت له فيها الصاع ساعين ،  
وذهبت في الصباح مبكرا الى المكتب ، فلما اجتمع الطلاب قرأت  
قصيدتي ، ومطلعها :

اخساً بوجهك ايها الداوودي واحذر مدافع حشوها بارودي!

واستمر الهجاء بيننا ، فكان توفيق ينظم ابياته فيصلحها له  
عمه الشيخ محمد ، وانظم انا ابياتي واعطيها الى الشيخ  
عبد القادر بدران ، فيصلحها ، وبقينا مدة سنتين  
ونحسن نهأجى ، ولكننا مع ذلك بقينا اصدقاء  
نقضي اوقاتنا سوية داخل المدرسة وخارجها . ولما كثرت قصائد  
الهجاء بيننا ، عقدنا صلحا واتفقنا على ان نلغ جميع ما كتبناه  
نحن الاثنين واقسمنا الايمان على ذلك . وهكذا حرق جميع  
القصائد التي قلتها فيه ، وقال انه حرق قصائده .

ومنذ ذلك الحين اصبح لي بعض الميل الى نظم الشعر . وقد  
ساعدني على ذلك الشيخ عبد القادر بدران ، احد علماء قصبة  
دوما الفقهاء على المذهب الحنبلي ، وهو من العلماء المجددين .  
وكان لسانه سليطا جريئا لا يهاب احدا . فوعدت مرة مشادة بينه  
وبين رئيس بلدية دوما صالح طه ، وتبادلا الهجاء . وعلى الاثر  
استصدر طه من الوالي امرا بابعاد الشيخ بدران عن دوما ، فانتقل  
الى دمشق وحل ضيفا علينا في بيتنا ، مدة سنتين ونصف ، حتى  
انتهت مدة نفيه .

كنت يومئذ طالبا في المدرسة الاعدادية ، فافادني وجوده في

دارنا اذ ساعدني على تعلم اللغة العربية ، وكان له فضل كبير بتوجيهي وارشادي الى كتب اللغة ومطالعة كتب الادب ودواوين الشعر . وقد قرأت عليه مقامات الحريري باجمعها ، فكان لها تأثير في توجيهي نحو الادب العربي ، خلافا لرفقائي الذين اتجهوا نحو الادب التركية .

\*\*\*

**ممدوح العابد :** كان من رفقائي في هذه المدرسة ابن عمتي ممدوح بن رضا العابد . التقينا اولاً في الصف الثاني ، ثم بقينا حتى لنا الشهادة معا . وكان رحمه الله من اخف خلق الله روحاً ، وله حوادث كثيرة ، من اغربها اننا صحنوا صباح احد ايام الشتاء على ضرب (البوري) . وكنت في القسم الداخلي ، فما كاد الطلاب يستيقظون حتى وقع لفظ ، وارتفعت الاصوات من كل جانب ، وتبين لنا ان احد الطلاب قام اثناء الليل ، وخطط بالحبر الاسود وجوه المبصرين (١) تلك الليلة ، كما انه دهن وجوه كبار الطلاب فبدأ وجه كل طالب كوجه مهرج المسارح ، له شنبات وحواجب عجيبه !

ونظرا لكثرة عدد الوجوه «المسخمة» ، تعالي الضجيج ، حتى بلغ غرفة المدير المعاون رشيد حكمت ، وكان من اشد المعلمين بطشا ، فجاء مسرعاً ليستجلي الخبر ، فلما رأى هذا المشهد لم يتمالك نفسه من الضحك ، وسارع بعض الطلاب نحو ممدوح العابد يتهمونه بهذا العمل !

وكان ممدوح ينام في غرفة صغيرة في اخر المهاجع ، مع ثلاثة طلاب ، فوجدوه غارقاً في النوم ، ووجهه هو الآخر مسخّم مثل وجوههم فايقظوه واتهموه بما جرى ، فانكر وصاح بهم صياحاً شديداً .

(١) البصر هو المناظر الذي يراقب الطلاب في النهار والليل ويسمونه اليوم معيدا



ثم نهض ممدوح ، وذهب نحو المدير المعاون واسر في اذنه شيئاً ، فوافق المعاون عليه . وهكذا نزل المعاون والمبصران وبعض الطلاب الكبار المدهونة وجوههم ووقفوا امام باب المهجع السفلي من



الباحة الداخلية في المدرسة الاعدادية، ويبدو فيها قسم من المهجع

الخارج ، ودعوا الطلاب الى نزول السلم واحدا واحدا ، وكلما مر واحد فحصوا اصابعه ، حتى جاء احد الطلاب الحوارنة ، ويسمى محمود الحوراني ، فوجدوا حبرا على سبائته ، فصاح ممدوح : هذا هو الفاعل !

واخذوا المسكين الى غرفة المعلمين ، وانهاوا عليه ضرباً ، وآجر فيه كل من اصابه رشاش تلك الليلة ، حتى كاد يهلك .

وبعد بضعة ايام تبين ان الفاعل هو ممدوح العابد وانه بعد ان «سخم» وجوه الجماعة «سخم» وجهه ايضا ، ودهن اصبع الحوراني المسكين ، ثم اقترح على المعاون ان يعاين اصابع الطلاب ، فانطلت الحيلة على المعاون وعلى الطلاب .

ولما عرف الجميع ان الفاعل هو ممدوح ، احضروه الى غرفة



المعلمين ، وشكلوا محكمة من الاساتذة حققت معه فاعترف بجرمه ، وقال انه سخن زجاجة الخبر على المدفأة ، حتى لا يصحو احد عند دهن وجهه بخبر بارد . وعندئذ اطعموه «علقة مأكنة» وكدره علنا امام جميع الطلاب !

\*\*\*

**قضاء افندم !** : وهذه حادثة طريفة وقعت لنسيب البكري عندما كان في اول صف في المدرسة الاعدادية :

مر بجانبه تلميذ فلاح مجتهد ، فصغفه نسيب صفعة اطارت صوابه ، فراح يشكو امره الى الادارة . فاستدعى المدير نسيب البكري وسأله لماذا ضرب الغلام ، فاجاب : ضربته قضاء افندم !

وبعد بضعة ايام بينما كان الطلاب بالفرصة ، دوى البوق يدعو الطلاب الى الاجتماع . وكان نسيب البكري وفهمي الحسيبي يسيران جنباً الى جنب لما سمعا البوق ، فقال فهمي : ربما يريدون ان يجمعونا لمجازاة احد الطلاب !

فقال نسيب : ان شاء الله تكون المجازاة لك يا فهمي !

فاجابه فهمي : بل ان شاء الله تكون لك انت يا نسيب !

.. واستجاب الله دعاء فهمي ، اذ تقدم المدير الثاني نظاميات افندي الى منتصف المربع الذي شكله الطلاب ، وخطب خطاباً طويلاً باللغة التركية حمل فيه على المعتدين ، ثم اعلن ان السيد البكري اعتدى على الطالب فلان ، وصفعه صفعة قوية بلا سبب ، وكانت صفعته «قضاء افندم» ، لذلك ارتأت الادارة ان تكدره تكديراً علنياً «قضاء افندم» !

وهكذا انقض الجميع ، وهم يضحكون من النتيجة ، حتى نسيب نفسه راح يقهقه ، كان القط لم ياكل له عجيناً !

**ليمون وشنبات :** كان نسيب الكيلاني «اشطن» تلميذ في زمانه مع الداعي لله . ولا اذكر انه مر يوم من السنوات السبع التي قضيتها في المدرسة الاعدادية ، الا وكنت مسجونا فيه «اذنيز حرمان» ، مع نسيب الكيلاني .

و ذات يوم بقي في المدرسة عشرة تلامذة مسجونين ، وبينهم نسيب وانا طبعاً . وكان في باحة المدرسة اشجار مثمرة من الليمون الحامض ، فرغب نسيب الكيلاني في ان يقطف شيئاً من ثمرها فاحضر «السيبه» التي يصعد عليها الخدم لاشعال الفوانيس ، وتسلق عليها ، وراح يقطف الثمار ويناولنا اياها . وفي هذه الاثناء جاء معاون المدير المناوب ورأى ما يجري . وكان المعاون مرعباً جداً وله شنب طويل ، فتقدم من التلميذ الواقف في اسفل السلم و اشار اليه باصبعه ان لا يتكلم ، ثم تقدم المعاون الى تحت السلم وراح يستلم الاثمار من نسيب !

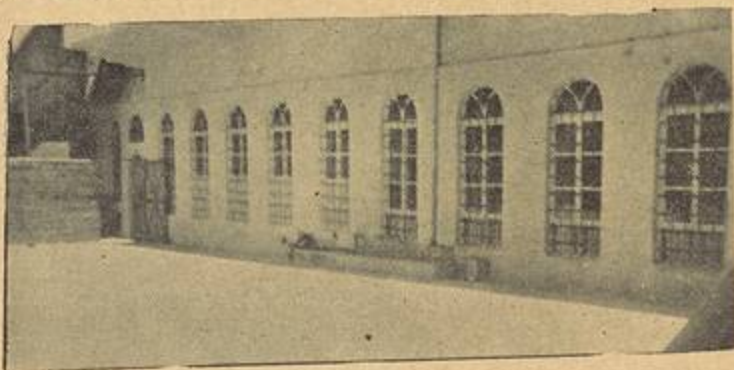
ثم نادى نسيب الطالب ليصعد الى الشجرة ويرى ثمرة كبيرة جداً ، فصعد المعاون حتى اصبح الى جانب نسيب ، فمد نسيب ساعده وعانق المعاون وهو يشير الى الليمونة ، والتصق الخدان ، فاحس نسيب بخشونة شعر الشنب ، والتفت مدهوشاً وما كاد يرى وجه المعاون ، حتى قفز عن السلم فوقع الى الارض ووقع معه المعاون ، وقام كل منهما ينفض ملابسه ويضحك .

وذهب المعاون الى غرفته وضرب البوق داعياً الطلاب المسجونين الى الاجتماع ، فاجتمعنا . واذا بالمعاون يقول انه نظراً للنكته التي رافقت الحادث ، فانه يعفو اليوم عن جميع المسجونين ! ثم فرق على كل تلميذ حبة ليمون واحدة ، مشترطاً علينا الا نعود الى مثلها ، واخذ الباقي لنفسه ، وخرجنا ندعو للسلطان بالنصر !



**خروف المدير :** بعد مضي ما يقرب من نصف عام على دخولي المدرسة ، خبرت احوالها وطلابها ، فبدأت «شيطنتي» . وكلما مرت الايام كثرت الجزاءات علي ، حتى اصبحت من «زبونات» المدرسة الدائمين ايام التعطيل . ولا ابالغ اذا قلت اني منذ دخولي المدرسة الى يوم احزرت الشهادة في مدة سبع سنوات ، لم اقض عطلة اسبوعية واحدة في داري ، بل كنت اقضيها كلها بالحرمان ، مسجوناً في المدرسة !

وفي احد الايام تفر المدير على زجاج النافذة بشدة . وكنا نلعب في باحة المدرسة اثناء الفرصة ، فالتفت الطلاب جميعهم



باحة اللعب الواقعة في الساحة الخارجية لكتب عتير .

نحوه ، ورايناه ينادي احدنا باصبعه ، فجعل كل منا ينظر الى الاخر ليري المدعو . وما لبثت ان ادركت ان المدير يدعوني ، فذهبت اليه خائفا وظننت ان هناك وشاية ضدي .

صعدت الى غرفة المدير كما يقول المثل العامي «رجل لورا ورجل لقدام» . ولما دخلت الغرفة ، وجدت بعض المعلمين الذين يتكلمون باللغة العربية ، فقال لي المدير : انت فخري البارودي ؟

فسقط قلبي ، وقلت : نعم !



قال : هل ابوك من اصحاب المزارع ؟

فلما اجبت بالايجاب ، قال :

— عندكم غنم في مزرعتكم ؟

فاجبت بالايجاب ، فقال : وهل والدك من الاجواد ؟

قلت : هكذا يقولون !

قال: عندي خروف واريد ارساله الى المرعى ، وقد دنسي  
الناس عليكم ، فهل يمكنك اخذ هذا الخروف الى مزرعتكم والاعتناء به  
الى ان يكبر ؟ وهل يرضى والدك ؟

قلت : نعم ، بل اظنه يكون شديد السرور بهذا التكليف !

فاشرق وجهه وقال : اذا انت مأذون اليوم . عند انصراف  
الاولاد من المدرسة خذ الخروف معك ، ونم في داركم وعد غدا  
صباحا .

ضربت «تمني» وخرجت اهبط درجات السلم خمسا  
خمسا ، الى باحة الملعب حيث كان رفاقي ينتظرونني، فابلغتهم الخبر  
وفي المساء احتشد اكثر من خمسين طالبا من الطلاب  
الخارجيين ينتظرون الخروف عند باب المدرسة . ولما خرجت  
والخروف معي قام الطلاب بمظاهرة ومشينا «بعراضة» نسحب  
الخروف ونجره ، ومررنا بسوق مدحت باشا بهذا المهرجان  
حتى وصلنا الى الدار !

قدمت الخروف الى والدي ورويت له الحكاية فضحك ،  
وامر وكيل الخرج ان يحضر اللحام ويذبح الخروف ، وقال :  
عندما يطلبه المدير نحضر له خروفا كبيرا بدلا عنه !

ومضت شهور، وانقضى العام وجاء العام الثاني ، واذا بالمدير  
يناديني ثانية فاسرعت اليه ، فسألني عن الخروف ، فقلت : انه

بخير ، صحته جيدة يقبل يديكم !  
فضحك وامرني باحضاره ، فقلت : ساكتب الى والدي .

ومضت ايام ، وكنت مرارا اطلب الخروف ، والوالد «مطنش»  
لا كتاب ولا جواب ، وانا اختلق الاعذار للمدير . واخيرا لم ار بدا  
من الذهاب بنفسي ، فاخبرت المدير وطلبت اذنا للسؤال عن  
الخروف فسمح لي بالذهاب الى الدار مع الطلاب الخارجيين . ولما  
اخبرت والدي بالنجاح للمدير، ارسل الى دوما رسولا ليأتي بخروف .  
وفي الصباح حضر الرسول ومعه خروف صغير ، اصفر من الخروف  
الذي استلمناه من المدير . فقلت لوالدي : كيف يمكنني تقديم  
هذا الخروف بعد هذه المدة ؟

قال : اذهب وقدمه واذا «علك» المدير ، قل له ان خروفه  
«فطس» وهذا بدلا عنه !

اخذت الخروف الى المدير ، فلما رآه غضب غضبا شديدا ،  
وصاح بي : نه دربو ؟ (يعني : ما هذا ؟)  
قلت: هذا خروف !

قال : بو كديدر ! (يعني هذا قط !)

وبالحقيقة كان هذا الخروف بقدر القط ، فحملة المدير  
ووضعه على رقبتني ، ودفعني الى خازج المدرسة وقال : اذهب  
الى والدك وقدمه له هدية مني !

وعدت الى الدار بحالة يرثى لها ، فلما رأني والدي غضب  
وامر وكيل المخرج باحضار اللحام فاحضره ، وذبح الخروف وقال:  
اذهب الى المدير وقل له : قبلنا الهدية !

دخلت الى الدار ابكي . وكانت عمه والدي السيدة ليلى  
البارودي - وعمرها آنذاك زهاء السبعين - في زيارتنا . فلما  
عرفت بالامر ، اعطتني دينارا عثمانيا ذهبيا ، وقالت لي : اشتر  
به كبشا بدل الخروف ، وقدمه الى المدير !

وهكذا كان ، فاشترت كبشا وذهبت به حالا الى المدرسة  
وقلت للمدير : اني غلظت بالاول ، فهذا هو كبشك !  
فلما رآه المدير فرح به ، وضحك وربت على ظهري ،  
وخلصني الله من هذه البلية على خير !



## مه هيا ذلك العصر

قلت في الفصل السابق انني قضيت سبع سنوات في المدرسة الاعدادية . وقبل ان انتقل بالقارىء الى المرحلة التالية من حياتي ، اود ان استفيض في الحديث عن حياة الطلبة في ذلك العهد ، كي تتكون لدى القارئ صورة واضحة عن المجتمع الذي نشأ فيه جيلنا .

\*\*\*

**بكري الدنكوره :** كان في مكتب عنبر «دكان» يؤجر في المزد العلي . وقد رسا اثناء اقامتي في المدرسة على المدعو زكي البقال .

استخدم زكي هذا صانعا لبقا يدعى بكري ، لقبه الاولاد بـ«الدنكوره» . وكان بكري خفيفا نشيطا ، يلبي وحده جميع طلبات الاولاد في الفرصة ، عندما يحتشدون امام نافذة الدكان ، ويتصلعد صياحهم : دنكوره هات قلما .. دنكوره اعطني رغيفا.. دنكوره هات راحة النخ .

ولم تكن الفرصة القصيرة لتسمح بتأمين حاجات جميع الطلبة لذلك كان «دنكوره» يسمح لابناء الاثنياء بالدخول الى الدكان والاختباء فيها ، وان كان ذلك ممنوعا . وكان «المبصرون» ، اي المراقبون ، يفضون الطرف عنهم مقابل هدايا يقدمها اليهم صاحب الدكان ، وفقا للمثل القائل : اطعم الفم تستحي العين !

\*\*\*

**الحششة خانة :** كان التدخين ممنوعا ، ولكن كل ممنوع مرغوب ، لذلك كان كثير من الطلبة يجتمعون في باحة صغيرة على مقربة من المراحيض ، حيث لا يأتي احد من هيئة

الإدارة ، ويشرعون في التدخين ، بينما يقف احدهم عند المدخل لانذارهم بالخطر !

هكذا ، لا يكاد «بوري» الاستراحة يدق ، حتى يهرع عشاق التدخين الى «المحششة خانه» ، ويبدأون في التدخين . ولا حاجة للقول انني كنت ، طبعاً ، منهم !

\*\*\*

**السيران :** كانت ادارة المدرسة تقيم في فصل الربيع من كل عام سيرانا للطلاب ، تجمع نفقاته منهم ، فتحضر لهم «نوبة» الات موسيقية ، وتستأجر لهم حديقة او بستاناً ، ويقضي الطلاب يومهم حتى المساء . واذكر ان الادارة اقامت لنا سنة ١٩٠٧ سيرانا في حديقة «الافندي» في حي باب توما ، مثلنا اثناءه رواية باللغة العربية ، فكانت اول رواية مثلت في مكتب عنبر .

وكان «السيران» في ذلك العهد جزءاً من حياة الناس . وكانت في دمشق جمعيات مهنية ، غايتها تنظيم التسلية والنزهات لابناء الصنعة . وكان بعض افرادها يركبون في السيران الرهاوين والخيول ، والبعض الآخر يركب الحمير من هليبية وقبرصية وقروية ، ويسير فرسان كل فئة على حدة ، الى مكان السيران ، حيث يترجلون ، ويبدأ الهرج والمرج .

واذكر ان صغار «الزعران» كانوا يجتمعون قرب الحمير ويصيحون فيها : «زعر ! زعر !» ، فتأخذ كلها في النهيق ، ويتصاعد منها اصوات منكرة ، فتقوم قيامة اصحابها ، ويلحقون الاطفال بالعصي والحجارة .

وما يزال سكان دمشق الى يومنا هذا يحبون «السيران» فتراهم في الربيع والصيف منتشرين بين البساتين وعلى ضفاف السواقي ، يتمتعون بجمال الطبيعة .



**الرياضة في مكتب عنبر :** لم يكن للرياضة ذكر في مناهج المدارس العثمانية في زمننا ، ولذلك كانت العابنا بسيطة ، نقوم بها في باحة المدرسة ، وهي تكاد لا تتسع لسير خمسين طالبا ، فكيف اذا خرج يلعب فيها خمسمائة ؟

من العابنا في ذلك الحين ، اذكر لعبة الطيح ، الاسير ، ام عميش ، كسرة اليد ، سباق الركض . هذا كل ما كنا نلعبه في المدرسة الاعدادية . وكان المدير والمعلمون ينظرون الى الولد الرياضي بعين الازدراء ، وينعتونه بالطائش . ولا عجب فانه لم يكن للرياضة في دمشق كلها شأن يذكر .

اما الالعاب التي كانت شائعة في دمشق اجمالا ، فاني اذكر منها لعبة «الدوج» ، وهو عبارة عن حجر «مفلطح» ، يحمله اللاعب ويحاول ان يصيب به «النكرة» ، وهي حصة بحجم الجوز ، فمن يصبها يربح اللعبة ، ويركب على ظهر رفيقه شوطا !

وهناك لعبة «طابة التيس» ، وهي كرة محشوة بالخرق ، يقذفها اللاعب على حجر يكمن وراءه لاعب آخر ، فاذا اصابته احتل مكانه وراء الحجر . ويشترك فيها عادة خمسة او ستة لاعبين ، وتنتهي بان يمتطي الفائزون ظهور المهزومين !

اما كرة القدم وكرة السلة فلم تكن نعرفهما . واني اذكر ان اول لعبة «فوتبول» رايتها في دمشق كانت تمرينا يقوم به الاخوان نوري وحسن الايش في مرجة الحشيش قرب «صدر الباز» ، وكان هناك جسر على نهر بردى ، وميدان فسيح للعب الجريد . واذكر ان الكرة سقطت يومئذ على رأس أحد المتفرجين ، المرحوم نعيم الغزي - وكان من المتعممين - فضفطت عمته على رأسه الى ما تحت اذنيه . وكان بين المتفرجين حقي باشا مشير الشام ، فضحك حتى وقع طربوشه في العربة . وقد شاهدته بنفسي لانني



كنت واقفا مع وكيل خرج دارنا امين اغا الى جانب عربة المشير .  
وقد تعلم السيد نوري الايش يومئذ تلك اللعبة من الجامعة  
الاميركية في بيروت ، اذ كان طالبا فيها .



**السيف والترس :** كانت لعبة السيف في ذلك العهد ، اكثر  
الالعاب انتشارا بين الدمشقيين ، توارثوها ابا عن جد ، لانها  
تعلم الشباب الرجولة والخفة ، وتروض الاجسام ، وتعود الشباب  
على الصبر ، ولها اصول ثابتة ، لا يمكن الخروج عنها ، ويشترك  
في هذه اللعبة من اثنين الى خمسة لاعبين . فاذا لعب اثنان حمل  
كل واحد منهما سيفا وترسا ، وقد ينضم اليهما ثالث يحمل  
سيفين ويتوسط اللعب . واذا لعب خمسة ترأس احدهم المعركة  
وحمل سيفين في آن واحد وتوسط اللاعبين .

ويكون اللعب على الاكثر حيبا . اما اذا وقع خصام بين  
لاعبين ، فانه ينتهي الى حادث مؤلم . وكان من الرؤساء المشهورين  
لحلقات السيف والترس ابو سعد الخضري ، ابو شاعر مسلم  
الخانجي ، الرئيس العيسه الميداني ، ابو علي الصباغ ابو علي القباني ،  
ابو صالح رشيد الخجا ، ابو عز وحسن الارناؤوط ، ابو عادل  
السروجي . واكثر هؤلاء انتقلوا الى رحمة الله .

من تقاليد لعب السيف والترس «الشد» وهو ان يقطع رئيس  
اللعبة على التلميذ الجديد عهد الولاء ، وبعد ذلك يكرسه لاعبا  
رسميا ، ويناديه بلقب «ابني» وكانوا يسمون التلميذ بالشرقي ،  
وهي كلمة فارسية تعني المولى .

وتجري هذه المراسم بحضور رؤساء هذا الفن من جميع  
الاحياء ، فيقرأ الرئيس دعاء مخصوصا لهذه اللعبة وهو : «بعد

الفاتحة سبحان ابدى الابد ، سبحان من بسط الارض على ماء  
جمد ، سبحان مقسم الازواق ، من لا ينسى من فضله احد ،  
سبحانه من ذاته وصفاته ، قل هو الله احد». ثم ينادي باعلى  
صوته : صحائف النبي (ص) صحائف «العشرة المبشرة» بالجنة من  
الصحابة الكرام ، صحائف الاسد الكرار علي بن ابي طالب ، ابن  
عم النبي المختار ، رضى الله عنه وكرم وجهه ، صحائف فاتح  
الشام ابو عبيدة الجراح ، صحائف سيف الاسلام خالد بن الوليد  
رضى الله عنه ، صحائف فلان وابي فلان وابي فلان ويعدد اسماء  
ابرز الحاضرين من وجوه المحلات .

ثم يفتح بقجة من ا لثياب ، فيها قنباز حريري يسمى بالصاية،  
وشملة ، فيلبسون التلميد الصاية . ومتى زنوه بالمشلح دخل  
في جماعة اللاعبين ، ويقراون الفاتحة ، ويصبح الشاب بعد ذلك  
لاعبا ، ويمكنه ان يشترك في طوابق اللعب !



**لعبة الحكم :** لعبة يتمرن عليها اولاد الاحياء ، تمهيدا  
لانتقالهم الى لعب السيف والترس . ولا يمكن للاعب السيف من  
اجادة لعبته الا اذا تعلم الحكم .

عدة هذه اللعبة هي درقتان من جلد ، محشوتان بالصوف  
او القطن ، وللدريقتين مقابض يتقي بها اللاعب ضربات خصمه .  
والدرقة الواحدة اسمها «حكمة» ، واللعب يكون بقضيب من  
الخيزران او السفرجل .

وهذه اللعبة تربى في الشاب عضلاته، وتعلمه على الشجاعة  
والصبر وهي من انفع الالعاب . وليت النوادي تعيدها سيرتها الاولى!



## باتاوات واوسمة

اثناء السنوات السبع التي قضيتها في مكتب عنبر ، لم ازل اية اجازة استثنائية ، بسبب «شيطنتي» ، الا يوم انعم السلطان عبد الحميد على خال والدي عطا البكري ، برتبة الباشوية . وعندئذ تعطف مدير المدرسة ، واجازني ثلاثة ايام . ولم يبق يومئذ في دمشق احد من الاصدقاء والاحباب الا شاركنا بافراحنا . ولا عجب فان الحصول على الباشوية في تلك الايام كان حدثا عظيما ، لان مقاييس الدنيا كانت يومئذ رتبا والقبابا !

لما كانت الرتب تعطى من الاستانة ، فقد كان اكثر الذين يحظون بها من موظفي الدولة الاتراك ، خصوصا من ابناء الاستانة نفسها ، وممن يتعين فيها من ابناء الولايات . وكانوا يسمون الاقطار الخارجة عن العاصمة «طشره» . وكان لقب الباشوية يعطى لكل من يصبح وزيرا ، ولو لم يكن تركيا. اي من «الطشريه»

وكان وجوه البلاد من الاغنياء يطمعون بنيل الرتب ، مع انها رتب فخرية لا راتب لها . ومع الزمن ولدت مهنة جديدة ، هي مهنة السماسرة الذين يتولون الوساطة بين طالب الباشوية وبين استانبول ، لبيع اللقب بالمال . وفي اواخر ايام السلطان عبد الحميد بلغ ثمن الباشوية مائتي ليرة ذهبية عثمانية ، وهو مبلغ كبير بالنسبة الى ذلك العهد .

عرفت سمسارا للرتب باعرتبا كثيرة في دمشق . فكان اذا اختلف مع احد الباشوات اعلن بصوت جهوري على الملا انه سيسحب الباشوية من فلان ، لانه هو الذي اتاه بها !

ركبت يوما مع والدي قاصدين الى دوما ، حتى وصلنا الى قطعة ارض تدعى «البحصه» ، فوقفنا امامها . وكان العمال ينصبون فيها مروشا ، اي نصب زيتون ، فالتقينا هناك بسمسار





نودج من حملة الرتب والالبسة المزركشة: صورة الوفد السلطاني الى تدشين الخطط الحجازي في دمشق سنة ١٩٠٨، وترى في الصف الاول جلوسا من اليمين: الفريق بحري باشا ، مندوب السلطان وحمي باشا ، المدير العام للخطط الحجازي كاظم باشا ، المشير رضا باشا . اما الوقوف فهم من اليمين: الامير الاي ناجي بك ، باشا المدفعية زري باشا ، عبدالرحمن باشا اليوسف ، محمد باشا العظم ، جواد باشا مشير الشام .

مشهور بتدبير الالقاب ، فقال لوالدي : ما رايك يا ابا فخري بباشوية بمائتي ليرة عثمانية ؟

فضحك والدي وقال : ان «مروشة» واحدة من هذه الشجيرات تساوي عندي جميع الرتب الحكومية !

\*\*\*

**رتب الدولة العثمانية :** كانت الرتب يومئذ على ثلاثة اقسام : ملكية ، وعسكرية ، وعلمية . وكانت تعطى بفرمان ، اي بمرسوم ملكي يصدر عن السلطان ، وهي على درجات متفاوتة .

وإذا وجد صاحباً درجة واحدة يتقدم صاحب الرتبة السابقة بالتاريخ زميله حامل نفس الرتبة . ولكل رتبة لباس خاص منقوش بالسليم المعروف عندنا الـ « صرمة » أي القصب .

أما الأعياد والأيام الرسمية التي كانوا يرتدون فيها لباس التشریفات ، فهي عيد الأضحى وعيد الفطر وعيدا جلوس وولادة السلطان ، ويوما خروج المحمل من دمشق ، وعودته إليها .

وكان أصحاب الرتب يفرحون في المواسم الرسمية فرح الأولاد بالأعياد ، فيقضون الليل في تعهد لباس التشریفات بالمسح والكي ، وتلميع السليم بالزيت لازالة الصدا عنه .

حدثني مرة صديقي المرحوم تيمور باشا فقال : في أحد أيام المراسم أخرجت لباس التشریفة لتهيئته ، وإذا بولدي الصغير يركض ويمسك بالرداء ، ويصر على أن يلبسه . وعيننا حاولنا إقناعه بالعدول عن هذا الطلب ، فقال لي الصغير : لمن تكون زخارف القصب ، للصغار أم للكبار ؟

قال أحمد تيمور : ومن ذلك اليوم لم أعد ارتدي ذلك اللباس !

### \*\*\*

وفيما يلي تفصيل الرتب في العهد العثماني ، مع تفصيل الرتب التي كانت تعطى لها :

**الرتب الملكية :** رتبة الوزارة باشا ، مير ميران أولى صنف ثاني باشا ، رتبة أولى صنف أول بك ، رتبة ثانية صنف متميز بك ، رتبة ثانية صنف ثاني بك ، رتبة ثالثة وركاب همايون وقیوحي باشي لفي أفندي ، رتبة رابعة وخامسة أفندي .

**الرتب العسكرية :** مشير باشا ، فريق أول باشا ، فريق باشا ، ميرالاي بك ، عسكري قائمقامي بك ، الای اميني وقبول اغاسي أفندي او اغا ، يوزباشي اغا .



الرتبة العلمية : كانت كلها «افندي» وتعطى الى :  
صدر روم ايلي ، صدر اناطولي ، حرمين شريفين مولويتي ، بلاد  
خمسة مولويتي ، مخرج مولويتي ، موصلة سليمانية ، خواجكان .

\* \* \*

وسام ... للحمار ! - كما كان الاغنياء يتنافسون على  
الرتب ، كانوا يتنافسون على الاوسمة العثمانية ، ويدفعون ثمنها  
غاليا . واذكر بمناسبة حديث الاوسمة حكاية وقعت يوم زار امبراطور  
المانيا غليوم الثاني، دمشق في سنة ١٨٩٨ ، فاستقبلته المدينة  
استقبالا عظيما .



الحمار حامل وسام امبراطور المانيا .. يرتبه حسن تلوو ( الطفل الصغير )



في اثناء الاستقبال لاحظت الامبراطورة حمارا ابيض، فاستلقت  
• نظرها ، وطلبت الى الوالي ان يأتيها به ، لكي تأخذه معها ذكرى .  
فراح الوالي يبحث عن صاحب الحمار ، فعلم انه يخص ابا الخير  
اغا تلو . وكان الاغا من وجوه محلته ، ويفخر دائما بان له حبيبين:  
الحمار وحفيده حسني !

استدعى الوالي ابا الخير ، وطلب اليه اهداء الحمار الى  
الامبراطورة ، فاعتذر . فعرض عليه شراءه منه ، فاصر على  
الرفض ، ولما اشتد الوالي في الالاح ، اجابه ابو الخير :

— يا افندينا ، ان لدي ستة رؤوس من الخيل الجياد ، ان شئت  
قدمتها كلها الى الامبراطورة هدية مني ، اما الحمار فلا !

استغرب الوالي هذا الجواب ، وسأله : ولماذا ؟

قال : سيدي . . . اذا اخذوا الحمار الى بلادهم ستكتب جرايد  
الدنيا عنه ، ويصبح الحمار الشامي موضع التكتة وربما السخرية ،  
فيقول الناس ان امبراطورة المانيا لم تجد في دمشق ما يعجبها غير  
الحمار . لذلك لن اقدمه اليها ، ولن ابيعه !

ونقل الوالي الخبر الى الامبراطور والامبراطورة ، فضحكا  
كثيرا ، واعجبا بالجواب ، واصدر الامبراطور امره بمنح ابي الخير  
وساما ، فسماه « وسام الحمار » ، واشتهر امره زمنا في دمشق !

\*\*\*

**الاطفائية** — ضرب البوق في منتصف احدى الليالي ، وكنا  
نياما في مهجع «مكتب عنبر»، فصحونا على نداءات متتالية : يانغين  
وار ! يانغين وار ! ( حريق ! حريق ! )

نهض كبار الطلاب ، وهرعوا بلباس النوم الى المضخة الموجودة  
في مدخل المكتب ، وحملوها الى مكان الحريق في المطبخ حيث اطفأوه .  
وبعد ثلاث ساعات تقريبا وصلت فرقة « الاطفائية » البلدية ، ومعها

مضخة على اربع عجلات يدفعها الناس ، وهم يصيحون : حريقة !  
حريقة !

وجرت العادة يومئذ اذا وقع حريق ، ان يخرج موظف الاطفاء  
في البلدية الى الساحة ، وينادي « حريقة ! حريقة ! » . وكان  
الرعاع المعروفون باسم « بابا حسن » ، او « كلهان بك » بالتركية،  
يجتمعون عادة قرب سوق الخيل وساحة المرجة وسوق علي باشا  
وسوق السنجدار وزقاق رأمي ، فعندما يسمعون النداء، يتراكون  
الى البلدية ، حتى اذا اصبغ عددهم كافيا ، حملوا المضخة ، او جروها  
على العربية ، الى مكان الحريق . وكانوا يفعلون ذلك حبا بالنهب . وليس  
بينهم من يتقاضى « اكرامية » من صاحب المحل المحروق سوى  
رئيس الاطفائية .

## بقظة الروح العربية

اربعماية سنة ونيف كانت قد مرت على الاتراك وهم يحكمون بلادنا لما دخلنا مكتب عنبر ، وكان من الطبيعي ان يتولد شيء من النفور بين ابناء الحاكم وابناء المحكوم . فالاتراك كانوا يومئذ ابناء الست ، ونحن ابناء الجارية . ولم يكن احدنا ليجرا على رفع رأسه امام المعلمين ورجال الادارة ، وكلهم من الاتراك ، كما ان رهبة الحكم العثماني كانت تملأ القلوب .

ان انس لا انس مشهدا  
رايته امام دار احمد باشا  
الشمعة . كان احمد باشا من  
اخص رجال عبد الحميد ،  
سلطان البرين وخاقان  
البحرين ، وقد منحه السلطان  
امتيازاً عن سائر رجال الخاصة  
اذ اعطاه آلة برق ( تلفراف )  
مرسلة ولاقطة في داره ،  
ليخبر بها السلطان  
راسا .



احمد باشا الشمعة

غضب السلطان على احمد باشا  
يوماً ، لسبب اجهله ، فأمر  
باعتقاله في داره ، ووقف امام بابه « بوليس نظامي » ، اي شرطي  
بلباسه الرسمي ، يراقب كل داخل وخارج ، ويسجل اسماءهم . وقد  
مرت يوماً من هناك ، قرأيت المارة يضطربون عندما يقتربون من



دار الشمعة ، فيثبتون انظارهم الى الامام، حتى لا يلتفتوا لفتة واحدة نحو باب الباشا ، خوفا من ان يحاسبوا على النظرات !

بسبب هذا الرعب الذي بثه الحكم العثماني في النفوس ، لم يكن احد يجرؤ على ذكر العرب والعروبة ، خصوصا من الذين يعيشون مع الاتراك في السرايات ودوائر الحكومة .

في تلك الايام بدأت الروح العربية تستيقظ خصوصا في الشبان وبدأت نغمة ترك وعرب تتردد في المجتمعات الخاصة ، واخذ بعض الطلاب في مكتب عنبر يتمردون على المعلمين الاتراك . وقد سبب ذلك ظهور روح شريفة عند العناصر غير العربية ، كالترك والكرديين والارناؤوط ، فراحوا يتحرشون بنا ، هذا بالنعر وذاك بالتكش، ونحن نرد عليهم بالمثل . وما لبثوا ان شكلوا جمعية من اصحاب الاجسام ابدينة سموها « طاغمر جمعيتي » ، اي جمعية الجبال ، وعلى راسهم بدر الدين السباهي ، شقيق الاستاذ نجم الدين السباهي الاديبي التركي المشهور ، وهو من الارناؤوط . وكان من عادة « الطاغمرية » ان ينتظم كل اربعة او خمسة منهم في صف واحد ، ويركضوا في الملعب ، فيدفعوا امامهم كل من يعترضهم من الطلاب المفردين . وعلى الاثر شكل الطلبة العرب مقابلهم كتلة من اصحاب الاجسام المتينة ، منهم السيد رشدي القوتلي ( ابو راشد ) ، والسيد توفيق المالكي ( ابو الرعود ) والسيد نسيب البكري ( ابو عطا ) والداعي لله ( ابو الحسن ) الخ .

ومع الزمن ازدادت العداوة، وانتقل الاحتكاك من اللعب الخشن الى الشجار داخل المكتب ، ثم خارجه . وكنت يومئذ قد بلغت الصف الثالث ( حول السنة ١٩٠٤ ) ، فكنا نتواعد على الصدام معهم في مكان ما خارج المدرسة . وكانوا يجلبون معهم رفقاءهم من مخلة المهاجرين ، ونحن نحضر معنا رفقاءنا ، فيدور شجار يكثر فيه الجرحى . واخيرا تدخلت الحكومة ، وجعلت ترسل شرطة خاصة الى الساحات لتمنع الخصام والشجار . هكذا كان الثغور يتزايد بيننا وبينهم كلما

تقدمنا بالصفوف ، حتى جاءت سنة ١٩٠٨ م ، ووقع الانقلاب  
العثماني .

\*\*\*

**معركة شخصية:** وفي معرض هذا البحث اذكر حادثا شخصيا  
وقع لي مع بدري السباهي رئيس جمعية « الطاغورية » المشار اليها.  
فقد اشتد العداء بيني وبينه بصورة لا مثيل لها بين سائر الطلبة حتى  
تواعدت واياه على النزول في المساء ، بشرط الا يخبر احدنا احدا  
من رفاقه بالامر ، وبالفعل لم نخبر احدا ، واجتمعنا في اخر زقاق  
الحمراوي قرب مدخل « القباقيب » ، فتماسكنا وتشابكنا بالأيدي ،  
ودار اللكم واللطم ، والخبط والرفس ، والخدش والخمش ، حتى  
سالت الدماء من وجهينا . ثم ضربته بطبق الطعام « السفرطاس » ،  
فاصبته في جبينه بجرح بليغ . وهنا تدخل بعض المارة وفرقونا  
والدماء تسيل منا .

وبينما كان الناس يبعدون كلا منا عن الاخر ، كانت الشتائم  
تنطلق من فم كل منا كالرشاش : أنا اشم بالعربية ، وهو يشتم  
بالتركية . واعتقد ان الشتائم التركية قبح بكثير من الشتائم العربية .  
وبينما نحن في هذه الحال ، اذا بالمدير المعاون في مكتب عنبر ، نظاميات  
افندي ، يمر بنا ، فوقف والقى علينا درسا بالاخلاق ، ولم يفارقنا  
حتى صالحني واياه ، فقبل احدنا الاخر ، ومشينا سوية كأن لم  
يجر شيء بيننا اصلا !



## عيون تفتح

بدأت عيوننا تفتح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ ، وهي السنة التي نلت فيها الشهادة المتوسطة . ولا يستطيع ان يقدر الفرح الذي ساورني بهذا النجاح الامن دخل الفحص ونال الشهادة .

وفي السنة السادسة بدأت اطالع بعض الصحف المصرية التي كانت تسرب الى دمشق كالمقطم والاهرام والمؤيد ، ولا ادري كيف كانت تصل اليها ، لانها كانت ممنوعة . ولم تكن نحن نعرف من الجرائد الا جريدة « الشام » .

واذكر ان بعض اصدقاء لي كمحي الدين الخطيب وعثمان مردم بك ، كانوا يأتون بعدد او عشرين من الجرائد المصرية وينقلونها الى عدد محدود من اصدقائهم من الشبان الناشئين ، فيمر العدد من يد ليد بصورة خفية ، دون ان يطلع على ذلك احد .

وكان قد بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب العرب ، من حرجي المدارس العالية كالطب والحقوق والمكتب الملكي ، وهو اعلى مدرسة لاجراء الموظفين الاداريين . وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة ، ويخوضون في احاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك . فبينما كان الدمشقي يومئذ من اي طبقة كان ، لا يتحدث الا عن طعام يومه ، وعن الاشكال التي اكلها وكيفية طبخها والدعوات التي دعي اليها ، والحفلات الكبيرة التي اقامها وجهاء البندة ، كان هؤلاء الشبان الناهضون يتحدثون عن اوربا وتقدمها وعلومها ، وعن نهضات الشعوب ، والشكوى من ظلم الحكومة ، واستبداد السلطان عبد الحميد ، وسرد حكايات طويلة عريضة عن اغراق الاحرار في بحر مرمرة ، وتعذيب الالوف من الشبان المطالبين بالاصلاح .





الشيخ طاهر الجزائري المغربي ( الى اليسار جلوسا ) فالشيخ محمد السارك  
فالسيد عبد الباقي الجزائري

وكنا نسمع هذه الاحاديث في مجالس الشبان كلما سنحت لنا  
فرصة بالاجتماع اليهم ، ومن بينهم السادة : شكري العسلي ،  
عبد الوهاب الانكليزي وسليم الجزائري . ( وقد  
سنتقهم جلال باشا اثناء الحرب ) والاستاذ محمد كرد  
علي ، والدكتور عبد الرحمن شهنندر ، وعلى راسهم شيخ احرار  
العرب ذلك الحين ، الشيخ طاهر المغربي الجزائري ، وهو شيخهم  
وشيخنا ، وله اكبر فضل في تنوير الابصار والبصائر ، ودفع العرب في  
طريق التقدم . وهو اول من فتح مدارس البنات في دمشق .  
وكان يحضر اجتماعات الشلة الشيخ سليم البخاري ، والشيخ

جمال القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار ، وهم من الشيوخ  
الاحرار المجددين ، وكانوا جميعا موضع تقمة الحكومة .

وكنا اذا حضرنا مجالسهم ، يتحفظون امامنا . وعلى الرغم من  
ذلك كانت احاديثهم اصلاحية توجيهية ، فاتهمهم بعض الناس بانهم  
وهايون ، واتهمهم اخرون بالماسونية .

في هذا المحيط فتحت عيني على الدنيا ، ومن رجاله اقتبست  
الوطنية والحرية ، ومن شبانه تعلمت الجسارة والجرأة . رحم الله  
من مات منهم ، واحسن الى من بقى حيا !

## الانقلاب العثماني

في السنة الدراسية ١٣٢٣ - ١٣٢٤ مالية (١) ، اي في العام ١٩٠٨ ، وقع الانقلاب العثماني . وكنا يومئذ في الصف السابع الاخير ، والسنة على وشك الانتهاء ، فقامت القيامة ، وخرج المنادون ينادون في الاسواق باعلان الدستور والحريّة والمساواة والعدالة ، واقيمت الزينات ، وراح الناس يهتفون مع الهاتفين ، دون ان يفهموا شيئاً مما جرى . وما اقل الذين كانوا يفهمون معنى الحرية التي ينادون بها !

في اثناء المهرجانات ظهرت شلة الاحرار الذين تقدم ذكرهم ، على مسرح الانقلاب ، فكانوا في مقدمة فرسان هذا الميدان .

قامت بالانقلاب جمعية « الاتحاد والترقي » ، وكانت سرية حتى وقع الانقلاب ، فظهرت علنا بعده ، وعلى رأس رجالها نيازى وانور .

وفي مدة قليلة تشكلت لها فروع في جميع الولايات ، وساعد على تشكيلها الموظفون الذين نفاهم عبد الحميد من الاستانة . وكان منهم في دمشق مدير معارف الشام حسين عوني بك ، وهو من احرار الترك ، وشي به احدهم الى السلطان ، ففر على الاثر الى انكلترا ملتجئاً ، وقضى فيها بعض سنين . من ثم توسطت له السفارة الانكليزية ، وحصلت على عفو ، فعاد بوظيفة مدير معارف ولاية سوريا . وكان ربانا لاحدى بواخر الدولة عند فراره .

هذا الرجل له حوادث عجيبة ما زلت اذكر بعضها . كان

---

لما كانت اشهر السنة الهجرية تتبدل فصولها على مر الايام ، كان يقع تشويش في جباية اموال الدولة وقيودها ، فقررت لجنة الاسلحات الخيرية تبديل السنة الهجرية بالسنة الميلادية وطبقوا ذلك في سنة ١٢٥٦ هـ وجعلوا اسم السنة مالية بدلا عن ميلادية .



صليبا ، ضيق الصدر ، قصر القامة اذا مشى بين الاولاد يبدو  
اقصرهم ، وكثيرا ما كان يدفعه احد الطلاب اثناء ركضه فيشور  
وينزل بسوطه على الطالب حتى يحرمه العافية .

اتاه مرة احد ابناء الاسر العريقة بكتاب توصية من وزير  
كبير في الاستانة ، مرسل اليه بواسطة الوالي ناظم باشا ، فما  
كان منه الا ان مزق الكتاب وقال للطالب : اذهب وقل للوالي ان  
يبرق الي قريبك الوزير ، اني مزقت الكتابين ودستهما برجلي  
هكذا !

ورمى بالاوراق الممزقة الى الارض وداسها برجله وكان  
ذلك قبل اعلان الدستور بسنة او سنتين .

وهذا الرجل برز بعد الانقلاب العثماني ، واستلم ارفع مركز  
في جمعية الاتحاد والترقي ، واصبح هو ومعاونيه هاشم بك  
المسيطرين على فرع الجمعية في سوريا . وكان الناس قد اخذوا  
يتهافتون على الانخراط في الجمعية بكثرة ، مما سيرد تفصيله

## هزة الانقلاب

وصل خبر الانقلاب العثماني من الاستانة مساء ١١ تموز  
فاعلنته حكومة الولاية في الساعة الحادية عشرة ليلا . وفي الصباح  
التالي - وكان يوم سبت - خرج المتنادون الى الاسواق ينادون به،  
دون ان يفهم اكثر الناس معناه ومرماه .

وقد اسقط في ايدي رجال الحكومة المحلية . وثاروا في تعيين  
موقفهم من رجال المعارضة بعد هذا الانقلاب . وقد سارع كثيرون  
منهم الى تعديل خطتهم ، وتقربوا من الاحرار الذين استلموا فرع  
جمعية الاتحاد والترقي في دمشق ، وعلى رأسهم حسين عوني بك .  
ذكرت في الفصل السابق شيئا عن حياة حسين عوني بك،  
وعن اخلاقه . واذكر الان حكاية اخرى عنه :

كانت حكومة عبدالحميد تؤخر في بعض الاحيان دفع رواتب  
الموظفين شهرا او يزيد . ولذا كان الموظفون يبيعون سنودات  
رواتبهم الى سماسرة مخصوصين ، يشترون الليرة بريال مجيدي  
وكان على رأس هؤلاء « دفتر دار » الولاية ، اي مدير ماليتها ،  
وهو من اترك الاستانة .

وقد ساوم احد السماسرة حسين عوني على شراء راتبه في  
احد الاعياد فابى البيع . وعندئذ اخروا دفع راتبه ، فابرق السي  
السلطان عبدالحميد برقية قال فيها : « جميع الموظفين فرحوا  
باخذ رواتبهم في هذا العيد الا انا ، فقد اخروا عني الدفع . فويل  
هذا هو العدل السلطاني ؟ انتظر الانصاف ! »

وصدف ان وصلت البرقية بسرعة الى يد السلطان ، فاصدر  
ارادته بتعيين حسين عوني مديرا للمعارف في دمشق . وبالرغم من  
انه اصبح موظفا كبيرا ، ظل تحت المراقبة حتى اعلان الدستور،

اذ ظهر على المسرح السياسي واستلم رئاسة فرع جمعية الاتحاد والترقي التي قامت بهذا الانقلاب .

اما اعضاء الفرع فكانوا خليطا من العسكريين والملكيين ، وفيهم بعض ابناء دمشق ، فكان من الاعضاء العاملين بهاء الدين بك المناستري واسعد بك اركان حرب ، الذي تعين بعد الدستور مديرا للشرطة في دمشق ، وهو من اسرة الدرويش من طرابلس الشام ، المنتمية الى ال قرمـزاز .

وكان من اعضاء الفرع السيد احمد ابش، ومن الاعضاء المساعدين مجيد باشا العظم ، عبدالرحمن باشا اليوسف ، جبران اويس وغيرهم

اما المثقفون من ابناء البلاد فانهم ساروا بهذا التيار ومشوا مع احرار الاتراك ينادون مثلهم ، ويخطبون ويرشدون الناس الى تفسير ما غاب عنهم تفسيره من الكلمات الجديدة : حرية ، مساوات ، عدالت ، اخوت ( اي الحرية والمساواة والعدالة والاخوة) .

وجدت هذه الكلمات صدى في نفوس الناس ، وراح الاتحاديون ينادون بالاخاء ، فيجمعون رجال الاديان المختلفة ، ويطلبون اليهم ان يتعانقوا بعضهم مع بعض ، ويخطبون بعد العناق بتأييد هذا الاخاء . وكان اكثر التأييد على ما اظن ظاهريا لان حال البلاد يعد اعلان الحرية ظل على ما هو عليه ، ولم يتغير فيها الا الكلمات اي بدلا من « بادشاهم جوق يشا » ، اصبحوا ينادون « يشاسون حريت » . اما الادارة ومعاملات دوائر الدولة فلم تتبدل !

وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم الموج الماسوني الذي كان مغلقا قبل الدستور وكان مربوطا بالمحفل الايطالي ، ومن اركانها المرحوم الامير عبدالقادر الجزائري . وبعد الانقلاب فتح المحفل ابوابه وجمع الاعضاء شملهم ، واسسوا محفلا جديدا اسموه محفل « نور دمشق » وربطوه بالمحفل الاسكتلندي ، وقد تعاقب على رئاسته السادة مصطفى السباعي الخطاط المشهور جبران اويس ، ثم



غالب شاوول مدير البنك العثماني ، ثم الاستاذ فارس الخوري ، وهو من اعضاء شلة الاحرار تلامذة الشيخ طاهر الجزائري . وبعده نشاط قصير عادوا فاغلقوا المحفل ، وما يزال مغلقة الى الان .

### ظهور الخطباء : استمر الابتهاج بالانقلاب زمنا طويلا ، وراح

الناس يتسابقون في اقامة المهرجانات ، فيقوم فيها الخطباء ويستفزون حماسة الجماهير بالعبارات الرنانة المزوقة .

لم يكن في دمشق بذلك التاريخ خطباء بالمعنى المقصود من الخطابة وكان خطباء المساجد موظفين يقرؤون ايام الجمعة الكراسات المطبوعة . وكانت خطبة المساجد في العهد العثماني واحدة ، وهي الخطبة التي وضعها ابن نباتة منذ الف سنة .



السيد مصطفى السباعي

اما الخطباء المدنيون فلم تكن تعرف عنهم شيئا ، ولم اسمع في عمري خطيبا خارج المساجد الا عند اعلان الانقلاب ، حيث قام شبان الاتراك يخطبون باللغة التركية ، وخريجو المدارس العالية من ابنائنا يخطبون باللغة العربية ، ومنهم السادة الانكليزي والشهبندر وفارس الخوري . وكانوا يؤثرون على الجماهير باقوالهم ، ويسترسلون في الحديث عن الحرية ومعانيها .

ومن اطرف ما وقع في هذا الموضوع ان ضابطا من ابناء دمشق يدعى احمد جودت كان من اشد المتحمسين للحرية ، فراح يعدو من حي الى حي ليفهم الناس معنى الانقلاب . وقد رايت له ليلة في حي الميدان يخطب باللهجة العامية ، فحمل على احمد عزت باشا العابد حملة شعواء ، واتهمه بكل شنيعة .



احمد عزت باشا العابد

وكان عزت باشا من ابناء  
الميدان ، واهل الميدان موصوفون  
بالرجولة ، فاستأثروا من التعرض  
لزعيمهم . فلما رأى الخطيب  
ان العين احمرت عليه ، وسمع  
الهمة من كل جهة، احس  
بالخطر، فطلب الى ضابط الجوقة  
الموسيقية العسكرية ان تهيا  
للعرز ، وقال :

— اتعرفون يا اخوان ما هي  
الحرية ؟ الحرية غزاة مسجونة  
في قفص، فتحوالها الباب وفرت . .  
فرت الى الصحراء . هذه هي  
الحرية !

ثم التفت الى الجوقة وقال :

« مزيكه دقي ! ! » فالتهى الناس

بانفاسها ونزل الخطيب عن المنبر وتوارى !

\*\*\*

**المشير فؤاد باشا :** كان بين كبار الاتراك  
المنفيين في دمشق المشير فؤاد باشا ، المعروف  
بـ « دلي فؤاد »، اي فؤاد المجنون . وقد نفاه السلطان عبدالحميد  
من الاستانة الى دمشق ، فسجن في البناية التي كانت يومئذ  
ناديا للضباط ، وهي قرب الثكنة العسكرية . وقد اصبحت اليوم  
جزءا من الجامعة السورية .



المشير فؤاد باشا ، وكان ياورا عند عبد الحميد ، ثم نفاه الى دمشق  
سنة ١٩٠٢ ، وظل فيها حتى سنة ١٩٠٨



ولما اعلنت الحرية لم يطلق سراحه ، ولذلك ذهب الاستاذ فارس الخوري واسعد بك اركان حرب الى مدء عام الولاية ، وطلبا اليه اخلاء سبيل فؤاد باشا ، فاجاب : لم يصلني اوامر من الاستانة !



الامير عبدالقادر الجزائري

قالوا : اي اوامر تنتظر ؟ هل بيدك امر مخلوط بسجنه ؟

فلما اجاب سلبا ، قالوا : اذن القانون يمنعك من ابقائه في السجن!

وعلى الاثر ذهب المدعي العام مع السيدين الخوري واسعد قرقماز واخرجوا المشير من سجنه ، ولا ادري اين ذهبوا به ولكن الذي اعرفه انهم اقاموا له حفلة تكريم في حديقة الدفتر دار وهي الحديقة الواقعة امام مدرسة التجهيز الاولى ، عزفت فيها الموسيقى العسكرية وخطب فيها الخطباء وسمعنا فيها المرحوم

الدكتور عبدالرحمن الشهبندر يخطب لأول مرة في دمشق . واذكر انه اخرج منديله وطلب الى الناس اخراج مناديلهم ، وصار يلوح بمنديله ويقول : « اعملوا مثلما عمل ! » فصار الناس يلوحون بمناديلهم ، فكانت هذه العملية مثارا لانتقاد بعض الاوساط الناقمة على هذا الدور .

ومن الطف ما جرى بهذه الحفلة انهم كلفوا بعض الوجهاء بالقاء كلمة في هذه الحفلة . ولما كان اكثرهم لم يقفوا على المنابر

في حياتهم ، فقد تلعثموا ، ومنهم الامير علي عبد القادر الجزائري الذي  
قرا خطابا مكتوبا ، وكان نور السراج ضعيفا ، فوصل الى كلمة  
لم يتمكن من قراءتها ، فنادى باعلى صوته « مظموسة » ، وترك  
الكلمة واستمر في قراءة الخطاب ، فكان لهذه النكتة وقع جميل  
وصفق له الحاضرون طويلا !

## انا و حسين عوني

ذكرت سابقا ان الانقلاب جرى قبيل ايام الفحص ، فكان لنا مفاجأة قوية اضعنا فيها عقولنا ، ثم جاء الفحص فوقعنا بين تيارين يتقاذفانا : الفحص ونشوة الاحتفالات . وكان مدير المعارف حسين عوني بك ( الرئيس الجديد لفرع الاتحاد والترقي ) يلقي علينا ثلاثة دروس وهي علم الفلك والموايد الثلاثة والجبر . فلما جاء فحص علم الفلك دخلت بدوري الى القاعة فاذا بالمدير يقلب وجهه ويكلمني بجفاء ، وانتهرني قائلا : « ارسم على اللوح دائرة ! »

رسمت دائرة ، فقال بصوت عال كانه يشاجرني : افرض هذا القمر ، فاكتب اوجه وحضيضه !

فكتبت لشدة اضطرابي كلمة « الحضيض » في اعلى الدائرة وكلمة « الوجة » في اسفلها ، فصاح بي بشدة : اخرج ، تنبل !

طار صوابي من هذه المعاملة ، لا سيما وان حسين عوني قد اصبح اكبر من الوالي ومن المشير ، وهو الامر الناهي في الولاية ، لا ترتد له كلمة . امرني بالخروج فلم افعل ، فدارت بيننا مشادة تركني على اثرها واقفا بجانب اللوح ودعا عدة طلاب فحصهم وانا واقف ، ثم تداخل المميزون في الامر وهداوا روعه ، فالقى عابي بضعة اسئلة اخرى اجبت عليها ونجحت .

ثم جاء دور الفحص في « الموايد الثلاثة » فاراد حسين عوني معاكستي ولكنني نجحت ايضا . وجاء دور الجبر فدخلت بدوري فلما رأني ضحك وقال بصوت عال : دوشدمني ( اي هل وقعت ؟ ) اجبت بالايجاب ، فالقى علي مسألة ذات خمسة مجاهل ومعلو واحد ، فلم اقدر على حلها فاعطاني صفرا .



واذكر انني لما لم اجب ، قال : خذ القلم وضع الرقم الذي  
تستحقه الى جانب اسمك !

اخذت القلم ووضعت رقم عشرة فضحك واخذ القلم ، ووضع  
نقطة وهو يقول ، صفر ، صفر ، صفر !

سقط بهذه المسألة  
تسعة تلامذة جاؤوا بعدي وكان  
المعلمون قد اجتمعوا خارج  
غرفة الفحص وانهمكوا كلهم  
بحل المسألة ، فحلها اخيرا  
الاستاذ خير الدين افندي انجوق  
واخذها عنه رفيقنا الدكتور  
علي الابرش الصالحاني ، فدخل  
الفحص وفاز باولية الجبر .



علي السقا اميني

وفي دورة الاكمال فحص  
حسين عوني جميع المكملين ،  
الا انا فانه لم يقبل ان يفحصني  
حتى تداخل وكيل علي افندي السقا اميني ، الذي ولاه ابي امري  
منذ دخولي مدارس الحكومة ، فقبل ان يفحصني . ولما دخلت عليه  
قال : ان صدقتني القول نجحتك . هل اتيت بخنجرك ؟

قلت : اي خنجر ؟

قال : الذي تريد ان تقتلني به !

فعرفت عندها ان احد اخصامي في المدرسة وشي بي اليه  
وشاية كاذبة ، فقلت له: يا سيدي انت من الاحرار ، وكنت ضحية  
الوشاية فهل تريد ان تسمع وشاية بتلميذ ضعيف ، وانت رئيس  
الاحرار في دمشق ؟

فضحك وكتب على ورقة الاكمال رقم خمسة دون ان يفحصني  
وقال : اذهب اذن ، وهذا الرقم هو « دفع بلا » عن صحتي !

وقد علمت في ما بعد ان احد الطلبة الاتراك هو الذي وشى بي  
الى حسين عوني بك ، انتقاما مني بسبب الخصومة التي قامت بين  
الطلبة العرب والاتراك في معهد عنبر ، مما وصفته في فصل سابق .  
وكانت هذه الوشاية سبب تنكر حسين عوني لي في الامتحانات .

\*\*\*

**بعد الشهادة :** بعد ان اديت فحص اكمال درس الجبر سنة ١٩٠٨  
ونجحت فيه ، اصبحت ماذونا من المدرسة الاعدادية وحصلت على  
شهادتها ، فاقيمت لي الافراح والليالي الملاح .

وطلبت من والدي ان يرسلني الى الاستانة لاتمام التحصيل  
العالي هناك فوعدني بذلك اذا استقرت الحال بعد الانقلاب . وفي  
الانتظار انغمست في تيار الحركة التي انبثقت عن الانقلاب ، ورحت  
احضر كل حفلة تقام . ولم يكن لنا هم الا انتقاد الخطباء .

واقامت المدرسة الاعدادية بهذه المناسبة حفلة خطب فيها  
مدير المعارف ومدير المدرسة وبعض المعلمين . وقد طلبت من  
المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ان يكتب لي خطابا القيه في  
هذه الحفلة ، فكتبه لي ونمقه ، وجعل موضوعه « الحث على العلم »  
فكان اول خطاب القيته وكان له وقع كبير على المستمعين ، وممن  
اثر فيهم خطابي المرحوم احمد الدالتي ، وكان لذلك صلة بزواجي  
في ما بعد .

## الردة على الانقلاب

كان طبيعيا الا يرتضي السلطان عبد الحميد العهد الذي فرضه عليه الانقلاب ، وهو الذي اشتهر بجبروته العظيم وملكه الواسع ، وكان الموت والحياة بين شفقيه ، ان ركب مشى الاكابر في ركابه ، وان نزل وقفوا ببابه وخضعوا لموظفيه ، بل وخدامه .

وكانت ادارة البلاد في عهده بايدي المتسلطين من الاعيان والوجهاء والحشوية من الشيوخ والسفهاء فانقطع رزقهم بعد الانقلاب ، وتهدم نفوذهم ، ووضحوا مشردين في الافاق . وعقب الصدمة الاولى استعدوا جاشهم ، فالف بعض رجال الدين بالاتفاق مع رجال عبد الحميد المعزولين وبتشجيع السلطان نفسه ، حركة خفية ، ظهرت بعد بضعة شهور من الانقلاب باسم « الجمعية المحمدية » في الولايات والعاصمة . وقد استطاعوا ان يستميلوا كثيرا من العوام ، وراحوا يحاولون هدم ما انشاه الاحرار العثمانيون .

وكان يتراس هؤلاء الرجعيين في دمشق الشيخ ابو الهدي الصيداوي الحلبي ، فراح يتهجم على الاحرار ، ويحرض الناس عليهم ، فتصدى له المرحوم الشيخ رشيد رضا ، وهو من احرار العرب الميامين الذين جاهدوا لرفع الظلم وبث الاصلاح .

وذات يوم القى السيد رشيد عظة في الجامع الاموي داعيا الى اصلاح الدين ، فنهض رجل يدعى الشيخ صالح التونسي ، وراح يخطب في المسجد ضد الشيخ رشيد .

وقد اتى المرحوم الامير شكيب ارسلان على ذكر هذه الحادثة في كتابه « السيد رشيد رضا ، او اخاء اربعين سنة » فقال :

« ذهب الشيخ الى دمشق عند اعلان الدستور ، وهناك القى درسا يتعلق بالعقيدة ، ذهب الشيخ صالح الشريف التونسي - وكان



حاضرا ذلك الدرس - الى ان فيه تعرضا للاولياء ، وان فيه شيئا من الوهاية . وتكلم الشيخ بشدة ، فمال الجمهور ممن يقال لهم «الحشوية» الى كلام الشيخ صالح ، كما ان اصحاب النزعة الجديدة والدستوريين مالوا الى كلام الشيخ رشيد رضا ، وحصل ضجة عظيمة في الجامع ، واتصلت بالحكومة فاستدعت الشيخ صالح الى دائرة البوليس بحجة انه اعتدى على الشيخ رشيد وانه كفره فشاع في دمشق ان الشيخ التونسي اعتقل ، واوجب ذلك هياج العامة فاجتمعوا وجاؤوا لتخليص الشيخ صالح من السجن والحقيقة انه لم يكن قد سجن بل استوقفوه بحجة انه هو الذي تعرض للشيخ رشيد . ولما رأى الوالي هذه الحالة ، وخاف الهرج والمرج ، ركب العربية واجلس الشيخ صالح بجانبه وانني لم احضر تلك الواقعة ولكنني سمعت خبرها .»

هذه رواية الامير شكيب عن الحادث اما انا فقد حضرت الواقعة فارويها كما شهدتها :

لقى الشيخ رشيد رضا في ٢٦ رمضان سنة ١٣٢٦ درسا تحت قبة النسر كان له وقع بليغ على الاهلين ، فتداعى الناس في اليوم الثاني اي ( ٢٧ منه ) الى المسجد ليسمعوا هذا الشيخ الفاضل ، وكثر الجمع حتى قدر بالالوف .

وبينما يلقي الشيخ رشيد رضا درسه ويشرح الآيات والاحاديث ويطلب الى الناس الرجوع الى سيرة الصحابة ، واتباع اوامر النبي والعمل بها، الى غير ذلك من النصائح والارشادات ، واذا بشيخ مغربي يدعى الشيخ صالح الشريف التونسي يشق طريقا بين الواقفين حتى وصل الى وسط الحلقة ووقف خلف الجالسين من المستمعين والشر باد في عينيه . وبعد ان وقف قليلا يستمع ويجيل نظره بالحاضرين كأنه يزن الموقف ، صاح بصوته : ايها المسلمون اسمعوا لسي كلمتين !

فالتفت الناس جميعهم اليه وسكت الشيخ رشيد ، فراح

الشيخ صالح يحذر من الوهابية ويقول : « واياكم ان يفلوكم عن دينكم ، ومنهم هذا الشيخ - و اشار الى الشيخ رشيد - الذي يحرم زيارة قبور الانبياء والاولياء والصالحين ، ويمنع التوسل بهم ولا يعتقد بكراماتهم ، فهذا فعل الوهابية ، فانا احذركم منه فالانبياء والاولياء والصالحون يقربون الانسان الى الله ، ويقضون حوائج الناس اذا سمعوا الدعاء الخ . »

وهناك وقف الشيخ رشيد ليرد عليه وليثبت للحاضرين انه لم يذكر ما قاله الشيخ في درسه ، ولكن الناس كانوا قد هاجموا وماجوا ، وكان بين الحاضرين عثمان بك العظم والقومسير يحيى افندي تلو ، وغيرهما من الشبان المنورين ، فالتفوا حول الشيخ رشيد واخرجوه من الجامع ، وخرج الناس من المسجد الى الشارع بهياج عظيم ، فذهبت الى دارى .

وبعد الفطور سمعنا الضوضاء تأتي من الشوارع ، واذا باهل الاحياء قد خرجوا بمظاهرات مسلحة نحو سراي الحكومة يهتفون بسقوط مدير الشرطة العام اسعد بك ، وسقوط جمعية الاتحاد والترقي ، ومنهم من كان ينادي بسقوط « جمعية التفريق والتدني » واجتمع الوف الناس فى ساحة المرجة ، وكان والى سوريا يومذاك هو شكري باشا ، وقد اسماه الدمشقيون « شكرية خانم » لضعف شخصيته اذ كان يحكم الشام بالفعل اسعد بك المذكور .

وهجم المتظاهرون على دائرة الحكومة لاجراج الشيخ صالح من سجن النظارة ، وتعلت الاصوات : « اقتلوهم ! اقتلوهم ! » ، واتجه قسم من المتظاهرين واراد كسر باب الغرفة التي كان فيها اسعد بك مدير الشرطة العام . وقبل ان يصلوا الى غرفته ركض السيد شكري الطباع ، وهو من « قبضيات » حي القنوات ووقف امام باب غرفة اسعد بك وفتح ذراعيه ووضعهما على عضائد الباب قائلا : لا يصل احد الى اسعد بك الا على جثتى !



وانبرى ابناء محلته يردون الناس عن باب الغرفة الى ان تمكنوا من انقاذ من في داخلها ، وكان من بينهم الدكتور حسين حيدر من بعلبك ، وعمر فرحات مدير شرطة دمشق وعلى الاثر هرب اسعد بك الى بيروت .

هذه الفتنة كانت ولا ريب مبيتة ضد جمعية الاتحاد والترقي وساعد الجهل على اذكائها ونجح الرجعيون بمؤامرتهم التي قاموا بها خلف ستار الدين . وبعد المظاهرة نزل الوالي شكري باشا الى دائرة الشرطة واخرج الشيخ صالح وركب واياه عربته الخاصة ودار به شوارع البلدة ليرى الناس ان الشيخ اطلق سراحه . وهكذا انتهت الفتنة ولكن ذيولها لم تنقطع .

\*\*\*

**احمد كمكوم** : هذا الحديث عن الهجوم على السراي يجرنني الى حديث اخر ، من نوع شخصي . ذلك انني شاهدت ذلك الهجوم برفقة رجل مولج بالمحافظة علي ، يدعى « احمد كمكوم » . ولهذا الشاب حكاية اخرى ، اود ان اسردها على القراء ، للتدليل على بعض مظاهر العهد الذي نشأ فيه جيلنا .

كان احمد هذا ، نجل جندي مصري من جنود ابراهيم باشا ، تخلف في دمشق واستوطنها ، ويدعى سليم كمكوم ، وكان له ثلاث اخوات ، فلما بلغ العاشرة من عمره ، غضب على اخته الكبرى - وعمرها ست سنوات - فخنقها ، ثم ذهب وخنق الثانية ، ثم وضع وسادة على راس الثالثة وجلس عليها حتى ماتت . وبعد ذلك ذهب الى والده يبلغه انه قتل اخواته الثلاث ، خوفا من عارهن عندما يكبرن !

انهال ابوه عليه بالضرب ، وصدق ان مر في تلك الساعة جدي محمد حسن البارودي ، فخلص الولد منه واخذه الى داره ، لانه صغير لا يعي ما يفعل ، فرباه عنده واصبح « قبضايا » مرهوب الجانب .



وذات يوم تشاجر احمد مع شاب اخرس ، فقتله بطعنة خنجر  
عن غير قصد ، فالتجأ الى دارنا ، وحماه جدي من الحكومة ، حتى  
هدات الاعصاب، واستطاع والذي استرضاء والذي القتل بدفع الدية .

بعد ذلك عاش احمد كمكوم في دارنا، واقسم انه سيمسح احذبة  
العائلة البارودية حتى الموت ، وكان يأتي كل اسبوع بصندوق البويا  
ويمسح احذيتنا ، ويدعو الله الا يميته الا على باب دارنا .  
وذات يوم وكان قد تجاوز الثمانين ، شعر بقرب منيته ، فطلب  
الى زوجته ان تقوده الى دارنا ، حيث جلس امام باب الاسطبل ،  
وبعد دقائق اسلم الروح هناك .

وكان كمكوم يحترف صنعة « البسطاطية » ، اي بيع الحوائج  
القديمة ، كادوات النجارة والحدادة ، وما اشبه ذلك من مطارق  
ومناشير وامواس . وكان يبيع حاجاته بالرخص لان بعضها « لقطه »  
او مسروق . وكان البسطاطيون من اشقى فتيان دمشق . ومنذ  
عشرين سنة تقريبا انتظمت هذه الحرفة ، وفتحوا لها الحوانيت .  
وهي رائجة اليوم في سوق الدرويشية .

## عبد الحميد

في العهد الذي نشأت فيه كان اسم واحد يتقدم على كل اسم ، ولا يذكره الناس الا بخشوع صادر عن رعب ، هو اسم السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد بن محمود الثاني . كانت والدته سرية أرمنية ، ونشأ بين العبيد والسراري . واشتهر منذ صغره بحب الانفراد وقد اتهمه اكتاب الاحرار بعد خلعه بكل نقيصة ولم يذكروا له حسنة واحدة . على ان بعض اكتاب في ايام حكمه كانوا يصفونه بالحلم والشجاعة .

وعلى كل ، فقد كان عبد الحميد من ادهى ملوك هذا العصر واذكاهم . واو كان على جانب من العلم والثقافة لما وقع بمسما وقع فيه من خطيئات ، ولما اعتمد في حاشيته المناققين دون سواهم وكان يستشير المنجمين المشعوذين والدجالين من شيوخ الدين ويستخدم رهطا من شياطين رجال السياسة ممن اتقنوا النفاق والمداجاة . وقد جمع حوله جيشا من الجواسيس واطلق العيون في العاصمة والولايات بعد ان عطل الدستور وابعد الاحرار وحل مجلس « المبعوثان » وسجن المثقفين .

وكان عبد الحميد يرهب الانتقام ، فصار يصدق كل وشاية يحملها اليه جواسيسه . وقد عرف هؤلاء نقطة الضعف فيه ، فراجوا يكترون من تلك التقارير التي تثير الاعصاب ، ويزيدون استفزازه حتى جعل همه من الدنيا محاربة الاحرار ومقاومتهم ، والكييد لرجال الجمعيات الوطنية ، الى ان وقع الانقلاب ، كما اسلفنا . ولما لم يقدر على تحمل الحكم الدستوري ، رتب بواسطة رجاله حركة رجعية اسمها « الجمعية المحمدية » ، انظم اليها رجال الدين ، ورأس عليها احد اعوانه الدرويش « وحدني » ، وانتصر لها كل ناظم على العهد الجديد .



وقد اتصل عملاء هذه الجمعية بالجيش ، فنجحوا في اجتذاب بعض الرقباء في ككنة « اولوقشلة » في الاستانة ، وتظاهر الجنود وهجموا على مجلس المبعوثان وقتلوا بعض النواب ، ومنهم المرحوم الامير محمد ارسلان شقيق المرحوم الامير امين ارسلان .

هكذا استعاد الرجعيون السيطرة على الاستانة بفضل دسائس عبد الحميد . ولكن الاحرار سارعوا الى ارسال جيشهم من سلانيك فوصل الى الاستانة واطفا الفتنة وخلع عبد الحميد عن عرشه .

ومما يؤسف له ان الاحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع الى عبد الحميد - وهو سلطان المسلمين - غير عمانوئيل قره صو ، وهو زعيم يهود سلانيك . وكانت وقعت له حادثة تاريخية مع عبد الحميد ، طرده على اثرها من القصر ، ففي سنة ١٩٠٠ دخل قره



صو على السلطان ، بفضل القرين عارف بك ، وابلغه انه موافق من قبل الجمعية العالمية الصهيونية ، وانه قادم يطلب اليه اعطاء تلك الجمعية الاراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميت ، مقابل خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهبية تدفعها الجمعية الصهيونية ، هدية الى الخزينة الخاصة ، وعشرين مليوناً تقرضها الجمعية الى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة ، ففضب السلطان وطرده من حضرته .

وعلى الاثر ألف اليهود جمعية سرية اكثر اعضائها من اليهود المعروفين باندونمة (١) . فأتصلت باحرار الاتراك ، ودخل اعضاؤها حزب الاتحاد والترقي ، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كآنور ونيازي ، وكانت لهم اليد الطولى في الانقلاب الثاني وخلع عبدالحميد وظل اليهود ذوي نفوذ قوي في اوساط الاتحاديين ، وكانوا في جملة العناصر التي بثت الفساد في الشعب التركي وفي حكامه .

**مقهى الله كريم** : بعد خلع السلطان عبدالحميد ، احوال الاتحاديون على التقاعد قسماً كبيراً من الضباط الذين ناصروه . وكان الضباط المتقاعدون في دمشق يجتمعون في مقهى البغا ، قرب جامع « يلغا » الواقع بين محلتي البحصنة وسوق الخيل . فلما انضم اليهم الضباط الحميديون المتقاعدون تزايد عددهم ، حتى اصبح ذلك المقهى خاصاً بهم تقريبا .

وكانوا يجلسون فيه طول النهار ، حتى اذا مر امامهم ضابط حديث ، يتبادلون النظرات ويرددون : « الله كريم ! » ، املا منهم في أن يعود عبدالحميد الى العرش ويعودوا معه الى مناصبهم . ولكن عهد عبدالحميد لم يعد ، ولم يبق لهم من آمالهم سوى عبارة « الله كريم ! » التي اصبحت اسماً للمقهى .

(١) دونمة لقب يطلقه الاتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا الى تركيا من اسبانيا ، واستوطنوا سلانيك وهم طائفة يتظاهر افرادها بالاسلام ، مع احتفاظهم باطنا بالدين اليهودي . ومنهم جاويد بك وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي .

**الدستور العثماني** : تحدثت كثير عن الانقلاب الذي ادى الى اعلان الدستور . والواقع ان الحكومة العثمانية اعلنت الدستور اول مرة سنة ١٨٧٦ ، وكان مؤلفا يومئذ من ١١٩ مادة ، اهم ما فيها بالنسبة الى ذلك العهد :

- ١ - المساواة بين الرعية على مختلف المذاهب والاديان .
- ٢ - حرية التعليم ، على ان يكون اجباريا ، وحرية المطبوعات .
- ٣ - الغاء السخرة ومنع المصادرة والتعذيب .
- ٤ - جعل اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة .

ولكن السلطان عبد الحميد لم يلبث حتى تنكر للدستور الذي اعلنه ، فالغاه في ١٤ شباط ١٨٧٨ ، اي بعد اعلانه بسنة واحدة . وظل يحكم البلاد حكما استبداديا حتى وقع الانقلاب سنة ١٩٠٨

وقد قرأت في مجلة « الهلال » في العدد العاشر من المجلد السابع عشر ، مقالا عن اسباب الغاء الدستور سنة ١٨٧٨ وحل مجلس « المبعوثان » ، يلقي التبعة على جهل الشعب لحقوقه وواجباته اذ لم يكن يفهم معنى الدستور والانتخابات .

وكان النواب مجموعة قوميات ، فمنهم التركي والعربي والسراني والبلغاري والبوسني والسلافي والصربي والقلاخي والفارسي والكردي ، ولكل منهم لغة مستقلة كما كانت اديانهم متباينة . وقد كان هذا التباين سببا في مشاكل مذهبية ، اتخذها السلطان ذريعة لحل المجلس .



## انا صاحب جريدة !

لم تمض مدة قليلة ، على الانقلاب ، الا واصبحت كلمة الحرية على كل لسان ، بعد ان كانت محظورة في عهد عبد الحميد ، بيد ان الكثيرين اساؤوا استعمالها ، فلنا منهم بان الحرية غير محدودة .

وكانت الصحافة قبيل هذا الدور غير معروفة بل عديمة الاثر . ولم يكن منها في دمشق غير صحيفة واحدة اسمها « الشام » كان يصدرها مصطفى افندي الشقلاي ، مرة في الاسبوع .

وكان الدمشقيون يسمون الجريدة « كزيطة » ، وهي تحريف لكلمة « غازيتا » الايطالية . وما يزال بعض الشيوخ من عوام الدور الحميدي يسمون الجريدة « كزيطة » الى اليوم .

باعلان الدستور العثماني ، فتح باب الصحافة على مصراعيه ، فصدرت في دمشق اول جريدة يومية متزنة وطنية هي جريدة « المقتبس » للاستاذ محمد بك كرد علي . وكانت ادارتها مجمعا للعلماء والادباء والمفكرين من العرب على اختلاف اقطارهم . ومما لا شك فيه انها كانت الاولى التي نبهت اذهان الناس الى واجبه نحو وطنهم . واذا كان من فضل لاحد علي في توجيهي من الناحية الوطنية ، فهو اولا للشيخ طاهر الجزائري المغربي استاذنا ، والسى تلامذته الاحرار ، ومنهم الاستاذ كرد علي الذي صحبته مدة غير يسيرة من الزمن ، علمني خلالها كيف اطالب بالحق واناادي به .

وفي العام ١٩٠٩ خطر لي ان اصدر جريدة . وهكذا ، دون ان استشير احدا ، اصدرت جريدة اسميتها « حط بالخرج » ، وكانت اول جريدة فكاهية صدرت في دمشق ، اخرجتها دون ان احصل على رخصة من الحكومة ، لانني كنت اجعل ان اصدار الجرائد يحتاج للرخصة ، كما انني كنت اتوه ان راس مال الجريدة لا يزيد عن قلم وورقينة .





الاستاذ محمد كرد علي مؤسس « المقتبس » في شبابه

وفعلا اصدرت العددين الاولين بتوقيع « عزرائيل » ، فراجا رواجاً كبيراً ، وكنت احرها باللهجة العامية .

ولما عرف والدي بالامر ، قامت قيامته وغضب غضباً شديداً ، واقسم ان يطردني اذا نشرت اسمي صريحا على الجريدة . وعلى الاثر اتفقت مع المرحوم « الدده » عارف الهبل على ان يضع اسمه في الجريدة ، وان يتخذ صفة مديرها المسؤول ، على ان اتابع انسا تحريرها ، فقبل . وهكذا وضعنا اسمه في العدد الثالث واستمرت الجريدة في الصدور ، فكان لها ضجة في مختلف الاوساط .

ولما كنت اجهل اصول الصحف الفكاهية ، فقد استحضرت من القاهرة ما توصلت اليه من الجرائد الفكاهية الصادرة هناك ، كجريدة « ابي نظارة » وجريدة « المسمار » وغيرهما ، وجعلت اسير على نهجيهما ، مما لم يكن معروفا في دمشق قبالا .

ولما راجت الجريدة ، ومال الناس الى هذا النوع من الكتابة ، اخذ بعض الشباب يصدرون جرائد فكاهية اخرى . فلما رايت ان الجرائد قد تبذلت ، وان اصحاب الجرايد يبيعون انفسهم للاتحادين مقابل عشرين ليرة عثمانية في الشهر ، تركت جريدتي وانقطعت عنها .

وكان الاستاذ كرد علي قد دعاني مرارا الى العمل معه في « المقتبس » ، فاعتذرت بانشغالي بجريدتي . فلما تركت جريدتي ، لببت دعوته ، وقضيت عنده في « المقتبس » مدة تزيد عن السنة ، تمرنت خلالها على الترجمة من التركية الى العربية . وكان يصحح لي اغلاطي ويشرف على لغتي . وبقيت بعد ذلك اتردد عليه الى ان سافرت الى اوروبا ، كما سيرد ذكره .



**رفاقي في الصف :** بينما كانت الحوادث الانفة الذكر جارية ، كان رفاقي الذين تخرجوا من مكتب عنبر معي يستعدون للالتحاق بالمدارس العالية . وقد سافر اكثرهم الى الاستانة . وكان عدد ابناء صفي الذين نالوا الشهادة معي ١٦ شخصا ، هم السادة : سعيد الزبيق ، علي الابرش ( اكمل الطب ونال الدكتوراه ) ، خالد جوجه ، زكي القصبياتي ، ابراهيم الترك ، نسيب النابلسي ( انهى مدرسة الملكية ) . مصطفى الترك ( اكمل الطب وصار طبيبا ) عثمان السمان ( اصبح طبيبا ) ، معدوح العابد ، عبد الرحمن الرشيدات العجلوني ( حصل الحقوق ) جلال البخاري ( حصل الحقوق ) محمود الصاحب ( صار طبيبا ) محمد سيف الدين ( حقوق ) فخري البارودي ( صار تقاعدا ) ، توفيق الداودي ، مصطفى الصالحاني .



وطلبت الى والدي ارسالي الى الاستانة لاتمام تحصيلي ،  
فوعدني بذلك، ولكنه اصر بالتريث الى العام القادم، ريشما تهدأ الحالة  
هناك خشية ان تقع اضطرابات جديدة اذهب ضحيتها واكد لي انه



طلاب صفي الدين نالوا الشهادة معي ، وانا اتوسط الصف الاخير

سوف يرسلني حتما عندما يستقر الحال ، فصبرت على مضض ،  
وطلبت منه أن يجد لي عملا موقتا ، حتى لا ابقى عاطلا فالتزم لي  
«عشر» قرية متين ، وجيبته ذلك العام . وهكذا مرت سنة ١٩٠٩ ،  
والاضطرابات لما تنته في الاستانة .

\*\*\*

الاعشار : لا شك ان التزام الاعشار المشار اليه في الفقرة  
السابقة ، هو تعبير مجهول عند الجيل الجديد ، لذلك اود ان  
اوضحه لهم .

العشر ضريبة كانت تحصلها الدولة العثمانية من رعاياها ، وهي



١٢٥٥ بالمائة من مجموع محصول المزارع . كان في البداية عشرة بالمائة ، فضمت اليه حكومة عبد الحميد اثنين ونصف بالمائة حصة للمعارف .

وكانت الدولة تطرح الاعشار في المزاد العلني ، لكي تقبض ريعها من الملتزم سلفا ، وتطلق له العنان في تحصيلها من المكلفين . وكم تحمل الناس من ظلم الملتزمين عند التحصيل ، فقد كان هؤلاء ممن ارباب النفوذ الاقطاعيين ، وكانوا يتفوقون مع الحكام على سلب الفلاح ، معتمدين طرقا خاصة في التخمين ، وفي ابتزاز المال منه بدلا من اخذ الاعشار عينا على المنتجات السريعة العطب ، كالعنب والبطيخ . اما المواد التي كانوا يأخذون عشرها عينا ، فهي الحبوب على الاطلاق ، والزبيب واللوز والجوز .

وكان في كل قرية بضعة اشخاص يسمون بالعوانية ، اتخذوا تحصيل العشر مهنة لهم ، فكان الملتزمون يستعينون بهم في التحصيل مقابل نصيب من الارباح .

اعرف احد المتنفذين في دوما ، كان يلتزم اعشار القصبية في اكثر الاعوام ، واذا صدق ان التزمها احد غيره ، كان الملتزم يتنازل له عنها مقابل أضعافه من الدفع بتاتا . واذكر انه لم يحصل منه احد من الملتزمين قرشا واحدا الا انا فقد حصلت - عند التزامي الاعشار - الحصة كاملة ، وقدرها اربعمائة ليرة عثمانية ذهباً . على اني تركت اعشار الفقراء الصغار ، الذين يتجاوز المترتب عليهم ٤ ليرات ، مما ساعد على تنبه الافكار ضد العشرين .

## حياة التسليية

شغلني تحصيل الاعشار في تلك السنة ( ١٩٠٩ ) اشهرا قليلة ،  
وما عدا ذلك كنت اقضي أيامي في دمشق في التسليية على اختلافها ،  
وكان ذلك بداية اصطدامات كثيرة بيني وبين والدي ، بسبب القسوة  
التي كان الاباء يعاملون بها ابناءهم في ذلك العهد .

ومع اني وحيد والدي ، فانني لا اذكر انه قبلني الا مرة واحدة ،  
وانا في السابعة من عمري . كنت نائما وصحوت على نفس حار ،  
ففتحت عيني فرايت والدي منحنيا على فراشي يقبلني . هذا كل  
ما عرفته من قبلات والدي .

اما الضحك في وجهي فلم أعرفه منه ، وقليل ما رأيت أسارير  
وجيهه تنفرج عندما تبدر مني نكتة ما .

عودني والدي على الا اطلب منه شيئا مباشرة ، بل بالواسطة .  
وكان له صديق ودود ، قضى العمر في معاشرته (مثلي ومثل صديقي  
حسني تلو الذي لم يفارقني منذ خمسين سنة) ، يدعى كمال افندي  
المهاييني من اسرة المهاييني الكريمة ، وهي من اكبر اسر دمشق ، تقطن  
محلة الميدان الفوقا .

وكنت اذا احتجت الى شيء ما ، طلبته من والدي بواسطة كمال  
افندي ، فكان - مثلا - يأخذ لي اذنا كل شهرين او ثلاثة لقضاء  
سهرة في احد المسارح ، فيوافق والدي ويرفق اذنه مصحوبا بريالين:  
ريال اجرة «اللوح» وريال للشبرقة !

وكان رفاقي الذين رافقتهم منذ الصغر حتى فرقتنا الحرب  
العامة الاولى هم السادة محمد علي الدالاتي ، نسيب البكري ،  
محمد المهاييني ، شقيق كمال افندي المهاييني



« شلة » رفاقي ، وهم حسب تسلسل الارقام : خليل ملص ، سامي البكري ، فخري البارودي ، محمد علي الدالاتي ، نسيب البكري ، محمد المهاني ، اسعد البكري ، حسن سلام ، مظهر البكري

هؤلاء السادة هم « الشلة » اليومية التي لم يفترق افرادها بعضهم عن بعض في جميع اوقات الفراغ .. كان كل منا يدعو رفاقه الى المسرح في دوره، او نمشي على اصول التعاون ( عشرة حلبية ) .

وفي رمضان احدي السنين ، بعد ان انتهيت تعليمي وحزت الشهادة ، طلبت من والدي - بالواسطة طبعاً - اذنا للذهاب مع رفقائي الى « التياترو » فسمح لي . وفي اليوم الثاني كررت الطلب فنفر والدي وقال الى كمال افندي المهاني : بلغ فخري انني لا اسمح بالسهر يومياً ، ولو في رمضان .

جاءني الرسول يبلغني ذلك ، فقلت له : ان سنني تجاوز العشرين ، واصبحت رجلاً ، يمكنني ان ادير شؤون نفسي بنفسى ،



وإذا كان والدي قد احسن تربيتي ، فعليه الا يخشى علي من شيء .  
وإذا كانت تربيتي عاطلة ، فليس بإمكانه تقويمي بعد الآن ، ولهذا  
فاني اعد نفسي منذ الليلة حرا اتصرف باموري كما اشاء دون  
الرجوع الى والدي بشيء !

وهكذا خلصت من انتداب والدي ، فلم يعد يمنعني عن  
الخروج ، حتى مات رحمه الله .

\* \* \*

**مفاني دمشق :** كانت اسباب التسلية العامة في عهد  
شبابي محدودة ، فهناك المقاهي ، وهناك « التياترو » ، وهناك  
المغنيات . وقد اصطلح اهل دمشق على تسمية المغنيات البلديات  
بالمفاني ، واللواتي يأتين من مصر بالعوامل .

عرفت في شبابي عشرات من « المفاني » اللواتي يحترفن الفناء  
والرقص ، وكان معظمهن من اليهوديات ، حتى ان احدهن  
« اشترتني » بربع ريال . ذلك انه كان في دمشق عادة غريبة ،  
تقضى على الام بان تبيع طفلها رمزيا من احدى المغنيات ، فيحفظه  
الله عندئذ لاهله . هكذا « باعتني » والدتي من المغنية « هانولا »  
بربع ريال .

من اشهر مغنيات ذلك العهد رحلو الترك ، رحلو سلطاناه ،  
بنات الشطاح ، نظيره عنبه ، بدرية مواس ، بدرية سعادة ( وكانت  
جميلة العينين ) ، بنات مكنو حسيبه ، مريم ، روجينا ، طيره ،  
شفيقه ، سمحه ، حسيبة اتشي . ومن اجملهن صلحه  
الايض . وكان غواتها من ارقى الدمشقيين ، حتى ان احدهم كان  
ينام على عتبة بابها حتى الصباح ، اذا لم تستقبله !

ومن المغنيات المسلمات « رسمية جمعة » ، وكانت كفيفة  
البصر تضرب بالعود ولا تحضر الاحفلات النساء . ومنهن ايضا  
بنات « علي عمك » ، فهمة ضاربة القانون ، وشقيقاتها اللواتي كن  
يضحكهن الحضور ، وبنات « ابو قفة » وهي من الضاربات على



مغنية يهودية من مغنيات عصرنا الذي اتحدث عنه

النقرزان ، وبنات « مكنو » وهن جوقة كاملة كن يقمن بافراح دمشق من اعراس وسهرات ويستأثرن بالافراح الكبيرة . وهن اللاتي اقمن لي فرحة العرس ولم يصعدن المسارح الا في ايام الحفلات التي كان يقيمها فرع جمعية الاتحاد والترقي .



وكان يقد على دمشق عدد كبير من مغنيات الاروام والارمن  
والاتراك ، ومن شهيراتهن « كوزل دتبل » ، كوزل بلانش ، كوزل  
فاني ، والجميع روميات .

وكان في دمشق من المسارح ، مسرح قهوة الجنينة ، ومسرح  
الاصلاح خانة ، ومسرح القوتلي . ومن اشهر اصحاب المسارح  
المرحوم احمد اغا الخباز ، صاحب قهوة الخباز . وكان اذا جلس  
امام مدخل المسرح ، لا يجرؤ احد من فتيان البلدة ان يطل براسه  
على المسرح .

وكان في سوق ساروجة ومحلة البحصة وزقاق رامي عدة  
شبان من « الزكوت » ياخذون الغفارات ، من اصحاب المسارح ومن  
الراقصات . واذا تمنع احدهم عن دفع ( الغفارة ) انتقموا منه ومن  
حضور حفلاته . وكانت الحكومة تتجاهل دائما هذه الاعتداءات ، الا  
في حالة واحدة جرت على يد فرحات اغا ، وهو عبد من عبيد السلطان  
عبد العزيز المنفيين الى دمشق .

كان هذا العبد شرطيا جريئا اعجز اشقياء دمشق . وقد رايت  
مرة يدخل المسرح لتأديب بعض الفتوات المتسلطين على المسارح ،  
ويطردهم .

اما الكحول فكانت ممنوعة في المسارح ، وكان المدمنون على  
الشراب يذهبون الى « الخمارات » ويشربون كفايتهم منها قبل  
الدخول الى المسارح . وكان بعضهم يخفي في جيب سترته زجاجة  
« مفلطحة » تسمى « بطحة » يضع فيها عودا من القنب ، يرشف  
بواسطته الخمر من البطحة .

اما برامج المسارح فكانت واحدة تقريبا . يبدأ المنهاج بوصلة  
غناء من احد الرجال . وكان اكثر رؤساء التختات من المصريين ،  
فيفتح الفصل بوصلة موشحات ، ثم ليالي ، ثم تقاسيم ودور من  
النغمة التي غنوا بها الموشحات ، ثم يختتمون الفصل بقصيدة على  
الوحدة ، تفتح بهذا البيت :



آه يا انا ، ويش للعواذل عندنا  
قم ضيع العذال ، وواصلني انا !  
اما القصيدة فمن اي بحر ، ومن اي قافية ، وليس لها اقل  
ارتباط بالمدخل المذكور ابدا ، وانما كان هذا البيت فاتحة قصيدة  
ليعطي الوزن لاصحاب الالات .

وبعد انتهاء الفصل ينزل الستار للاستراحة . ثم يبدأ الرقص .  
وكلما انتهت راقصة ، استراحت النوبة عشر دقائق الى ان ياتي  
دور رئيسة الراقصات . وتكون عادة من ذوات الصوت الرخيم ،  
ومن ربات الصنعة ، فتؤدي دورها وتغني قصيدة على الوحدة ايضا .  
ثم يمثل فريق من اللاعبين مع اجمل بنت بين الراقصات فصلا  
هزليا لتسلية الناس .

وهكذا كنا نقضي سهرات المسارح ، واستمرت المناهج على  
هذا الشكل حتى مدة قريبة .



**روايات الفروسية :** كانت الروايات في زمننا شبه  
معدومة . وكان بعض الكتاب المتخرجين من المدارس الاجنبية  
يترجمون ما اشتهر من الروايات من تمثيلية ومن تاريخية .

اما الكتب التي كنا نعتمد عليها للتسلية فكانت سيرة عنتر ،  
وقصة الملك الظاهر ( وهي غير مطبوعة ، تقع في ٩٢ جزءا مكتوبة  
بالخط الثلث العريض ) ، وقصص ابي زيد الهلالي سلامة ، والوزير  
ابي ليلى المهلهل ، وغيرها من القصص التي تعلم الفروسية والبطولة .

وقد طالعت بعض هذه القصص وانا صغير ، وبعضها بعد  
خروجي من المدرسة . واذكر اني لما كنت في الصف الثالث  
الاعدادي ، جاء الى دمشق رئيس وزراء دولة ايران ، وزار المدرسة  
يصحبه الوالي وكبار الموظفين ، ومدير المعارف حسين عوني . وكان

مكانتي في آخر الصف ، وخلفي نافذة يستطيع الناظر ان يشرف منها على الصف كله . وكنت غارقا في مطالعة فصل من الملك الظاهر ، فلم انتبه لحيء الضيوف ، ولا الى الجلبة التي حدثت في الصف . ووقف الوزير والوالي يطلان علينا من النافذة خلفي ، فوقع نظري الضيف على الكتاب الذي اقراه ، ونظر الى كتب الطلاب بجاني ، فاستغرب اختلافها ، وسأل الوالي عن السبب ، فنقل الوالي السؤال الى مدير المعارف ، فاطل علي . وما ان رأى الرواية في يدي حتى ثارت ثأثرته وضرب على زجاج النافذة ضربا مزعجا نبهني من غفلتي ، وصاح بصوت عال مرعب : نه دربو كتاب ؟ (يعني ما هذا الكتاب ؟ ) في الحال اطبقت الكتاب ، ورفعت يدي نحو السماء ، وقلت : دعا افندم ! دعا افندم !

وسبل الله الستر ، وجازت الحيلة ، او ان الرجل اختصرها . لا ادري .



**الحكواتي :** اما الحكواتي فلا يزال موجودا الى الان ، يقص على الاميين قصة عنتر والملك الظاهر ، جالسا على دكة عالية بحيث يراهم جميع من في المقهى ، فيقرأ فضلا من القصة ، ويجبى « البخشيش »

هذه القصص وضعت على ما اظن ايام الحروب الصليبية ، وفيها شيء من اثارة التعرات ، كان بالامكان تهذيبيها وحذف المضر منها .

## حياة البطالة

ذكرت في فصل سابق كيف انني اصدرت مجلة « حط بالخرج » ثم سلمتها الى « الدده » عارف الهيل . ولقد ايقظت المسدة التي حررت فيها ، وتلك التي داومت فيها في جريدة « المقتبس » روح الصحافة في نفسي ، فرحت افكر باصدار جريدة يومية .

ومن ممارستي لمهنة التحرير ، ادركت انه يتوجب على صاحب الجريدة قبل كل شيء ان يملك مطبعة ، وان يعرف صناعة الطباعة بالفعل لا بالنظر . هكذا احببت ان اتمرن على صف الحروف ، فدخلت بطولني وعرضي صناعا في مطبعة « يدائع الفنون » ، لصاحبها السيد تاج الدين الصلاحي .

وكان رئيس العمال آنذاك السيد سعدي العمري ، فكنت اقضي كل يوم اربع ساعات ، في صف الحروف ، وبقيت مدة ستة اشهر وانا اداوم على العمل مجانا ، حتى اتقنت شيئا من الصنعة . وما زلت اذكر من رفاقي في المطبعة ، « مستوايمداني » ، غابت عني كنيته ، وما زال حيا .

بقيت فكرة الجريدة والمطبعة تراودني حتى سافرت الى اوربا كما سيرد ذكره . ولكنني بعد رجوعي من اوربا عدلت عن الصحافة لاني رايت ان الصحيفة التي يمكنها ان تعيش ، يجب ان تكون صحيفة حزب قوي غني ، او ملكا لشركة قادرة على تمويل الجريدة ، خصوصا في بلاد دستورية الاسم استبدادية الفعل كما كانت حكومة الاتحاديين التي عقبته حكومة عبدالحميد ، ولذلك نفضت الصحافة من راسي ، حتى ايام الكتلة الوطنية ، اذ اصدرنا مع بعض الاخوان جريدة « الايام » كما سيحييء .

واول مطبعة وصلت دمشق في ذلك العهد هي مطبعة الحكومة وكانت حجرية ، ويشرف عليها مصطفى افندي الشقلاي . وبعد مدة



استحضروا لها الحروف . وكان رئيس عمالها يحيى صدقي . ومن عمالها الذين اسسوا مطابع فيما بعد مصطفى شوري ، وتاج الدين الصلاحي وسعدي العمري ، وخليل الترك وقد جاء من الاستانة وهو الذي علم صناع دمشق صف الحروف .

واول مطبعة تجارية تأسست في دمشق مطبعة « الفيحاء » لصاحبها فهمي شوري والثانية مطبعة « الانصاف » لصاحبها صالح الجيلاتي . وقد قلب اسمها الى مطبعة الترقى بعد حريق سوق الحميدية سنة ١٩١٢ .

\*\*\*

**والدي يعرف سفرى :** في عام ١٩١٠ بعد ان اخذت الاحوال تستقر شيئاً فشيئاً راجعت والدي ، راجياً تنفيذ وعده بارسالي الى الاستانة لاتمام تحصيلي ، فتهرب طالبا التاجيل ، خوفاً منه علي ، بوصفي ولده الوحيد . وبهذه الفكرة قضى على اتمام تحصيلي في الاستانة .

وكان اكثر رفقائي الذين خرجوا قبلي او معي من المدرسة بل وبعدي ، قد سافروا الى الاستانة . فلما يئست من اقناع والدي بالموافقة على سفرى ، جعلت اضرب اخماساً بأسداس ، لاجساد طريقة تمكنني من اتمام تحصيلي ، خوفاً من ان يتقدم علي رفقائي الذين سافروا الى الاستانة ودخلوا مكاتبها العالية ، فلم يخطر لي اي حل ، وقتلت من اكمال دراستي ،

\*\*\*

**حياة القاهي :** للمحيط تأثير عظيم على الانسان ، خاصاً في سن المراهقة وفجر الشباب ، والبطالة هي مفتاح الفساد . ولما كانت دمشق في ايام شبابي خالية من كل ناد علمي او ادبي ، فني او رياضي ، كان من الطبيعي ان الجأ الى المجتمعات العامة والخاصة التي ساصف كل منها باختصار ، ليمشي معي القاريء في هذه الرحلة ويتحسس بما كنت اتحسس به .

بقيت مدة طويلة بلا عمل ، افضى بضع ساعات في ادارة جريدة « المقتبس » واخرج منها الى المقاهي ، وكانت مقاهي البلد قسمين : بلدي ومدني . فباللدي ما تزال منه بعض النماذج في ضواحي دمشق اثناية ، يجلس فيها الناس على الحصر والكراسي المربعة ، امام مناضد خشبية موازية للكراسي ، تقدم فيها النراجيل والقهوة المرة . هكذا يقطع الناس الساعات الطوال في لعب الضاما والدومينو والورق وانترد

اما المقاهي المدنية فمقاعدھا من الكراسي الخيزران - وفيھا حسب قيمة المقهى - ما يلزم من ادوات اللعب كاشطرنج والنرد، والبيلارد ، والبليزك وجميع انواع العاب الورق ، ويلعب فيها الناس مختلف انواع العاب المسر الخفيفة كالبوكر والباشكاو والوتوزبر وكان اقدم مقهى في دمشق مقهى « ديمتري » وهو يوناني، انتقل الى دمشق ، وفتح مقهى على الطرز الحديث ، فكان مجتمعا لارقي طبقة من طبقات الدمشقيين ، الذين لا يرتادون « اتناقات » ولا يفتحون دورهم للإستقبال .

وكان مقهى ديمتري في المرجه . وفي هذه الساحة نفسها فتح الخواجه ابو خليل الشماس مقهى منظما اسماه «زهرة دمشق» استحضر له ما يلزم من ادوات اللعب ، كما انه جعل في صدره مسرحا وعلى جوانبه الواجا ، فكان يستعمله في الليل مسرحا للتمثيل او الرقص والفناء ، وفي النهار للعب القمار ومختلف الالعاب .

وشارك ديمتري في عمله رجل يدعى « ابو فاضل الاويجي » ، وهو قبضاي معروف ، استقدمه ديمتري ليتقي به شر الرعاع ، وليحمي المحل من الفضوليين والمسترجلين .

وحدث مرة ان علق احدهم في صدر المقهى صورة للشاعر الفرنسي الكبير فكتور هيفو . وكان ذكره يومئذ قد وصل الى الشرق فلما راى ديمتري الصورة سأل ابا فاضل عنها . وكان ابو فاضل يجهل الاسم ، فتظاهر بالمعرفة ، واجاب: هذا شيخ « قهوجية » باريس!



هكذا اصبح فيكتور هيفو عند رواد القهوة شيخ القهوجية،  
وظلت هذه النكتة موضع التندر زمنا طويلا .

\*\*\*

قهوة كركوز : الى جانب المقاهي ، كنا نتردد على محلات «خيال



خيمة الظل ، اي لعبة « كركوز » ، كما تبدو في لوحة زيتية للرسم التركي ه. صايم

الظل « المعروف باسم « قهوة كركوز » ، وهي طليعة السينما  
اليوم . فكان مدير اللعبة يضع في صدر المقهى ستارا من قماش  
في وسطها قطعة مدورة من الخام الابيض ، في اسفلها رف من خشب



يوضع عليه سراج من فخار ينار بزيت الزيتون ، ويقف الرجل خلف الستارة التي يسمونها « الخيمة » ويمسك بيده عصي رفيعة يحرك رسوم اشخاص من جلد ، اذا وضعت على الشاشة ظهر خيالها مجسما من عكس النور عليها من الخلف . ثم يتكلم الرجل ويحرك الخيال ، فيبدو وكأنه يتكلم . وكان يبدل صوته حسب اصوات الرسوم .

كان لهذه اللعبة مكانة في القديم ، ولكنها تبدلت اليوم ، وادخلوا فيها بعض الكلمات البذيئة المستبحة ، وهي على وشك الانقراض . اما في زمننا فكان « الكركوز » تسلية فكهة ، يذهب اليها جميع الناس في رمضان ، والاولاد في بقية ليالي السنة . وكان ابطال الخيالات يتبدلون مع الفصول . اما اشخاص الكركوز الدائمة التي تظهر خيالاتها في كل فصل فهي « كركوز » و « عيواظ » ، وعليهما تركب اللعبة . ثم « المدلل » وهو اصغر خيال في الخيمة ، و « قريطم » الخيال الذي يمثل الرجل المصري بكلامه ، و « ابو اركيلة » قشقو بكري مصطفى ، ام كركوز « بالتصغير » . وللخيمة حمار يدعى « كرش » وقد نشأت هذه اللعبة في الصين وانتقلت الى الهند فالى بلاد فارس ثم الى بلاد العرب فبلاد الترك ثم الى البلاد الغربية .

وقد عني المستشرق الالماني جورج جاكوب ( ١٨٦٢ - ١٩٣٧م ) بدراسة هذه اللعبة ، فوقف على طبع اجزاء من كتاب « طيف الخيال » لابن دانيال .

وفي مكتبة المدرسة العلمانية الافرنسية في دمشق كتاب باللغة الالمانية يبحث عن هذه اللعبة ، وفيه من الرسوم القديمة طائفة غير قليلة ، بطبع ممتاز وورق جيد جدا .

ومن مشهوري رجال هذه الصنعة في زمننا خالد بن حبيب الذي كان والده حبيب من اعلم الناس بالموسيقى والانغام ، وهو استاذ المرحوم الشيخ ابو خليل القباني في علم الموسيقى .



أبى اليمين : « كركوز » ، والى اليسار « عيواظ » ، او حاج ابواد

وليت الحكومات تلتفت الى تنبيه اللاعبين ، واجبارهم على  
حذف بعض الجمل البذيئة التي يتكلمون بها ، وحذف بعض الخيالات  
كالخيال الذي يمثل شخصية طرمان .

## انا جندي

كانت الخدمة العسكرية في الزمن الحميدي اجبارية ، ومدتها سنتان . ونظرا لسعة المملكة كان الجنود يفرون بكثرة . وكان الناس يتذرعون بكل وسيلة للتهرب من الخدمة . على ان السلطة كانت تعاقب الفار بمضاعفة مدة الخدمة ، وابعاده الى اقطار نائية حتى يعسر عليه الرجوع الى بلده .

وكانت الفتن قائمة دائما ، والحكومة في شبه حرب مستمرة ان في اليمن ، او في بلاد الروم ايلي . وكان عدد القتلى كبيرا في القطع المرسله لتأديب العصاة؛ لذلك اصبح اسم الجندي مقارنا لاسم الكوليرا خصوصا في الولايات غير التركية . وكان كل قادر على تقديم البدل النقدي عن الخدمة . ٥ ليرة عثمانية ذهبية لا يتوانى عن دفعه مقابل الخلاص من الجيش .

ومع ان مدة الخدمة الفعلية سنتان ، فان اكثر الجنود كانوا يقيمون فيها الثلاث والاربع سنوات ، لانشغال الدولة في محاربات العصابات ، وتمديد الخدمة الموقته بين حين وحين .

وفي عام ١٩٠٨ جاءت قرعتي ، فباشرت بدفع البدل ، وتمت المعاملة في ١٩٠٩ فبقي علي ان اتمرن على حمل السلاح مدة ثلاثة اشهر ، عينوها لي في السنة التالية .

وفي الوقت المعين ، اي في منتصف سنة ١٩١٠ التحقت بالقطعة التي عينوها لي ، وهي: « بشونجي اوردوي همايون ، طقوزنجي فرقة ، اوتوز اوجنجي الاي ، اوجنجي طابور ، برنجي بلوك ، برنجي طاقم ، برنجي مانعة » .

وكان مركز الطابور في سراي العسكرية في دمشق ، وقائده البكباشي ( المقدم ) سعدي بك الكحالة ، وهو يقيم في باب السراي،





ايام الخدمة العسكرية سنة ١٩١٠ ، من اليمين : الرقيب عبدالله جاويش  
النفري فخري البارودي ، النفري ممدوح العابد .

امام مدخل سوق الحميدية الان تماما . وكان مركز السرية في البناية  
التي تقع خلف اللوازم ، ومحلها دار تقطة الحليب في شارع النصر اليوم  
دخلت على سعدي بك ، وهو صديق لوالدي ، وتربطنا به  
قراة بعيدة ، فاستقبلني استقبالا حسنا ، وكان من ابناء قرعتي

ممدوح العابد ، التحقت وياها في يوم واحد ، وقيدونا في قطعة واحدة لذلك ارسلنا سعدي بك معا ، برفقة احد الضباط الى قطعتنا ، فسلمنا الى « جاويش » الحظيرة التي قيدونا فيها ، حيث انضمنا الى بعض « البدلجية » امثالنا في « القاوش » ، اي المهجع .

كان الجندي المكلف يسمونه « معذبا » ، وكان القاوش يتسع لمائة جندي ، ارضه من التراب ، فيه « تتخيتة » للنوم والجلوس ولكل جندي فراش من خيش محشو بالتبن او شيشول الذرة ، و« جانطة » قمطر لوضع حاجات الجندي وكبوت ( يسمى باغمورلق ) وهو للارتداء والغطاء ولم يكن في الزمن الحميدي « بطانيات » للجنود بل كانوا يلتحفون الاربدة فقط ، ولكنهم بعد الحرية سلموا الجنود بطانيات .

وكان المهجع قليل النوافذ رائحته عفنة كريهة ، يزيد بكراتها رائحة اقدام الجنود عند عودتهم من التدريب حينما يقلعون احذيتهم ولم تكن النظافة معروفة .

وكان صفار الرتباء يتحكمون بالجنود تحكما غريبا . ولا يعرف هذا الا الذي عاناه بنفسه . وانه لمن الضروري في رأيي ان يتمرن طلاب المدرسة الحربية بضعة شهور في القطع العسكرية ، ليرى باعينهم كيف يعامل الرتباء معيتهم من الجنود ، لان الضابط الذي يدرس بنفسه ذلك يستطيع ان يحسن ادارة معيته .

مهما يكن من امر فان مدة التدريب القصيرة افادتني في الحرب العامة افادة حقيقية ، وقد تعلمت خلالها جميع الدروس ، خلافا لرفقائي الذين كانوا يفرون من التعليم .

لقد مارست جميع اعمال الجندي ، من استعمال البندقية الى حمل القروانة ، وحلقت شعري عند حلاقي الجنود الذين كانوا يجلسون في السنجقدار امام مدخل القلعة ، فكان المزين يسلخ الجنود كالماشية ، مقابل اجرة خمس بارات ، وتسمى « ام الخمسة » . وما زلت اذكر كيف كان المزين « يقيش » الموسى على حذائه !



وكان اكثر رفقائي تملصا من واجبات الجندية لاسباب صحية،  
السادة لظفي الحفار واخوه جمال الحفار ، حسن العاني ، عبدالقادر  
ابو نصوح الدوجي ، ممدوح العابد .

ويوم انهينا التعليم واخذت « التذكرة » ، يعني شهادة انهاء  
الخدمة ، اشتريت علبة من القصدير ، ذات شريط يدخله الجندي  
المسرح في رقبتة ، فتتدلى القصديرة من تحت ابطه ، ويضع فيها  
« التذكرة » . وكان من عادة الجنود المسرحين ان يشتروا بندقية  
صيد مزدوجة ، ويسيروا بها في الاسواق . وقد قمت بهذا الدور  
فحملت « جفتا » وقصديرة التذكرة لاري الناس اني انهيت خدمتي!  
اذكر انني دخلت الى حانوت في سوق الحميدية ، لاطلع صاحبه  
- وهو صديقي - على التذكرة، واخبره بخلاصي من الجندية وانتقالي  
الى صنف الرديف ( اي الاحتياطي ) . وكان يجلس عنده ضابط  
برتبة رئيس ، فنسيت ان القي عليه التحية العسكرية .

وبارك لي الحضور بالخلاص ، ولكن الضابط حدجني بنظرة  
قاسية وسألني : هل انهيت تعليمك ؟

فاجبت بالايجاب وعرضت عليه التذكرة ، فقال : ماذا تعلمت ؟  
قلت : جميع ما يلزم الجندي .

قال : وهل اتممت تعليمك حتى استحققت هذه التذكرة ؟  
فلما اجبت بالايجاب قال : انك لم تزل عجمي ( وهي كلمة تعني  
ان الجندي لم يزل غرا . والغر هو الجندي الحديث يطلق عليه هذا  
اللفظ الى ان يحسن التعليم ويقوم بوظائف الجندي تماما ) .  
سألته السبب ، فاجاب : ما هو اول درس اخذتموه ؟  
قلت : احترام الامرين .

قال : واين احترام الامر ( وتقال له « ما فوق » ) .  
فانتبهت انني لم اؤد له التحية العسكرية ، فنهضت واقفا  
في الحال ، واخذت الوضع العسكري ، وحييته معتذرا ، فضحك  
وقال : الان عرفت انك اخذت تذكرتك بحق . وصافحني . ومنذ  
ذلك اليوم لم تفتني فرصة للاعراب عن احترام الجميع ...



## دار العجزة والميتم

دخلت السنة ١٩١١ ، وانا ما زلت بلا عمل ، اعيش بلا غاية ،  
واقضي اوقاتي في السهرات الخاصة وفي المحلات العامة ، وكلما مر  
الزمن ، ازداد خلقي ضيقا ، مع ان الله خلقني حركة دائمة ، لا احب  
ان ابقى دقيقة واحدة في حالة البطالة .

ولما ضاق ذرعي بالبطالة خطر لي ان اؤلف جمعية خيرية تقوم  
بتأسيس دار عجزة وميتما للاطفال ، فكتبت سلسلة مقالات فسي  
جريدة « المقتبس » تحت عنوان « ابن من يحبون المشاريع الحيوية »  
عالجت فيه حالة المتسولين والعاجزين .

وكان في دمشق يومئذ جمعية للشحاذين ، لها شيخ حرفة  
وجاويش ودفاتر لضبط اسماء الشحاذين في دمشق من نساء  
ورجال . وكان الجميع يطعمون الشيخ ولا يخرج احدهم عن ارادته ،  
وكان للشيخ زبانية لتأديب المخالفين من زعران اهل هذه الحرفة .  
فاكثرت من الكتابة عن المتسولين المحترفين ، الذين يوجد بينهم اغنياء  
حقيقيون ، ورحت افصح اسرارهم في كتاباتي فقامت قيامتهم  
وجاءني شيخ الشحاذين مع بضعة اشخاص من « وجوه » هذه  
الحرفة يطلبون الي - او يأمروني امرا - بان اكف عن التعرض لهم ،  
والا قتلوني . وكان تهديدهم لي جديا ، فاقلمت عن الكتابة بهذا  
الموضوع وتركت المشروع ، لاني لم اجد فردا واحدا اتعاون معه على  
القيام به ، واخذت اطبع على حيطان دمشق - بواسطة لوحه من  
القصدير المحفور - عبارة « تعلم يا فتى فالجهل عار » . واني اذكر  
جيذا انني لم ادع حائطا من حيطان الشوارع والحارات ، حتى  
« الدخلات » الصغيرة في اي محلة من محلات دمشق ، الا وكتبت  
عليها هذه الجملة .

وفي عام ١٩١٩ ، بعد الحرب عاودت الكرة في هذا البحث في  
جريدة « المقتبس » فكتبت مقالات متسلسلة تحت العنوان السابق ،  
ولكن ذلك لم يفدني ، ولم اتمكن من تأسيس غرفة واحدة ، فعدلت  
ويقيت انتظر فرصة اخرى ، حتى سنحت في سنة ١٩٤٠ ،  
فأعدت الكرة ، وتأسست دار العجزة واليتم كما سيجيء ذكره .

## زواجي

كانت والدتي وجدتي لوالدي قد فاتحتاني سنة ١٩١٠ بالزواج  
فرفضت البحث في ذلك وقلت أنني لن أتزوج قبل أتمام تحصيلي .  
ثم اعادت الكرة بعد ذلك ببضعة اشهر ، فاصرت على الرفض ،  
ولكنهما ظلتا مع ذلك تبحثان عن فتاة مناسبة لي .

وفي سنة ١٩١١ عادتا الى ملاحظتي ، وقالتا : اذا وجدنا لك  
فتاة صالحة خطبناها وسيجري « كتب الكتاب » ، فاذا ذهبت الى  
التحصيل تبقى الفتاة بانتظارك ، فيجري العرس !



خال والدي خليل افندي البكري  
الذي كان له علاقة بمشكلة زواجي

وهكذا اقنعتاني ، فطلبت  
اليهما في اول الشروط ان تكون  
صاحبة اخلاق حسنة ، وان  
تعرف القراءة والكتابة بصورة  
جيدة ! وتتقن ادارة البيت .

وهكذا راح اهلي يخطبون  
لي . في ذلك العهد لم يكن  
الخطيب يرى خطيبته ، بل  
يكتفي بوصف قريباته لها ،  
فيقلن له : عيونها كذا ، شعرها  
كذا ، وجهها كذا ، طولها كذا .  
وعلى الوصف يتوكل الرجل  
على الله ويعقد العقد ، وسعدك  
يا ابو السعود !

وعلى هذه الطريقة جعلت  
جدتي ووالدتي تصفان لي البنات



اللواتي خطبتان عن لي الى ان سمعت من ابنة خالي بوصف قرينتي  
الحالية ، كريمة المرحوم احمد افندي الدالاتي ، فطلبت الي والدتي  
خطبتها فابت جدتي ، يدعوى ان خال والدي خليل افندي البكري  
خطبها لاحد اولاده ، فتمنع ابوها ولذلك لا يمكن لجدتي ان تقدم على  
هذا العمل .

اصررت على طلبي . وكان والدي صديقا للمرحوم احمد افندي  
الدالاتي ، ولم يكن قد بقي عنده غير فتاة واحدة عزباء ، هي اصغر  
اولاده . وقد طلبها الكثيرون من اهل دمشق فرفض والدها زواجها  
ولما لمس والدي اصراري حار بالامر ، وقال : لا اريد ان تقوم  
بيني وبين احمد افندي الدالاتي برودة او عداوة ، ولذلك فاني لن  
اطلب منه ابنته خوفا من الرفض ، فاذا رفض فستكون بيننا عداوة  
ابدية لا سمح الله !

بقيت القضية بيننا : جدتي في عناد ، ووالدي على الحياد ، وانا  
في اصراري على رأي بازدياد ، الى ان علم بالامر محمد افندي  
المهاني - صديقي وابن عمه الفتاة - فتدخل في الامر وسعى مع  
شقيق الفتاة منير الدالاتي ، لاقناع والدته منير بقبول هذه الخطبة .  
وعلمت ايضا من المهاني ان الدالاتي افندي راض عني منذ سمع  
خطابي في مكتب عنبر عند اعلان الحرية . وفهمت اننا اذا خطبنا  
الفتاة فانه لن يتأخر . وعلى الاثر تقدم باسم والدي احد اصدقاء  
الطرفين سعيد افندي العسلي ، وخطب لي الفتاة من ايها ، فوعده  
بالجواب بعد ثلاثة ايام ليستخبر الله .

وذهبت الي قصبة دوما في اثناء هذه المدة ، وفي اليوم المعين  
ذهب العسلي لآخذ الجواب ، فاذا به بالموافقة . وفي الحال دعوا  
والدي حالا ، واحضروا احد المشايخ وعقدوا العقد وانا انتظر في  
دوما . واذا «بصراحتي ليموناضة» ، اي شراب الليمون ، تصلانني  
الي دوما ، في صينية من الفضة محاطة بقطعة من التول الحريري ،  
مربوطة بشريطة حريرية خضراء ، دليلا على عقد العقد .

وقبل وصولهما الى الدار، جاءني المبشر يركض يطلب مني بشارته. ولا تسأل عن الفرح الذي اصابني فقد اصبحت زوجا بحمد الله ، ومع ذلك لا اعرف الزوج التي اختاروها لي ، ولا تمكنت من رؤيتها الا يوم عرسى كما سيحيى .

ومن الغريب اني قبلت بالزواج وانا دون عمل ، وليس لي وارد يكفيني وحدى ، فضلا عن الزوجة . ومن السخف ان يتزوج المرؤ اذا لم يكن ذا صنعة يكفيه واردها لفتح بيت . ومن العار ان يتكفل الولد على ثروة ابيه ، مهما كان غنيا فيتزوج ، وهو مفلس . ولذا فاني انصح كل شاب الا يتزوج الا اذا كان له من الوارد ما يكفيه وزوجه ، والاسرة التي ستتشكل منهما .

## المجتمعات الخاصة

ما دام حديثي قد تناول المقاهي والمحلات العامة في عهدشبابي فانتني سأكملة الان بحديث عن المجتمعات الخاصة . فقد كان للدمشقيين مجتمعات خاصة ، شتاء في الدور وصحوا في البساتين ، وكانوا يسمون الدور التي يجتمعون فيها « قناق » وهي كلمة تركية اصلها « قوناق » يعني الدار ، اخذها الدمشقيون عن الاتراك واستعملوها « للبراني » اي لمحل اجتماع الرجال .

وكان أكثر القناقات يبعد عشرات الامتار عن دار سكن صاحب القناق ، فيختلف اليها اصداقاهم الخصوصيون وزواره ، ويعقدون « الادوار » وقد اصطالحوا على اطلاق اسم « الدور » على اجتماع « شلة » من الرفاق من طبقة واحدة ، فيقضون سهراتهم في احد القناقات او البيوت . وكان لكل فرد « دور » معين ، فتكون الادوار اما يومية او اسبوعية . فاذا كانت يومية يكون الدور الاول عند زيد في اليوم الفلاني ، وفي اليوم الثاني عند عمرو والثالث عند بكر ، الى ان ينتهي الدور عند اخر فرد من افراد الشلة ، ويعود من جديد .

وكانت اسباب التسلية في الادوار بسيطة ، يدور اكثرها على المقرعة ، كلعبة « عبك » ، وهي ان يخبىء احدهم خاتما مثلا او حاجة صغيرة في « عب » احد الرفاق ، اذ يدخل يده في جيوب الحاضرين ، ويترك الحاجة في جيب من شاء ، ثم يسأل الاول « ابن الحاجة ؟ » فيقول في جيب فلان ، فاذا اخطأ يقرعه مقرعة على كفه ، ثم يسأل الثاني الخ . ومن يحزر يقوم ويستلم المقرعة مكانه . وهكذا يقضي معظم الوقت بضرب المقارع !

**لعبة السلطنة :** ومن العاب التسلية لعبة السلطنة ، فيقف احدهم ويده المقرعة ، ويعطي كل فرد من الافراد اسما من اسماء



البقول التي يعمل منها السلطة ، وتسمى هذه البقول « زرزوات »  
ثم يقول : « اني اريد ان اعمل صحنا من السلطة ، وعندى كل شيء  
من الزرزوات الا البقدونس » .

ويكون الجميع منتبهين فيقول من تسمى بالبقدونس : « بقدونس  
في ولكن ملح ما في » ، فيقول من تسمى بالملح : « ملح في ، ولكن كزبرة  
ما في » . وهكذا فالذي ينتبه ويجيب بالسرعة دون توقف فقد  
من ضرب المقرعة . واذا تأخر ضربه الواقف مقرعة على يده ، وهكذا  
يمضي وقت طويل في ضرب المقارع .

**لعبة المروحة :** هذه اللعبة لعبة ضرب ايضا ولكن ضربها  
صنع بالكف على ظاهر الكف ، لا ضرب مقارع .

يقف صف من اللاعبين بحسب اتساع المكان ، ويقف خلف  
الصف صف اخر بعدد افراد الصف الاول .

يضع افراد الصف الاول ايديهم على رقابهم مشبكة الاصابع  
بحيث تلتصق الكفوف برقبة اللاعب ، ويهز افراد الصف الثاني  
ايديهم المرفوعة هز المراوح ، وتبقى اوجه الصف الامامي متجهة  
الى الامام . ثم يبدأ اللعب بان يصفع لاعب من الصف الثاني رفيقا  
واقفا في الصف الاول . وعندئذ يلتفت المضروب ليحزر اليد الضاربة  
فان اخطا عاود الصفع ، وان حزر انتقل الصف الاول مكان الصف  
الثاني ، وهكذا حتى يمضي رده من الزمن والصف قائم !

هكذا كان الوقت يسير والعبا ضرب و صفع . وكم كنت احاول  
ان اغير شيئا من اساليب التسلية بقراءة شيء من كتب التاريخ وكتب  
الادب ذات الفائدة ، فلا انجح الا نادرا . وما تزال الى اليوم الالعب  
عند بعض طبقات الناس تسير على هذا الشكل ، فنحن نهزل ونضرب ،  
وغيرنا يشيد ويجد ...

**الطسقة :** قلنا ان الادوار كانت يومية او اسبوعية ، ووصفنا اليومية كما مر . اما الاسبوعية فتقضي بان يبقى الدور عندزيد طوال الاسبوع . وفي اخر يوم من اسبوع الدور يقدم صاحبه الى رفاقه ما تيسر من الطعام الخفيف ، كالخبز والشاي وبعض الحلوى والفواكه ، على ان بعضهم ، خاصة من حديثي النعمة ، كانوا يبالفون في تقديم الاشكال والالوان ، من اعمر الموائد . وكم جلبت هذه العادة الشجار بين الاصدقاء ، اذ يريد كل منهم ان يقدم طعاما احسن من غيره ، كأنها مباريات في الاكل . وليتهم كانوا يتبارون في تقديم المبرات الى المؤسسات العامة كالمستشفيات والمياتم ودور العجزة وغير ذلك ولكن ما العمل ويلادنا ويا للأسف لم تعند حتى الان على القيام بمثل هذه الاعمال ؟ وكم رأينا وارثا غنيا يصرف الليرات بالالوف على اشياء تافهة ، ويضن على وطنه بليرة سوري لاي مشروع خيري او اجتماعي فلا حول ولا قوة الا بالله !



**قناق البكري :** من القناقات المشهورة قناق آل البكري ، وكانوا ممثلين في شبان ، ذوي اعمار متقاربة ، هم رشدي افندي وانور افندي ومدحت افندي ، وكلهم اولاد خليل افندي البكري . كانوا مشهورين بالفتوة ، ولهم ولع بالصيد والقنص ولعب الشطرنج وكش الحمام . ولم يكن قناقهم يخلو ليلة من الزوار . ولا بأس من ذكر شيء عن سهراتهم ليطلع القارئ على لون من حياتنا في ذلك العصر .

كانت السهرة تبدأ من الساعة السابعة مساء تقريبا . وكلما جاء احد من الرفاق ، قام له الجميع . وبعد ان تقدم اليه القهوة المرة طبعا - ، يشترك في الحديث مع الحضور ، وهو يدور عادة حول الصيد ، وتربية الحمام والشطرنج ، فيروي كل واحد اطراف ما جرى له من الحوادث .



**تربية الحمام :** كانت تربية الحمام تشكل صنعة قائمة بذاتها ، لم تزل شائعة الى اليوم على ايدي « الحميماتيّة » ، الذين يجمعون انواعا من طيور الحمام ، ويسكنونها اماكن خاصة في اعالي الدور ، في محل يسمى « حضير » ، وهو بناء منفرد كالغرفة ، داخله مربعات خشبية تغطى الحيطان ، فيوضع في كل مربع زوج من الحمام ، وكل نوع له اسم خاص ، فمنها البربريسى والاخضر ، والابلق ، والازرق ، والابيض والمرقع ، والطبي ، والبغدادي ، والقلاب . والابلق منه ابلق بحلسه ، وابلق بخضرة ، وغير ذلك من الانواع .

هذه الطيور لها ساعات معينة لاطعامها ولاخراجها من الحضير ، ولا يد لكل حضير من باحة سماوية تطير من عليها الطيور وتعود اليها . والحميماتيّة قسمان : محترف وغاو ، فالمحترف يكون على الاكثر من اصحاب الزجولة ، يجمع اقوى اصناف الطيور وارخصها ثمنا ويدر بها على الطيران ، ولهم في تدریبها اصول وعادات ساكتب فيها كتابا خاصا اذا ساعدني الوقت .

والحميماتيّة آلات للصيد من جبال المرس ، منها طارات بمرس تسمى شبكة ، تشبه بظفر جبالها شبكة صيد السمك . ومنها آلة ثابتة تسمى « سقلب » هي الاخرى من نوع الشبك ، ولكنها مثبتة بعصي رفيعة على حافة ظهر الحضير ، فعندما تهبط الطيور العائدة من التمرين ، يقلب الرجل السقلب عليها اذا كان بينها طير او طيور غريبة ، فيصيدها ويبيعهها ، او يعيدها الى اصحابها مقابل مبلغ من المال يتفق عليه بينهما ويسمى هذا المبلغ « الفكك » ، وقد يبلغ ١٠ ليرات ذهبا . وهناك محترفون يعيشون من اقتناص حمامات سواهم ، ثم يرجعونها مقابل الفكك !

وكثيرا ما كنت احضر الى حضير اولاد خالي ، واقضي الساعات بالفرجة على « كش الكشه » ، واختلاط الكشات في السماء ،



واهتمام اصحابها بابعاد طيورهم عن سماء الحضر . من ذلك ان صاحب الطيور المدربة ، اذا كان ساكنا في محلة ابي جرش فسي الصالحية مثلا ، يستطيع ارسال كشة « طيوره » الى سماء الميدان الفوفاني ، او الى سماء ياب شرقي . والكشة هو اسم مجموعة الطيور التي يطلقها صاحبها ، سواء اكان عددها خمسة ام خمسين .

والحميمية المتخصصين معرفة تامة باشكال الطيور ، فاذا اراد احدهم خلط كشته بكشة غيره ، يصفر للطيور فتطير وتحلق فوق داره ، ويحمل بيده « كشاشة » وهي عصا ، يزيد طولها عن الثلاثة او الاربعة امتار ، في راسها شلة من الخرق ، يحركها للطيور فتعرف من حركتها الاتجاه الذي يراد ان تتبعه فتسير فيه . واذا عاكسته ، يضع الرجل في « المداحة او الصبان » قشرة ليمونة معصورة ويضربها فيها . وكثيرا ما يصيب طائرا فيرميه ، وبهذا تذل الكشة وتتجه الى الناحية التي يريدتها .

وعندما تصل الكشة الى كشة اخرى طائرة ، اي الى الكشة المرسله اليها ، تختلط الطيور وتدور مجتمعة طول المدة التي يريدتها صاحبها .

والحميماتي يعرف من مكانه انواع الطيور المختلطة ، وقوة افرادها . ومتى رأى ضعف الطير الذي يريد صيده ، اخرج طيرة اثنى من الحضر ، وقبض عليها من تحت جناحها وجعل يهز بها ، وهي ترفرف بجناحها ، الى ان يرى طيوره اتجهت نحوه وقربت من داره ، فيلقي الطيرة امام باب الحضر ويختفي في مكان لا يظهر منه . فتتهبط الطيور ، وبينها الطير الغريب الذي اصطحبها . وبمهارة زائدة يرمى عليه السقلب او الطارة ويصيده . ولا تسل عن الفرخ الذي يصيبه عندما يصيد طيرا ثمينا !

وكان رزق عشرات الحميمائية في زمننا على الله ، وعلى صالح بك العظم ، الذي كان له غرام زائد في هذه اللعبة . ولا يستطيع ان احصى الاموال التي دفعها فكاكا عن طيور ، ولكن بإمكانني ان اقول انه دفع مدة غوايته ما يزيد عن العشرة الاف دينار ذهبيا . وكان حديثه بين الحميمائية لا ينقطع مدة حياته ، وما يزالون والى اليوم يتندرون باحاديثه .



**الشطرنج :** قلت ان الشطرنج كان موضوع الحديث في القناقات . وبعد ان يشبع الحضور من الكلام عنه يحضرون الرقع ويتبارى اللاعبون ، كل طبقة مع الطبقة المعادلة لها .

وكان من مشاهير اللاعبين في دمشق في ذلك الزمن الخصي سعيد افندي ، وهو احد عبيد السلطان عبد العزيز ، نفاه السلطان عبد الحميد مع من نفى من رجال معية عمه . ومن الدمشقيين المشهورين بهذه اللعبة محمود افندي حمزه مفتي دمشق الشهير ، والسيد توفيق ، والسيد رسمي اولاد الميداني وكان يعجبني في هذه اللعبة التي تعلمتها ان اللاعبين كانوا لا يلعبون على رهن ، اي لا يقامرون بها ، بل كانوا يلعبون على انواع من الفاكهة ، يأكلونها في اخر السهرة .

وهكذا كانت تقضي ليالي القناقات في الالعاب ، وفي النرد والورق . ومن الذ العاب الورق لعبة « ابو الفول » ، وهو اخراج جميع الصور ، وترك صورة واحدة بين الورق ، وتفريقه على الحاضرين ، فيصيب اللاعب بضعة اوراق يزواج بينها ، ويرمي الأزواج . وما زاد يسحب الواحد من الثاني ، بالدور ليزوجوا الاوراق المفردة . ومن بقى بيده الصورة يغنون له بقولهم « بو الفول عليك فطور ! » ويصفقون ، وهكذا تنتهي السهرة !



## مه الوانه الحياة في دمشق

**النور في الشوارع :** قبل تمديد الكهرباء في دمشق ، كانت الشوارع تنار بمصابيح البترول ، وكان اكثرها يطفأ ، لان الاولاد يضربون الواح البلور بالحصى فيكسرونها ، ويدخل الهواء فيطفئ النور . وكان الناس يسيرون وفي ايديهم مصابيح من ورق ، يضعون فيها الشموع تنير لهم الطريق ، تسمى « فنار » . وقد مر وقت منعت فيه الحكومة سير الناس بعد صلاة العشاء بدون مصابيح ومن الطرائف ان صالح بك العظم ، وهو من اعظم ابطال دمشق ، كان في شبابه مغرماً باحدى اليهوديات . وقد سهر عندها في احدى الليالي ، يرافقه السيد سليم الميداني ، وهو من نوادر زمانه .

وبعد منتصف الليل بساعتين او ثلاث ، خرجا من حارة اليهود عائدين . وبينما كانا يجتازان محلة ماذنة الشحم ، صادفا دورية البوليس ، تقدم رئيسها ورفع مصباحه ليرى المارين بلا مصباح ، فلما تميز صالح بك ، وهو يترنح ، قال له : يا سيدي انت ابن الحكومة ، وانتم تضعون القوانين ، فلماذا تخالفها ؟

قال : باي شيء اخالفها ؟

قال : نك تسير بلا مصباح ، وهذا لا يجوز .

قال : مصباحي معي ، اذهب في طريقك ! وسأله الشرطي عن مصباحه ، فادار له ظهره . ورفع ذيل سترته ، وقال : هذا مصباحي !

ومشى صالح بك ، وخلفه السيد سليم ، فقال له المفوض : وانت يا رجل ، اين مصباحك ؟

قال : انا سائر على ضوء البك !

فضحك رجال الدورية وذهب كل واحد في سبيله !



**التشليح في الحارات :** كان الامن شبه مفقود في تلك الايام وكثيرا ما كان اللصوص يسلبون من يستفردونه في المحلات النائية من البلدة . ولم يكن في دمشق في الليل محل امين، الا المواقع الممتدة من موقع السنائية الى باب الجابية ، فالسنجقدار ، فساحة المرجة . اما بقية الاحياء فكان المار فيها ، خصوصا بعد منتصف الليل ، يحتاج الى حراس وخفراء .

مر شرطي يهودي مرة في العمارة ، فصادف ابا فياض البغل - وهو احد الفتيان المشهورين بالرجولة - يعربد وفي يده خنجر ، يعترض به المارة ويضربهم بقبضة الخنجر على رؤوسهم ، ولا يجرؤ احد على معارضته . فلما رأى الشرطي اليهودي تقدم اليه وضربه على راسه بالقبضة ضربة قوية طفر منها الدم ، وغسل وجهه ورداءه . ولما رجع الشرطي الى داره ، وراته زوجته ، ولولت وصاحت: **ويه . . . شو صابك ؟**

قال : البغل ضربني !

قالت : ويه عليك ، شو فوتك عالخان ؟

قال : ولك ليس الذي ضربني بغل حيوان ، بل هو بغل انسان!

فقالت له : اذن اذهب واشلح بدلة السلطان ما دمت لا تقدر على حمايتها !

\* \* \*

**القبضيات :** كلمة مأخوذة عن التركية ، معناها الخال الغليظ « قبادايي » ، وتطلق عندنا على كل موصوف بالرجولة ، او « زكرت » وفي بغداد يسمونه « ابو جاسملر » وفي حلب يسمونه الحاج حمده . وهناك رجال يدعون هذه الصفة زورا ، وهم ممن الزعران المعروفين بالك « بابا حسن » .

ويسيطر القضايات عادة على المحلة، ويضعون انفسهم في خدمة وجهاء المحلة من باشاوات وبكوات وافندية .

**تضامن اهل دمشق :** كان معروفًا عن اهل دمشق في ذلك الحين انهم متحدون ، يطيعون زعماءهم ، وينتصر بعضهم لبعض ضد الغريب ، عاملين بالحديث : « انصر خالك ظالما او مظلوما » ، بعكس هذه الايام التي عزت فيها الصداقة والوفاء . واضرب على ذلك المثل التالي :

حدثني الشيخ حسن النحاس قال : في ايام راشد ناشد باشا ، اختلف المفتي وتقيب الاشراف في دمشق . وكان المفتي من العلماء المشهورين وتقيب الاشراف لا يحمل من العلم الا العمامة الخضراء . وكان سبب الخصام استهتار التقيب بمنصبه وبواجباته الدينية .

وكان مدير الامن العام يسمى « الای بکسی » ، وهو اكبر ضابط في الجاندرمة ، اي الدرك . فوقع بينه وبين التقيب نزاع شديد ، وتربص بالتقيب الدوائر حتى اخبروه انه في بستان من بساتين دمشق مع خلية يحبها ، فانتهاز الفرصة وذهب الى البستان بقوة كبيرة ، واعتقل التقيب وخليته وعاد بهما الى السجن .

وذهب احد المنافقين الى المفتي ليبشره بسجن عدوه ، فلما سمع الخبر نهر الرجل وكذبه امام الحاضرين ، وارسل خلف السجن حالا ، ولما جاء قال : ستطك سيدة بعد قليل ، فضعها حالا مكان السجينة التي ارسلوها اليك اليوم . واياك ان يفهم احد ، واذا فهت بكلمة فليس لك مقام في هذه البلدة !

ووعد السجن بتنفيذ الامر ، لان مقام المفتي كان اعظم مقام في الدولة ، يعني شيخ الاسلام في العاصمة والمفتي في عاصمة الولاية .

ثم ارسل المفتي دون تمهل رسولا دعما زوجة النقيب، فحضرت  
سريعا، ودخلت الى الحرم فافهمتها زوجة المفتي القضية، وارسلوها  
الى السجن، ووضعوها محل الخليفة المسجونة .

وبعد ان اطمأن المفتي للعمل ارسل واستدعى جميع وجهاء  
الشام، وكان بينهم الشيخ عبد الله الحلبي شيخ الشام واعلم  
علمائها في زمنه، واخبرهم ان العداوة بين النقيب وقائد الدرك  
توترت الى درجة تجاسر فيها « الالاي بكى » على سجن النقيب  
وزوجه : هذا في سجن الرجال وهي في سجن النساء، وان الحال  
مع هؤلاء الحكام لم يعد يطاق، فثار ثائر القوم، وتشاوروا ماذا  
يعملون فقر القرار بعد المشاورة على مراجعة الوالي لاجراء النقيب،  
ومجازاة المفتري .

وهكذا ذهب كل واحد الى محلته و « دبوا الصوت »، واوعزوا  
الى القبضيات ان يهيئوا انفسهم وجماعتهم، وان ينتظروا الاوامر  
التي تصدر عن المفتي، فان سمع الوالي شكواهم واخرج المساجين  
وجازى المفتري كان به، والا فعليهم ان يهجموا على السجن  
ويخرجوا النقيب .

وبالفعل، ركب العلماء والزعماء دوابهم وذهبوا الى دار  
الوالي، وكان ذلك عند منتصف الليل . وكانت دار الوالي واقعة في  
البنيات المجاورة، لجسر الصالحية، التي فتحوا فيها شارع الرئيس  
والشارع الجديد . ولما وصلوا الى دار الوالي ايقظه « الحرم اغاسى »  
واعلمه بمجيء زعماء دمشق، فخرج مضطربا، فقدموا له مفاتيح  
الدور واوراق « الطابور »، يعني اوراق التملك، وقالوا : نحن



لا تبقى في هذه البلاد عرضة للظلم والجور !

سأل عن السبب ، فاخبروه ان « الالاي بكى » سجن النقيب وزوجه ، وانهم لا يرضون الا باخراج السجين وطرده المفترى من سلك الدرك وسجنه مكبلا بالحديد في قلعة بعيدة ، ليلقى جزاء الافتراء فهذا روعهم وطمانهم ، وامر باستحضار الالاي بكى ، فجاء مسرعا . ولما رأى هذا الجمع حار في امره ، وسأله الوالي بحضور الجميع : لماذا سجنتم النقيب وزوجته ؟

قال : يا افندينا ( وهذه كلمة تطلق على السلطان وعلى وكيله في الولايات والايالات ) : اني وجدته بحال مريبة مع مومس في احد البساتين ، فاودعتها السجن الى ان يجري التحقيق معهما !

فقال المفتي : يا دولة الباشا ان المرأة التي كانت معه هي زوجة النقيب لا خليلته ، وهي بالسجن الان ، فاذا تحقق لكم هذا ارجو اصدار امركم باطلاق سراحهما ومجازاة المفترى .

فارسل الوالي زوجته مع بعض الحراس الى سجن النساء ، وكان في باب البريد ، فاخرجت المسجونة وحضرت بها الى دار الوالي واخبرته ان المسجونة هي زوجة النقيب ، فامر حالا باطلاق زوجها ، وقطع خرج الالاي بكى وامر بسجنه مكبلا واعتذر عن هذه الهفوة .

وفي اليوم الثاني جاء النقيب الى دار المفتي للشكر ، فلم يقبله وقال له ان العداوة التي بيننا لم تزل هي هي !

وبعد بضعة ايام ركب المفتي بغلته وسار الى دار النقيب ، ولما درى هذا ان المفتي في طريقه الى داره ركض حافيا لاستقباله ، فاخلى المفتي بالنقيب وقال : ان عداوتنا لم تزل باقية واني اتيت اليك لنذهب الى الوالي ونستعطفه حتى يطلق سراح المظلوم الذي سجنه لاجلك يا ظالم !

وسارا سوية الى السراي ، ودخلا على الوالي ، فاستقبلهما بالحفاوة، فقال المفتي : يا مولانا ان اصل النقيب اجبره على الحضور بين ايديكم ليطلب منكم العفو عن الالاي بكى ، وقد اخبرني انه منذ ذلك اليوم الى اليوم لم يغمض له جفن من تأثره ، وانه عفا عن هذا الذنب ، وهو يطلب منكم العفو واطلاق سراحه وارجاعه الى رتبته ، على ان يكون مقامه في غير هذه البلدة .

فائى الوالي على علو النفس و « هذه الاصاله والنجابة » وامر باطلاق سراحه وارسله بوظيفته الى مدينة حماه .

وهكذا بقي راشد ناشد باشا طوال مدة ولايته لا يرى الا تكاتف الزعماء والعلماء وكلمتهم واحدة ، حتى انه لما خرج من الشام وخرج الناس لوداعه عند جسر « توره » بكى ، فسأله احدهم : لم تبكي يا افندينا ، اعلى فراق دمشق ؟

قال : لا بكيت لانى طول مدة اقامتي فيها لم اقدر ان افرق بين اثنين من اهلها !

اما المفتي فقد اوعز الى النقيب بالاستقالة سترًا لطابقه وخوفا من سقوط الاعتبار لمقام نقابة الاشراف ، فاستقال النقيب ، وكانت استقالته سببا للصلح بينه وبين المفتي .

من هذه القصة نعرف مقدار تماسك الدمشقيين فى ذلك الزمان اما اليوم فما لى ان اقول الا : لا حول ولا قوة الا بالله ...

## ليالى الانس

كان والدي رحمه الله من اصحاب القناقات المشهورة ، وعنده كل ليلة كيف وطرب . ومنذ وعيت على الدنيا وانا اسمع الغناء في قناق والدي ، اذ كانت له تقريبا جوقة خاصة ، افرادها من ابرع الموسيقيين في ذلك العصر .

وكانت سهرات والدي العامرة ليلية تقريبا ، وجوقته مركبة من عمر الجراح القانوني ومن اخيه ابراهيم العواد ، واحيانا ياتي معهما اخوهما الثالث محمد الجراح العازف الوحيد على الكمان في عصره .

ولما اختل ابراهيم العواد استبدله والدي ببديع محسن ، وكان من اجمل شبان عصره . اما المغنون فكانوا الشيخ عبد الله ابو حرب والشيخ رشيد عرفه ، وهما من المداومين ليليا . وكان الغناء القديم كله موشحات وادوار وقصائد على الوحدة .

ولكثرة سماعي لهذه الاغاني في كل ليلة تولدت عندي ملكة السماع . وكنت اصلا اميل الى الموسيقى . ولعلي ورثت ذلك عن جدي لوالدتي امين العلمي ، الذي كان من الموهوبين بصوت حسن مع عزف لطيف على الناي والفلوت وكان جدي حتى وفاته من زبونات القناق الدائمين ، وكذلك كمال افندي المهائني الذي لم يترك والدي منذ شبابه حتى فرق بينهما الموت ، فكانا يجتمعان يوميا في السفر والحضر ، في الليل والنهار . وقل ان ترى صداقة كصداقتهم التي كانت مضرب المثل في دمشق .

وكان من هذه الشلة السيد رشيد الحناوي ، من وجوه التجار ومن ذوي الذكاء النادر . وكانت السهرات تضم اطراف لندماء المشهورين في دمشق ، كالشبو عن وعبيده الحمامي وكزاير ،



وغيرهم ممن خصهم الله بخفة الروح وسرعة النكتة ، كما ان اكثر الموسيقيين كانوا كذلك من اخف الندماء روحا واسرعهم نكتة . وعندما يجتمع هؤلاء وهؤلاء معا في ليلة آتس ، لا يستطيع الانسان مهما كان منقبضا ، الا ان يتبدل ويساهم معهم في النكات . وساضع كتابا عن ظرفاء دمشق في القرن التاسع عشر اذا مد الله بالعمر ، اذكر فيه كل نديم ظريف مع شيء من نوادره ، كحسن حمد الله وسليم شاکر وبكران وابو علي انبوبا وغيرهم .

وكان لوالدي في قصبته دوما ندماء ظرفاء لا يقلون خفة عن ظرفاء دمشق المذكورين . كان والدي يقضي نهاره في العمل ويعود مساء الى دمشق . فاذا قضى عليه المبيت في دوما ، كان يأتيه الندماء، ومنهم مصطفى صلاح، عبد الحميد شاکر، مصطفى حنون، عبد الله الحلاج وغيرهم . ومن اطرف الندماء في ذلك العصر عبدالنافع ابو غنيم، وكان يجمع والدي في الاعياد والمواسم بين ظرفاء دمشق وظرفاء دوما فيقضون ساعات فريدة .

ومن مشاهير المغنين في دوما آنذاك عبد المولى، وكان يعني على طريقة القبضيات ، مواويل بغدادية وشروقية وعتابا ، يصحبه على الناي سعدو حنون . ومن لطائف ما وقع من النكات ، نكتة عملها ابو غنيم عبد النافع ، ما زال الناس يتندرون بها الى اليوم وهي :

كان زاهد افندي الالشي قاضيا في دوما ، وهو من المشهورين بخفة الروح . جاءه محمد عبد النافع ابو غنيم يوما بعرضحال يقول فيها ان الله سبحانه وتعالى خلقه بغير ارادته ، ودفع به الى خضم هذا العالم دون ان يستشير ، وحكم عليه بقدرته ان يتزوج ففعل ، وانعم عليه باولاد من ذكور واثاث ما يزيد عددهم عن تلامذة مدرسة ابتدائية ، ومن كثرتهم افلس ، فكانوا سببا لمصيبته ، ولذلك فانه يرجو من حضرة القاضي جلب المدعى عليه ليقاضيه ويساله لماذا خلقه ، ولماذا قطع رزقه ، حتى انه اوعز الى اصحاب الحوانيت من

التجار ان لا يسلفوه حاجة ، مهما كان ثمنها . وهو يطلب الانصاف  
من القاضى لانه لم يعد يحتمل مرارة هذه الحياة !

اخذ القاضى المعروض وذهب الى القائم مقام ، وكان الامير امين  
ارسلان على ما اظن ، فاطلعه على القصة ، وقال له : سأنظر فسي  
قضيته بعد اتمام القضايا التي بين يدي اليوم ، واطلب اليك ان  
تحضر الجلسة .

وهكذا كان ، فعقد القاضى جلسة خاصة ، ومنع حضورها الا  
على كبار موظفي الدولة . ثم طلب المدعى ، وهو يتكلف الجهد ،  
وسأله عن دعواه ، وطلب اليه ان يحضر المدعى عليه ، فاجابه : انه  
حاضر ناظر في كل مكان !

ثم قال : ان قصتي بيدك مكتوبة !

فامر ان يرويه ثانية ، فاعاد شكواه ، واصفا البؤس الذي  
يحيط باسرته من كثرة افرادها ، فقال له القاضى : منذ متى هذه  
العداوة بينكما ؟

قال المدعى : منذ مدة طويلة !

سأله القاضى : منذ تلك المدة الى اليوم كم قاض  
جاء الى دوما ؟  
قال : كثيرون !

فقال القاضى : لماذا لم تتقدم اليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك  
فسي دعواك ؟

فاجاب : ان الدين تقدموك لم يكونوا مثلك اصحاب جراحة  
ومتانة ، والجميع كانوا يخافونه ، ولهذا لم اقدم لاحد شكوي .  
ولما رايتك انك الوحيد الذي لا يخافه ، اتيتك بشكواي طالبا  
منك الانصاف !

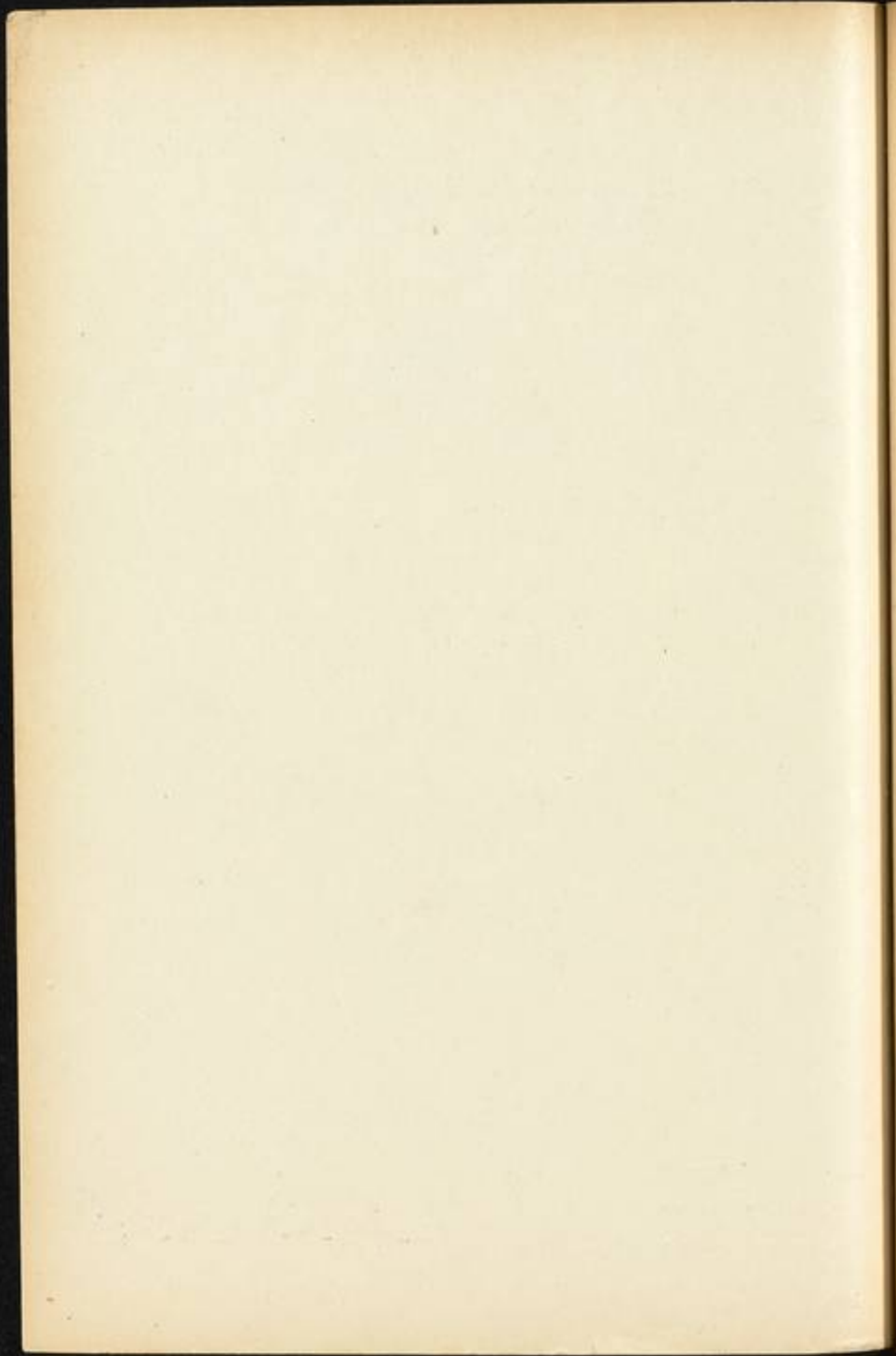
فصعق القاضي ، وصفق الحاضرون . وبعد ان ذهبت موجة  
الدهشة قال القاضي : هل تريد الصلح مع خصمك ؟  
فلما اجاب بالاجاب، قال القاضي: اذن تعال في المساء الى داري!  
وفي المساء ذهب عبد النافع الى دار القاضي فقدم اليه خمسة  
دنانير ذهبية، واعطاه طحينا ومؤونة الدار لمدة سنة من زيت ودبس  
وبرغل وزيتون ، وقال : اكتب براءة بينكما .  
فكتب له براءة ، فوضعها القاضي في جيبه وقال للشهود  
الحاضرين بعد ان اشهدهم فيها : اني ساوصي بانزالها في قبري ،  
واذا حاسبني الله ساعطيه هذه البراءة الشاهدة بتخليص ذمته  
ليعفو عني !

بهذه الصفحة انتهى الجزء  
الاول من مذكرات البارودي



المرجو من اقراء تصحيح الخطا قبل المطالعة  
جدول الخطا والصواب

| الصواب                 | الخطا           | سطر     | صفحة |
|------------------------|-----------------|---------|------|
| خالدا                  | خاد             | ١٣      | ٥    |
| احمد                   | محمد            | ٢٠      | ١٤   |
| والعبادة               | والعبارة        | ٢١      | ١٩   |
| عطا باشا               | فوزي باشا       | ١٣      | ٢١   |
| المدرسة                | مدرسة           | ٥       | ٢٣   |
| التاريخ                | تاريخ           | ٦       | ٣١   |
| اذن سيز                | الذ نيز         | ٤       | ٣٨   |
| وخلصني                 | وخلصني          | ٤       | ٤٢   |
| من حياة ذلك            | من حياذلك       | العنوان | ٤٣   |
| حسني                   | حسن             | ٩       | ٥١   |
| جمال باشا              | جلال باشا       | ٦       | ٥٨   |
| طويلا                  | طويل            | ٤       | ٦٤   |
| احدرجال الشيخ ابوالهدى | الشيخ ابو الهدى | ١٣      | ٧٠   |
| منين                   | متين            | ٧       | ٨٢   |
| يراه                   | يراهم           | ١٧      | ٩٠   |
| الجيلاني               | الجيلاني        | ٧       | ٩٢   |
| كلا                    | كل              | ٢٦      | ٩٢   |
| عجميا                  | عجمي            | ١٩      | ١٠٠  |
| ليستخير                | ليستخير         | ٢١      | ١٠٤  |
| به يظفر بالموافقة      | به بالموافقة    | ٢٣      | ١٠٤  |
| سورية                  | سوري            | ١٢      | ١٠٨  |
| طيوره                  | طيور            | ٣       | ١١١  |
| ليزاجو                 | ليزوجو          | ٢٣      | ١١١  |
| ابو الفول              | بو الفول        | ٢٤      | ١١١  |
| بدلة                   | بدلة            | ١٧      | ١١٣  |
| الوالي في              | الوالي واقعة في | ١٨      | ١١٥  |
| الطابو                 | الطابور         | ٢٢      | ١١٥  |
| بعيدا                  | بعيدا           | ٤       | ١١٦  |
| كالشبؤون               | كالشبيوعن       | ٢٤      | ١١٨  |
| كزابر                  | كزابر           | ٢٤      | ١١٨  |
| قصبة                   | قصبتة           | ٨       | ١٩١  |



حقوق الطبع محفوظة

ثمن النسخة

١٠٠ ق ل.س.

١٠٠ فلس. مل

طبع على مطابع «دارالحياة» - بيروت

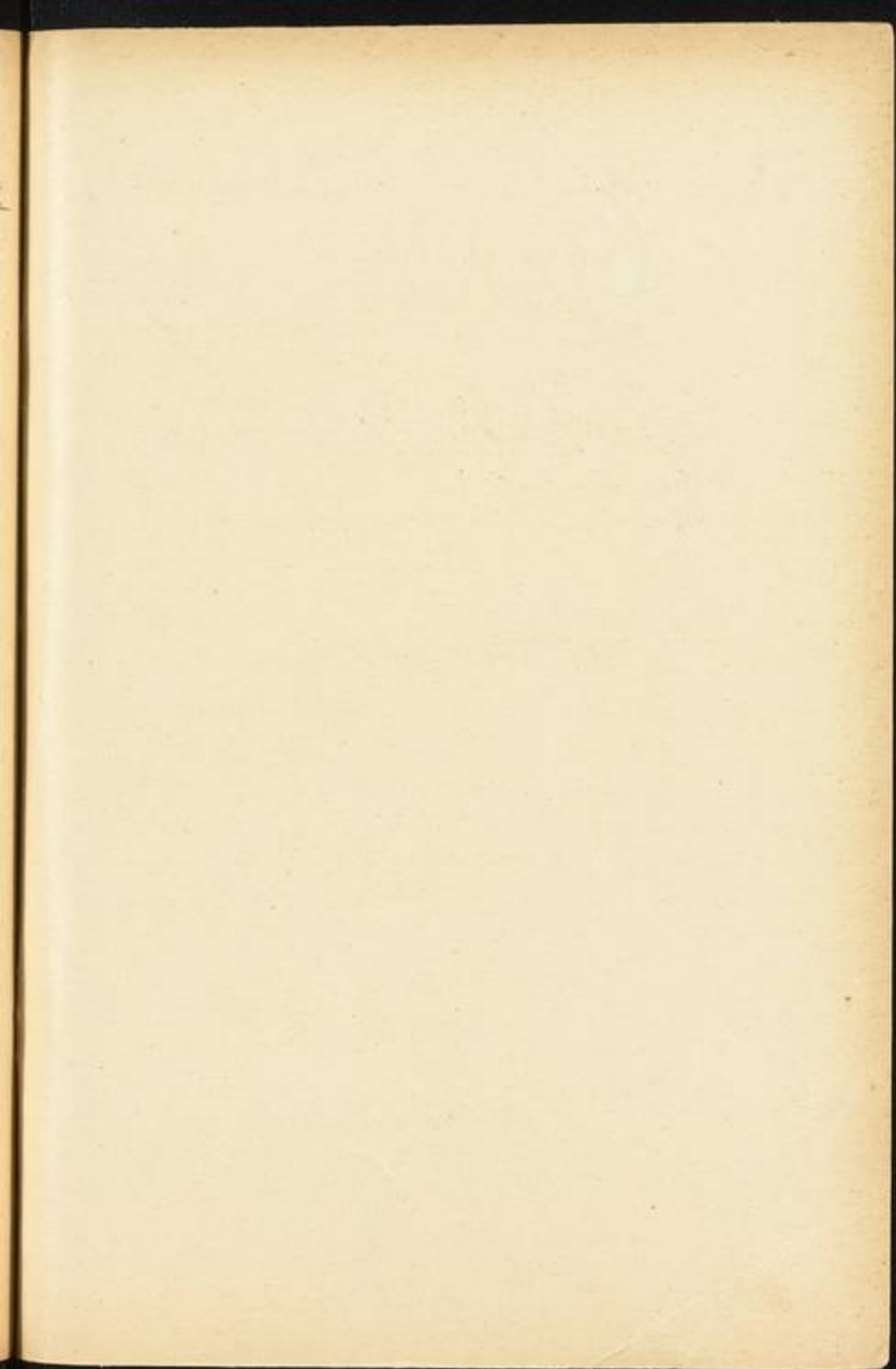


# مذكرات البارودي

من شأنكم أن يعز بلاده  
فليس سعي معرفتها البارودي  
«الرصافي»

الجزء الثاني

دمشق ١٩٥٢ م



إِذَا اِخْتَصَمَ الْحَقُّ وَأَخِي ، فَأَنَا مَعَ الْحَقِّ اسْطَوْ

# مذكرات البارودي

سِتُونَ سَنَةً تَكَلَّمَ

بِقَلَمِ  
فَخْرِيِّ الْبَارُودِيِّ

الجزء الثاني

دمشق عام ١٩٥٢



مقوق الفسّر واعادة الطبع من

للناشر

عاطف العجّة

طبع في مطابع «عجه واتحاد»

بدمشق

# الهدايا

الى شبان العرب :

اهدي مذكراتي هذه ايطلعوا على صفحات من تاريخ بلادهم  
الحديث لعلمهم يجدون فيها عبرة وذكرى .  
دمشق ، اول آب ١٩٥١

فخري البارودي

41657 0LC (2V)  
770



رسمی

قبل سفري الى اوربا عام ۱۹۱۱



## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم  
هذا هو الجزء الثاني من مذكراتي التي استصدرت تباعاً في  
عشرة اجزاء .

هذه المذكرات تدوين صحيح وتسجيل جديد لحوادث ستين سنة لم  
يحسر عنها نقاب ، ولم يتحدث عن بعض نواحيها مؤرخ برغم ما تحفل به  
أيامها من زعازع ، وما تموج به لياليها من أرزاء ، وبالرغم من هذا الصراع  
بين الحق المهضوم والباطل المفروض : بين حر أعزل وضعيف ومستعمر  
مسلح قوي ، بين شعب مسلم ذكي ومتسلط طماع يرتكز على طائفة من  
المأجورين الذين عاشوا كالسوس ينخر في جسم العروبة فأحرص ايها  
القارئ الكريم على ضم اجزاء هذه المجموعة التاريخية الفريدة الى بعضها  
لتكون لديك مجموعة كاملة تقف منها على اسرار الحقبة الاخيرة من تاريخ  
هذه البلاد .

وأسباب تأخر صدور هذا الجزء هو اني كنت اتفقت مع صاحب  
الحياة على نشر المذكرات في جريدته وفعلاً نشر الجزء الاول متسلسلاً

فيها ونظراً لبُعدي عن بيروت اضطررت لقطع النشر في الجريدة وعزمت  
على طبعا اجزاء ولأسباب عديدة تأخرت عن اصدار هذا الجزء وارجو  
ان تساعدني الظروف على اتمام النشر في مدد قريبة فلا تتأخر الاجزاء  
الباقية عن الصدور في اوقاتها حتى تم السلسلة وعلى الله الاتكال .

فخري البارودي



## فكرة السفر الى اوربا

مداوم في قلم محكمة الاستئناف :

ذكرت في الجزء الاول ان والدي بعد ان كان يمدني برسالي الى الآستانة . نكل وأراد ان يزوجني ليفرح بي وعقد عقد نكاحي كما جاء سابقاً ومضت سنة ( ١٩١٠ ) وأنا بدون عمل ورأس العاطل كما لا يخفى هو محطة الشيطان وبماكاني ان أقول انني لم أترك ناحية من نواحي (الجهل) الا جربت حظي فيها حتى مللت فتقدمت باستدعاء الى مدعي علم الاستئناف طلبت فيه قبولي في قلم محكمته مداوماً بدون راتب عساي أتمكن من التمرن على الكتابة التركية الرسمية فيساعدني ذلك في مستقبلي . قبلت وداومت ولكن دواحي لم يكن يأخذ جميع وقتي بل كنت غير مجبور على قضاء جميع اوقات الدوام في العدلية بل كنت أذهب حسبما أريد ولما كانت كتابتي التركية بالنسبة الى كتابة الاخرين من الكتاب أصلح من كتابتهم كان رئيس الكتاب يعتمد علي بيضاء مايلزم وعلى هذا بقيت مداوماً الى ان فررت الى اوربا كما سيحي .

\*\*\*

والدي في الآستانة :

في عام ١٩١١ م حصل لوالدي اشغال خاصة في الآستانة فسافر اليها في اوائل كانون الثاني وكان بمض رفقائي في المدرسة واكثر ابناء الصفوف الذين تخرجوا بعدي سافروا الى ( اسطنبول ) الآستانة وبقيت مبلبل الفكر اضرب اخماساً في اسداس للخروج من هذه الورطة



الويلية وكنت افكر في أكثر اوقاتي بالحالة التي وصلت اليها وقد خطر لي  
خطر كان شغلي الشاغل من بعد سفر والدي وكانت نفسي تحدثني بانزوم  
تنفيذ هذه الفكرة وهي ان اسافر الى اوربا لتحصيل الزراعة في احدى  
مدارسها طالما منغني والدي عن السفر الى الآستانة . راجعت الاستاذ  
محمد بك كرد علي بهذه الفكرة فاستصوبها وشجعني عليها وما زلت افكر  
بها حتى تجسمت برأسي .

وصرت كالمأخوذ ان قت او قعدت ، ان نمت او صحوت لا افكر الا  
بالسفر وجعلت الخيالات تمر في مخيلتي مرور مناظر السينما فبينما كنت  
افكر في ايام المدرسة الماضية ينتصب امامي المستقبل مرة أرى نفسي في  
مدرسة زراعية في فرانسوا واخرى أرى نفسي في دمشق ثم يمر أمامي  
مناظر حياة عائلية فيها اولادي . يطلبون مني « خرجية » وأنا فقير ومرة  
أرى السعادة في يدي وهي شهادة المدرسة الزراعية ، ثم يمر في مخيلتي المجد  
والعلاء ومراتب العلم والأدب واخيراً تمكنت الفكرة مني وعزمت على  
السفر الى فرانسوا والدخول في مدرسة زراعية فيها لأنني رأيت بعد شدة  
التفكير اني لا يمكنني سحب فلس واحد من كديميني في هذه البلدة لأن  
الناس كانوا يعيرون أبناء « الذوات » اذا اشتغلوا فكيف اشتغل وانا  
فخري بن محمود البارودي ووحيده ، أي عمل يليق بي القيام به دون ان  
يعيروني الناس فيه ، أي صنعة اقوم بها دون ان ينقدني المجتمع فيها . هام  
ابناء الذوات أكثرهم عائشون في دور اهلهم يتناولون روايتهم من آباؤهم  
وهم في جهلهم يسبحون ، اكبر شاب منهم لا يحسن قراءة رسالة او كتابة  
مكتوب فهل ابقى مثلهم أمدي يدي لوالدي أشجذ منه راتي الشهري بدلا من  
ان تكون يدي صنعة اساعد والدي من نتائجها . هذا بعض ما تشخص لي

فوطدت العزم على السفر وجمعت ما قدرت جمعه من المال فبلغ مائة وثلاثين ليرة افرنسية ذهبية دفعت ديوني منها واشترت أدوات طبخ وضعتها في صندوق خشبي صغير ونقلت جميع ملابسني التي اصطحبتها معي من «الجواني» دائرة الحرم الى «البراني» ووضعتها في الحقيبة التي اشتريتها خصيصاً لهذه السفرة . حضررت الاشياء . ويوم الجمعة الواقع في ١٥ شباط سنة ١٩١١ وصلتني برقية من والدي من اسكندرونة يشعرنني فيها بأنه



خال والدي عطا باشا البكري

سيصل الى دمشق الاجد مساء وخوفاً من ان يصل والدي الى دمشق قبل مغادرتي اياها أسرعت بإتمام جميع ما يلزمني وقطعت علاقتي ودفعت ديوني التي لا تريد عن بضع ليرات وأخذت البرقية الى خال والدي ( عطا باشا البكري ) وعدت الى الدار واطلعت سيدتي الجدة لو والدي والوالدي على البرقية وقلت لهما اني سأذهب

الى دوما لأرى الاعمال واعود غداً لاخبر والدي بمد وصوله بحسب سيرها وأمرت الحوزي باحضار المعجلة ( العربية ) ونقلت الامتعة اليها دون



ان يشعر بي احد وبعد ان خرجنا من الحلة الى الشارع قلت اذهب الى فندق « اوتيل فيكتوريا » وكان مكانه مقابل البنك السوري اليوم على ضفة بردى الثانية ووضعت الحقيبة والصندوق في الفندق وقلت للحوذي



اوتيل فيكتوريا في دمشق

اذهب الى الدار بعد قليل واخبرهم اني بقيت في الضيعة لاشغال ضرورية وغداً صباحاً تعال الى الفندق وذهب الحوذي بالعربة وبقيت في الفندق .

\*\*\*

### الفنادق في دمشق :

لم تكن دمشق تعرف الفنادق بل كانت الخانات تقوم مقام الفنادق فيها وسيأتي بحثها منفرداً وأول فندق « اوتيل » تأسس في دمشق هو « اوتيل ديمتري » وديمتري هـذا رجل نمساوي فتح غير الفندق مقهى



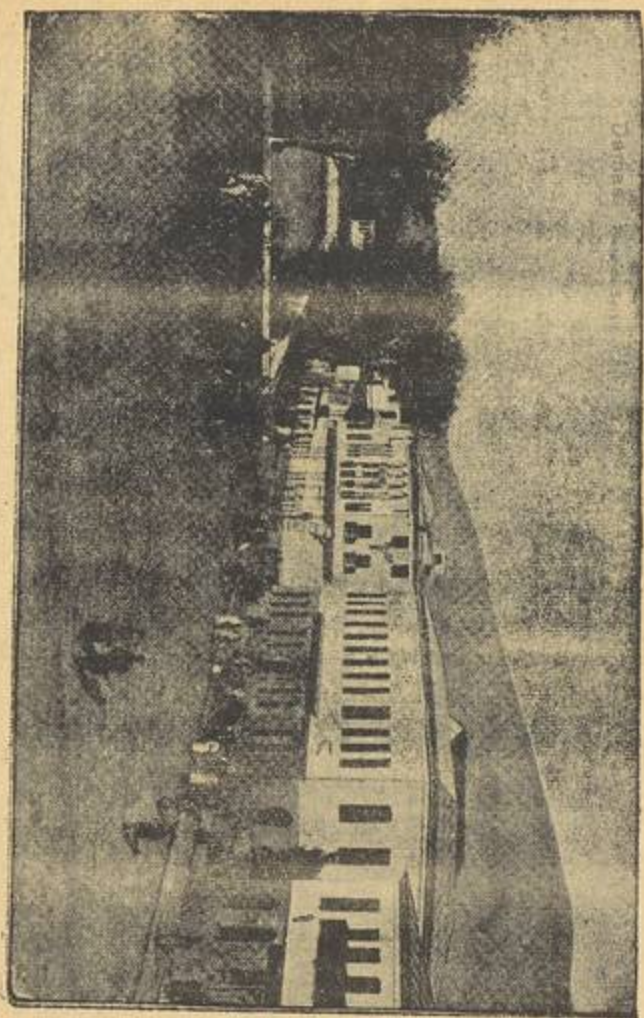
في ساحة المرجة على الطرز الجديد مما لاعهد لدمشق به وشاركه  
بالفندق رجل يدعى الآغا ممنون وفتحوا الفندق في طلعة جوزة الحدبا ،  
ثم فتح المسيو (بيروبو ليوفيتش) فندقاً اسما « اوتيل اميركا » موقعه  
مكان اوتيل امية اليوم وهو ثاني فندق اسس في دمشق ثم فتح الخواجات  
خوام فندقا في محلة القنوات في الدار المعروفة بدار تمر ثم انتقلوا الى  
جانب اوتيل فيكتوريا وبقوا فيه الى ان بنوا اوتيل « اوريان بالاس » الحالي  
واليوم في دمشق اكثر من مائة فندق وفيها من الفنادق البديعة ما يضاهي  
أجمل فنادق العالم .

وحق اعلان الدستور العثماني كان اصحاب الفنادق جميعهم من المسيحيين  
وبدأ المسلمون بفتح الفنادق منذ ذلك التاريخ فأسسوا دار الفرح ودار  
السرور والخديوية الى غير ذلك ، اما المسيحيون فكانوا يسمون فنادقهم  
باسماء افرنجية وظل هذا الى خروج الافرنسيين من دمشق حيث قام  
الأهلون وطلبوا من اصحاب الفنادق تغيير الأسماء الأفرنجية بأسماء عربية  
قبلوها وأصبحت كما هي معروفة به اليوم .

\*\*\*

### الخانات :

الخان كلمة تترية معناها ملك ورئيس يلقب بها كل الأمراء  
«الملكيين التتر» وهي من القاب ملوك الفرس والسلطين العثمانيين ، ويطلق  
الخان عند الاتراك على الفندق وعنهم أخذها العرب . كان قديماً يبنيه الملوكة  
على الطرق العامة لتبيت فيه القوافل وأبناء السبيل . والخان على الأكثر  
يبنى عادة على هيئة ساحة مربعة في داخلها صفوف من الماشي بعضها مبني  
فوق بعض فتكون من طابقين على جوانبها غرف صغيرة وفي احدى جوانبها



١ - بناء البرق والبريد - ٢ - بناء المدرسة السابقة - ٣ - اول مبنى البرق



الاسطبلات وعلى طول حيطان الاسطبلات من الخارج ( معاف ) لربط الدواب في الصيف. ويسمى ( مصيف ) وكانت هذه الخانات لحماية المسافرين من الاشقياء وقطاع الطرق لا يدفون اجراً عن المبيت فيها . هذا في الخانات الواقعة خارج المدن ، وتكون هذه الخانات مبنية بالحجر والجص وهي اقرب الى الحصون والقلاع منها الى الدور . يبيت المسافر في الدور الاعلا ويضع الحيوانات في الدور الاسفل .

\*\*\*

### خانات المدن :

خانات المدن أي التي تبني في داخل المدينة هي على قسمين : احدها خان التجارة . والثاني خان المسافرين .

فخان المسافرين يؤجره أصحابه الى اناس مخصوصين بإدارة مصلحة الفنادق فيأخذون من المسافرين أجر المبيت والأجور تختلف حسب الزمان والمكان وعلى كل كانت الاجور طفيفة يتحملها كل انسان والغرف كان منها المفروش برياش بسيطة ومنها العاري من الفرش . والغريب الذي يبيت بالخان لا يكون له في البلدة التي ينزلها من يعرفه ، أما من له أدنى معرفة بأي شخص كان فانه يذهب ويحل ضيفاً في داره . ولم يزل الى الآن بعض الخانات في دمشق ينزلها أهل القرى الذين يأمنون دمشق للبيع والشراء .

\*\*\*

### خانات التجارة :

والقسم الثاني خانات التجارة المعروفة لدى بعض الأهلين اليوم ولم تنزل على حالها كما كانت قبل عدة قرون ولا بأس من ذكرها ليطلع عليها القراء .

كانت البلاد قديماً على اختلاف العصور وفي اكثر الأوقات مرتعاً



للأشقياء والزعران، والتجار غير امينين على اموالهم ولذلك اقيمت الخانات التجارية على نسق خانات القنادق التي مر ذكرها وهي من دورين ايضاً وفي الأستانة خانات تجارية من ثلاثة ادوار تكون غرفها حوانيت (دكاكين) للتجار والغرف صغيرة بطبيعة الحال يستعملها التاجر مكتبه يوضع فيها البضائع الثمينة خفيفة الحمل كالحرير وانواع الملابس على اختلاف



خان من خانات المسافرين الطابق العلوي لنوم المسافرين  
والطابق الارضي لربط الدواب

اشكلها . أما بضائع (مال القبان) يعني الأرز والسكر والسمن والبن والشاي وامثالها فتوضع في صحن الخان ولكل خان بواب يستأجر ساحة الخان ويأخذ أجره من المشتري بحيث يدفع المشتري الى البواب عند اخراج البضاعة عن كل وحدة مبلغاً طفيفاً ، مثلاً في الزمن الحميدي كان

يؤخذ عن الوحدة يعني كيس ارز أو بن أو غيره وعن ( القفة ) وعن  
 « قصديره » السمن ( تنكة ) متليكا وهوربع قرش عثماني صاغ وسبأتي بحث  
 العملة العثمانية . ثم ارتفعت اجرة الوحدة الى نصف قرش ثم الى قرش ثم  
 الى نصف البشلك أي قرش ونصف وفي حوالي سنة ٩٣٠ - ٩٣٥ ميلادي  
 أصبح التجار البائعون يدفعون للبواب اجراً مقطوعاً وعدل عن الاخذ  
 من الشاري ولكل بواب خان مساعدان احدهما يسمى الناطور ووظيفته  
 حراسة الأرزاق ليلا يبيت داخل الخان وفي الصباح يسلم البواب مقابل  
 اجر يتفق والحالة الحاضرة . أما المساعد الثاني فكان يقوم بكس  
 وتنظيم باحة الخان والحفاظة على نظافة الباحة دائماً مقابل اجر معين .

\*\*\*

### حالة التجار آنذاك :

الذي اعرفه واتحضره جيداً ان بعض كبار التجار كان لهم امام  
 ابواب غرفهم تحوت صغيرة يجلسون عليها يحيط بها بعض المقاعد من  
 كراسي القش العالية والواطئة يجلس عليها المشترون في اوقات الفراغ  
 تكون كجالس سمر يتحدثون فيها مختلف الأحاديث الفكاهية ويقضون  
 ساعات هنيئة لم نعد نرى مثلها منذ طغيان المادة على المجتمع .

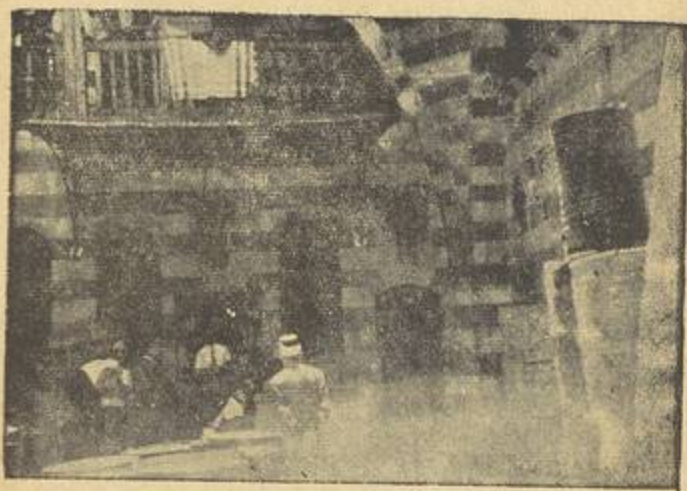
\*\*\*

### أخلاق التجار :

كان التجار في تلك الايام لهم حالة خاصة واكثرهم لا يخرج عن  
 عرف طبقته فلم يكن لتاجر عربية ركوب خصوصية من العربات  
 التي كانت مختصة بطبقة الذوات من الزراع ، اما التجار الذين  
 يضطرون للركوب فمنهم اصحاب الطواحين وتجار الحبوب فيركبون



الرهاون (١) كما ان البعض يركبون البغال والبعض لهم عناية خاصة بالخيل الاصيل . والبعض الآخر يركبون الحمير القبرصية البيضاء وحمير الصليب والذين ليس لهم حيوان المراكوب يستأجرون الحمير من سوق الخيل . والركوب في القطار كان لعموم التجار تقريباً في الدرجة الثالثة والتاجر الذي يضطر لركوب عربة الأجرة كان يوارى وجهه ويستحي



احدى غرف التجار في الخانات ، وصاحبها يوزع الدراهم على الفقراء  
يوم الخميس والى البواب واقف في منتصف الخان

يتنفسه اذا رآه احد من الناس راكباً في العربة . هذا كان من التجار المتوسطين . أما كبار التجار الذين لهم املاك عظيمة ومزارع فكانوا يقتنون العربات والخيل ومنهم من يحمل رتب السلطان ويشترك بالاحتفالات

(١) الرهوان كلمة فارسية اصلها راهوان نوع من الخيل سريع السير له مشبه خاصة لا يمكن لبقية الخيل مسايرته في الطريق نظراً لسرعته .



الرسمية في الأعياد ومواسم الحج فيرتدون لباس « القصب - الصرما » ويمشون في ( الألاي ) وهو ماسيأتي ذكره في غير مكان من المذكرات .  
وأكثر التجار كانوا يتاجرون بثلاث اموالهم يضعونه رأس مال  
والثلث الثاني يبقونه احتياطاً خوفاً من الأزمات والثلث الثالث يشترون  
به املاكاً تكون لهم ذخراً يحتفظون بها للأيام السوداء ، والتاجر الذي  
يشتغل بثلاث أو نصف ماله يكون بعيداً جداً عن الإفلاس بعكس تاجر  
اليوم خصوصاً الشبان منهم الذين يشتغلون بأضعاف رأس مالهم فيكونون  
عرضة للطوارئ ، والأزمات . وكم رأينا تاجراً اشتغل بأضعاف رأس ماله  
فكُسر وجلب الشقاء أو الإفلاس لعشرات من التجار الذين يستدين  
منهم البضائع .

ثم من المستحيل ان يشتغل تاجر صنفاً معيناً بغير انواع تجارته التي  
تخصص بها بعكس اليوم والاختصاص في أي عمل كان هو أس النجاح .

\*\*\*

### الحزّامون :

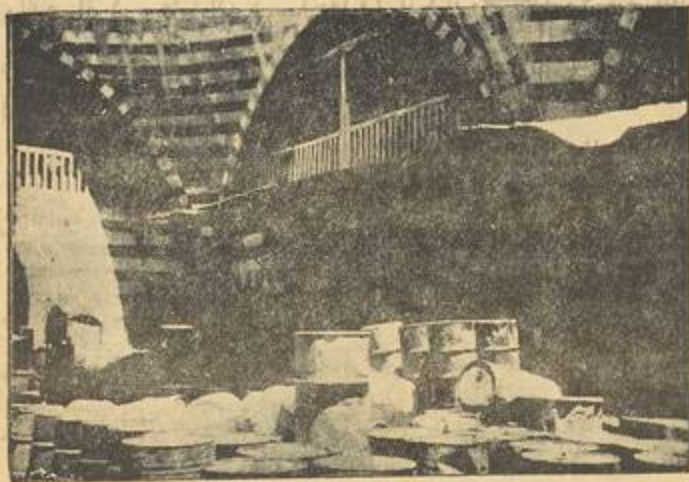
الحزّام هو الذي يحزم البضائع للتجار مقابل أجر على الوحدة ،  
وتسمى كل وحدة من البضائع المحزومة « فردة » وحزم البضائع  
صنعة قائمة بذاتها ولكل خان من الخانات التجارية حزّامون خصوصيون  
لا يمكن ان يأتي غيرهم الى خانهم والاجرة تؤخذ على الفردة وتختلف  
باختلاف الزمان ، والفردة التي يحزمها الحزّام « الأسطه » أي المعلم لا يمكن  
ان تفك في الطريق منها كانت مسافة السفر طويلة . وكما ان لكل خان  
حزّامون كذلك فان لكل خان حمالين خصوصيين ايضاً لا يمكن لغيرهم  
ان يدخل الى خانهم ، وخانات التجار محصورة في دمشق بين سوفي الطويل

وهو الذي يسمى سوق مدحت باشا وبين سوق الحرير وسوق البزورية  
وخانات دمشق المعروفة هي :

| اسم الخان  | السوق الذي فيه الخان |
|--|----------------------|
| خان اسعد باشا  | البزورية             |
| » العامود  | »                    |
| » الصدرانية  | »                    |
| » الصوف  | »                    |
| » الدكة  | مدحت باشا            |
| » سليمان باشا ويسمى الخماصنه                                     | »                    |
| » جقمق   | »                    |
| » الزيت كان قديماً للزيت واليوم لمالك الفاتورة مدحت باشا         | سوق الحرير           |
| » الزعفرنجي  | »                    |
| » الحرمين وكانوا يسمونه سوق (الجواري)                            | سوق النسوان          |
| » السكرك   | سوق باب البريد       |
| » باب البريد   | سوق باب البريد       |
| » الزيت ولم يزل الزيت  | سوق العتيق           |
| » الدبس  | »                    |
| خان البطيخ اصبح كاراجاً  |                      |
| وقد كانت مراكز أعظم تجارة دمشق في سوق الطويل وخاناته             |                      |
| وهذا السوق يمتد من باب الجابية الى مأذنة الشحم (١) والحوانيت على |                      |

( ١ ) سوف ابحت عن هذا السوق وتاريخ تأسيسه في الأعداد الآتية .

جانبيه وكان ضيقاً جداً وعندما تولى مدحت باشا ولاية الشام امر باخلاء السوق لتوسيعه فلم يقبل التجار فأمر بحرقه فحرقوه بالفعل وبعدة قرية عمَّره اصحابه واصبح كما هو عليه اليوم . ولم يكن في زمن تلمذتي في مكتب عنبر من تجار هذا السوق من يعرف الكتابة والقراءة الا افراداً قلائل وكان لهذا السوق بعض الكتاب من المسيحيين واليهود ومن المسلمين رجل واحد يسمى الشيخ حسن الدسوقي يحملون في زناهم



خان من خانات التجارة ، والباحة ملاهى بالبضائع

دواة من نحاس لها ذنب طويل يضمون في الذنب أقلاماً من القصب وهو اليراع يبريه الكاتب بموسى ربيعة أو « بقلم تراش » ، وهو نوع من السكاكين مخصوص لبري الاقلام وهؤلاء الكتاب يزورون التجار مرة او مرتين في الأسبوع ويكتبون لهم المبيعات في دفاترهم وكنا كلما نمر في طريقنا الى المدرسة الواقعة في حي الخراب ينادينا بعض التجار لتقيد



بعض النفقات في ورقة « تسمى طيارة » يحفظونها الى ان يأتي الكاتب فتكون كمفكرة لهم وكانوا ينادون التلميذ بقولهم يا بني الله يفتح عليك « خط لي هل خطين » فكنا نساعدهم . واذكر ان ثمن ذراع الخام من معمولات دمشق كان ثلاث « نحاسات » وهي تساوي سبع بارات ونصف من القرش وجموع بارات القرش اربعون بارة .

\*\*\*

### جناب الاكرم :

والذي اذكره تماماً ان ديباجة (١) الكتاب كانت « كالا كليشة المطبوعة » لم ازل احفظها الى اليوم ، كان يكتبها جميع من كتب رسالة من العلماء الى الموظفين الى الطلاب الى الاهلين الى التجار .  
وهي جناب الاكرم والمقام الافخم حميد المزايا كريم الشيم حضرة اخونا السيد... افندي المحترم دام بقاءه آمين .

من بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته والسؤال عن شريف الخاطر العاطر انه ان جاز سؤالكم عنا فانا لله الحمد بالف خير وعافية الخ...  
هذه الديباجة لم يزل الكثيرون يستعملونها الى اليوم في مكاتباتهم خصوصاً المزارعين من الفلاحين حتى الانفندية منهم .

\*\*\*

### دام بقاءه :

بمناسبة هذه الديباجة وقعت حادثة لطيفة لا بأس من ذكرها هنا كأن لا أحد التجار عميل في القاهرة دامت معاملته مع الدمشقي مدة ثلاثين سنة وهما يتكاتبان دون ان يعرف احدهما الآخر واجتمع العميلان بعد ذلك

---

(١) ديباجة الكتاب فانجته .

وتعارفا وبعد التعارف سأل المصري الدمشقي ارجوك ان « تفش قلبي »  
بتعريفي عن معنى الجملة التي تأتي منذ ثلاثين سنة في آخر اول سطر من  
كل كتاب ترسله لي وهي « دم بقا » معناها « ايه » قال الدمشقي هذه الجملة  
ليست « دم بقا » بل هي دام بقاه أي بقاء الشخص المرسل اليه الكتاب  
أي دام بقاؤك انت ايها العميل المحترم ونظراً للسرعة في الكتابة وتكرار  
الديباجة كل مرة جعلها معروفة عند الجميع وتكتب بهذا الشكل وهنا صاح  
المصري « الله الله يا شيخ ربيحت بالي ، الله يريح بالك ». وقد هدأت فكري  
الذي ظل يضطرب مدة ثلاثين سنة لفهم الجملة وانا استحي ان اسألك عنها  
في كتاب ... ا.هـ. هـ هذه حادثة واقعة رواها لي السيد ابو درويش  
سويد المشهور .

\*\*\*

### التحارير :

كان للتجار الدمشقيين بل السوريين عادة غير مستحسنة وهي ارسال  
التحارير الى عملائهم صحبة المسافرين وكان البعض يذهب الى محطة البرامكة  
ليرسل تحريراً الى عميله توفيراً لأجرة البريد التي ما كانت تزيد عن ربع  
الغرش (مئتيك) ومن له عملاء كثيرون في بلدة واحدة يضع لهم عدة تحارير  
مكتوبة على ورق رقيق جداً في مطروف واحد لا يزيد وزن مجموعها عن  
وزن كتاب واحد يسطر على ورق عادي والعميل الذي يرسل المطروف  
باسمه يبعث كل تحريروا الى صاحبه ، او يضع التحارير بمظاريف عديدة  
ويسلمها الى احد اصدقائه من ركاب القطار لا يصلها الى اصحابها وتصور  
ايها القاريء ماذا يتحمل حامل هذه التحارير من المشقة لأجل ايصالها

الى أصحابها خصوصاً في بلدة غير بلدته والآنكي اذا كانت هذه السفرة  
اول سفراته اليها .

\*\*\*

### الكتاب المخصوصيون :

كان لكبار التجار كآل القوتلي ، والحلبوني والليموني ودياب  
والحفار والزباط وغيرهم كتّاب خصوصيون وقليل من اولاد التجار من  
كان يحسن مسك الدفاتر وقد بدأ بعضهم بتعليم اولادهم اللغة الأفرنسية في  
مدرسة الآباء العازارين فكان اول من تخرجوا من هذه المدرسة السيد  
مسلم السيوفي والسيد رشدي بن السيد خليل السنان رحمه الله وكانوا من  
ألع شبان التجار في ذلك الزمان والسادة رشدي السكري وعبد الصبان  
من المسلمين ايضاً .

\*\*\*

### القومسيونجية (١) والمرابون

أما القومسيونجية فلم يكن بين ابناء المسلمين منهم فرد واحد بل  
الجميع من المسيحيين ، كذلك يمكننا القول عن الصرافين والمرابين واكثرهم  
يهود على انه كان بعض المسلمين يقومون بذلك ايضاً وبعد الاحتلال  
الأفرنسي كثر عدد المسلمين حتى اصبح سوق البورصة اليوم بيدهم .

\*\*\*

### لباس التجار :

لباس الرأس الطربوش و « اللغة الاغباني » وكان لباسهم

---

(١) القومسيونجي هو الوسيط بين التاجر واصحاب المعامل في اوربا يتقاضى من  
البائع بالمائة شيئاً معلوماً « عمولة » عن المبيعات .



الخلاص هو الصاية الحربية « والساكو » ولم يزل بعضهم يلبسها ويسمى اليوم ( شامي عتيق ) . وكان الحرير اصلياً لابنائياً والحرير النباتي لم تعرفه بلادنا الا عقب حرب ١٩١٤ وكان الـ ( ساكو ) من الجوخ الانكليزي . المتين يلبسه الرجل عدة سنوات مع الصاية . اما التجار الصغار وبنائهم فكانوا يلبسون ( المديمة ) والجوخ العربي واذا تعدي احدكم طوره ولبس او لبس ابنه لباس طبقة أعلى من طبقته يكون عرضة للتحقير والتهكم . وكثيراً ما مسمنا افندي المحلة قد جلب احد التجار الأصناف ووبخه على تعديه طوره بارتداء لباس أعلى من لباس طبقته وأجبره على قلعه والرجوع الى لباسه الأصلي وعلى هذا النحو كانت جميع الطبقات سعيدة في حياتها مسرورة في اجتماعاتها فرحة في معيشتها بعكس اليوم حيث نسمع الشكوى من كل جانب ومن كل طبقة والسبب هو عدم معرفة الانسان حده والوقوف عنده وانا نرى اليوم افقر الفقراء يريد ان يقلد في لباسه ومعيشتها ابن التاجر الكبير وامرأة الصانع تريد ان تجاري امرأة الوزير وبذا ظهر عدم الرضا بين الناس وارتفعت الشكوى لطف الله بعباده .

\*\*\*

### امانة التجار :

كانت اكثرية التجار المطلقة امينة على ما يستودعها الناس صادقة في معاملاتها والتاجر كان يحافظ على كلمته فمن باع لا يرجع ومن اشترى لا يقبل مها وقع هناك من الخسائر وكان البيع والشراء في الحالات العادية وبالصفقات المتوسطة والصغيرة بالقول فقط ولم تعرف معاملات الكتابة في البيع والشراء الا بالصفقات الكبيرة .

ومنذ عهد قريب قال لي احد اصدقائي و اشار بيده الى سوق

مدحت باشا قبل خمسين سنة من هذا التاريخ لم يكن في هذا السوق الا  
تاجر واحد قليل الامانة يعرفه التجار ويتحاشون معاملته فقلت واليوم  
فأخذ بطرف رداؤه ونفضه قائلاً الله اعلم .

اما الامانة التي ذكرتها آنفاً فكانت عامة وكم تاجر ارسل مع عميل  
له الوف الليرات الذهبية دون وصل وكان العميل يغيب الأشهر والسنين  
ويعود بالمال مع الربح او بالبضائع والتجارة دون ان يمضي ورقة واحدة  
واليوم من شاء فليمر على كاتب العدل ويطلع على المعاملات التي تجري بين  
التجار فيعرف منها الفرق بين الأمس واليوم .

\*\*\*

### الامانات الصغيرة :

من عجائب تلك الأيام ان الناس كانوا يأمنون بعضهم عن غير  
معرفة فمتي قيل هذا تاجر فرضت فيه الامانة ولذلك كان البعض  
يرسل امانة الى عميله في بيروت او حلب او ابي بلدة مع راكب  
لا يعرفه و كثيراً ما تكون الامانة مئاة من الليرات المثمانية . يكون الراكب  
جالساً في عربة القطار قبل تحركه من المحطة فيأتيه احد من راجياً منه  
ايصال امانة صرة دراهم يعطيه اياها دون عد فيتحمل هذا المسكين معها  
الى ان يوصلها الى صاحبها وقد حدث حادث طريف لا بأس من ذكره  
هنا وهو انه

\*\*\*

### طالب افندي الحلبوني :

كان في دمشق احد كبار التجار من اسرة الحلبوني الكريمة وهي

أسرة من أشهر أسر دمشق ورجالها كانوا من أكبر تجارها سافر كبيرها  
إلى الآستانة في تجارة واعطاه أحد التجار امانة إلى عميل له صرة  
فيها مائتا ليرة عثمانية فأخذ الصرة ولما وصل إلى الآستانة دفعها  
إلى المرسلة إليه فعددها وإذا بها مائتا ليرة فعاد إلى طالب افندي  
وقال له إن الامانة ناقصة مائة ليرة لأن عميلي يقول في كتابه انها  
ثلاثمائة فقال الحلبوني نعم احتجت اليها فتصرفت بها في الطريق واليك هي  
واعطاه مائة ليرة وبعد بضعة ايام عاد الرجل إلى طالب افندي معتذراً واعاد  
المائة ليرة وقال كان عميلي كتب لي أنه ارسل المبلغ ثلاثمائة ليرة ولكنه  
عاد فأخبرني انه لم يتمكن من ارساله باجمعه فأرسل مائتي ليرة فقط ولذلك  
فاني اعتذر عن هذا الخطأ ولكن أرجوك ان تعرفني ماهو سبب دفعك  
المبلغ من جيبك قال الحلبوني لو قلت لك ان المبلغ مائتان فقط لما قنعت  
وكنت نشرت الخبر بين الناس وإلى ان يأتي الخبر الصحيح يكون التجار  
سمعوا بهذه الحادثة ومن الصعب اقتناعهم ببراءة ذمتي بعد ذلك مما كان  
الأمر ولذا فاني احببت ان اشترى سمعتي بهذا المبلغ . هذه حادثة واقعة  
فتأمل اخلاق التجار آنذاك رحمهم الله .

\*\*\*

### حكمة التجارة :

من عجائب الدهر ان الحكومة العثمانية أسست محكمة تجارة في دمشق  
وبقيت ثلاث سنوات مفتحة الأبواب لم يدخلها شاك فتأمل .



## السفر من دمشق

قلت اني ذهبت الى « اوتيل فيكتوريا » وقضيت تلك الليلة فيه وصحوت في الساعة الرابعة وارديت ملابتي بسرعة وطرق الندل « الكرسون » الباب ليوقظني حسب طلبي في المساء فوجدني جاهزاً فأحضرتني « عربية » اجرة ونقل امتعتي اليها وكان الثلج يتساقط والبرد شديداً والشوارع مظلمة وليس فيها مصباح مضاء وكان النور الكهربائي مقطوعاً من التكية كما فهمت من شرطي المحطة بعد وصولي وكانت شوارع دمشق في تلك الأيام لا تفرق عن شوارع القرى ولم تكن البلدية تعني الا بالشوارع التي تحيط بدائرة الحكومة ، اما بقية المحلات خصوصاً النائية كمحلة الميدان وقبر عاتكة وامثالها فانها كانت مهجلة ينجل الانسان ان يمر فيها من الوجود . وبعد ساعة من خروجنا وصلنا الى محطة القدم ويعلم الله ماذا لقيت والحزني من البرد في هذه المدة القليلة وكان وصولنا قبل وقت حركة القطار بمدة فوجدت الكثيرين من الركاب ينتظرون القطار ولم تكن المحطة بعد معبدة الطرقات وليس فيها رواق يمنع الأمطار عن المنتظرين وبقينا في المحطة والمضلات في ايدينا تحميننا من الثلوج . وفي الساعة السادسة تماماً تحرك القطار الى حيفا وسبب سفري الى حيفا ان طريق بيروت كان مسدوداً من الثلوج وبقى اربعين يوماً مسدوداً بين بيروت ودمشق .

سار القطار بنا وكدنا نموت من البرد لاني احد الواح الزجاج مكسور وليس في العربات مدافع « شوفاج سنترال » وكانت عربات الركوب قليلة والركاب كثيرين ولم اتمكن من إيجاد محل وقد تحاملنا على

النافذة المكسورة وسددناها ببعض الأمتعة حتى منعنا عنا دخول الهواء  
 الثلوج والغريب ان ادارة السمكة كانت بأيدي الحكومة لأن خط حيفا  
 والمدينة هو خط حكومي ( مؤتم ) فاذا شكونا امرنا لايسمع احد  
 شكوانا لأن ادارة الخط ادارة حكومية وتحمل برادة هذه السفرة الى حيفا  
 بكل نفس ذائقة الموت والخط الحجازي مصلحة خاصة سباني لها بحث



عطة القدم للخط الحجازي يوم سفري الى اوربا

خاص فيما بعد وكانت مناظر الثلوج المتساقطة على الحقول والجبال رائمة  
 جداً ولما وصلنا الى جسر المقارن انقطع الثلج وفي المساء وصلنا الى  
 مدينة حيفا .

\*\*\*

حيفا :

بلدة جميلة من أطف البلاد العثمانية الساحلية ومناظرها



بديمة وجبل الكرميل يسلب اللب وهي بلدة زراعية تجارية ولكنها كانت  
متأخرة كبقية البلاد العثمانية وشوارعها ضيقة فيها من الوحول ما يشوه  
جمالها ويزيل بهجتها وللأسف لم أجد فيها فندقاً إلا فندق « بقوب ليني »  
ولم تكن الحالة بيننا وبين اليهود متوترة وكنا نعاملهم كبقية العناصر  
العثمانية وبعد ان استرحت قليلا خرجت الى السوق وتناولت طعامي في  
دكان شوا ، وكان قدرة على ( طاولة ) من الخشب ( مزفته ) من الدهن  
الذي عليها وجعلت ادور في البلدة لقضاء السهرة فلم اجدهم مقبى لا تقياً  
بالمسافرين ووجدت مسرحاً يضربون على بابها آلات موسيقية عسكرية  
« كلارنيت وبوكلي وطبل وترامبت » فدخلت مع الداخلين ودفعت  
الاجرة نصف بشتاك وكان اللاعبون جوقة موسيقية تمثيلية مصرية  
ولكن الجميع كانوا من الرجال وبعد ان اسمعونا شيئاً من الغناء خرجت  
راقصة مشوقة القوام واجادت الرقص واحسنه ايما احسان مما استلقت  
نظر الجميع وبعد نزول الستارة خرجت تم الاكرامية ( البالصة ) فصار  
الناس يداعبونها واذا بها شاب صوته عريض يقلد النساء بالرقص على رأسه  
شعر مستعار ، وقد فهمت ان ظهور الراقصات على المسرح لا يجوز وهو  
ممنوع بأمر الفاعقام ومسموح للرجال تقليد النساء وكان هذا في البلاد  
العثمانية معروفاً مشهوراً والاشراك يسمون الرجل الذي يمثل دور البنات  
« زينه » ثم لعب المثلون دوراً هزلياً ختموا فيه الليلة وعادت  
الى الفندق ولما صحوت في الصباح الباكر ذهبت اولاً الى الميناء وسألت عن  
البواخر التي تسافر ذلك اليوم الى الاسكندرية فأخبروني ان احديها باخر  
الشركة الحديدية المسماة « قصير » ستصل العصر الى حيفا وتقلع منها في  
الساعة الرابعة عربة ليلا أي في الساعة العاشرة زوالية مساء فعدت الى



البلد وأكلت ما ينقصني من الحوائج خصوصاً أدوات طبخ الطعام التي حملتها من بلادي الى اوربا وعادت معي الى دمشق دون ان احتاج اليها الا في طريقنا من فينا الى الآستانة عند رجوعنا كما سيحيي ذلك فيما بعد . ثم ذكرت لأحد مالاقيت الأمس من العناء في تناول طعام المشاء فقال أصلحك الله ان في البلدة مطعماً نفيساً يسمى « مطعم الكازار » وهو مطعم نظيف في موقع جميل يطل على البحر حسن الرياش وخدامه آية في النظافة مما غير فكري في حيفا فذهبت الى الكازار ورأيت حقيقه كما قال الرجل فتناولت الطعام وخرجت افش عن محل ( عبد الله افندي مخلص ) وأنا ألوم نفسي لتسرعي بالحكم على مطعم حيفا بالأمس وقلت على المرء ان لا يحكم قبل ان يحقق ( وعبد الله مخلص ) من اصدقاء محمد بك كرد علي



الاستاذ عبد الله افندي مخلص

الذين يعتمد عليهم كل الاعتماد وهو من ادياء العرب وعلمائهم وكنت احمل اليه كتاباً من صديقه كرد علي يوصيه بي خيراً وارشدوني اليه في الميناء وكان مديراً « لمنبر » مستودع السكة الحجازية فلما قرأ الكتاب رجب بي ترحيباً قلبياً وأجلسني الى جانبه واحضر لي القهوة واخبرته خبري فجعل

يؤانسني ويشجعني على المضي في طريق العلم واستعلم عن قدوم الباخرة  
 « الفصير » وعرف انها ستصل العصر فأرسل بصحبتني احد الكتاب المدعو  
 رضا افندي وسرنا الى « الآجنته الخديوية » مركز فرع الشركة في حيفا  
 لقطع تذكرة سفر فتمنع الموظف الانكليزي عن اعطائي التذكرة لاني  
 من دمشق وكانت الحكومة المصرية لا تقبل دخول احد الشاميين الى  
 القطر المصري خوفاً من ان يكون الشامي آتياً من الحجاز وكانت بلاد  
 الحجاز موبوءة في ذلك العام وكان الخوف من دخول « جرائم الكوليرا » الى  
 القطر وعدت الى عبد الله افندي لمخلص فقام وغاب مدة قليلة وعاد معه  
 اوراق رسمية تثبت اني من موظفي الخط الحجازي ومن الذين لم يذهبوا  
 الى الحجاز في هذه السنة .  
 وبناء على هذه الأوراق اخذت تذكرة سفر مع خصم ٤٠ / لاني من  
 مستخدمي سكة الحجاز .

\*\*\*

سامي باشا مردم بك :



سامي باشا مردم بك

وبينا انا في الميناء بين « العنبر »  
 و « الآجنته » واذ بسامي باشا مردم بك  
 وهو من وجوه دمشق مع ابن عمه راشد  
 باشا وبعض الدمشقيين مثل صادق افندي  
 جبيري والدكتور سليم افندي صبري  
 وغيرهم من التجار الذين فاتتني اسماؤهم  
 عرفوا بسفري الى اوربا ولا ادري  
 من اين فهموا اني ذاهب دون اذن  
 والذي فتجمروا علي وجعلوا  
 ينصحوني بالعودة لاخذ اذن والذي



وبعد هذا اسافر واصروا علي بذلك ولكي لم «أخز» الشيطان على رأبهم وبقيت  
مصرأ على السفر وهكذا كان .

\*\*\*

في طريقنا الى الباخرة قصير :

في الساعة الرابعة وصلت الباخرة وألقت مراسيها خارج الميناء ونزل  
الركاب بالرغم عن هياج البحر . وكان بين الركاب بعض الدمشقيين الذين  
ركبوا من بيروت اخبروني ان والدي وصل اليها عائدأ من الاستانه .  
( اسطنبول ) وان الطريق بين دمشق وبيروت سدته الثلوج وبيننا نحن في  
هذا الحديث واذ بقارب عليه علم يضطرب في البحر وتلاعب به الامواج  
ينقلب بمن فيه في منتصف الطريق بين الميناء والباخرة وبادر  
الملاحون لانقاذ الغرقى فانقذوهم جميعأ وكان هذا القارب قرب البريد  
الروسي والعلم الذي كان يرفعه هو العلم الروسي ، جرى هذا امام الناس  
فاحجم الكثيرون عن السفر خوفاً من هياج البحر كما انهم لم يتمكنوا من  
تحميل الحمضيات او صناديق التجارة لهياج البحر وجاء عبد الله افندي مخاص  
الى الميناء وبواسطته تمكنت من ايجاد ملاحين يوصلوني الى الباخرة وكانت  
الجرة الراكب في مثل هذه الاحوال ليرة افرنسية ذهبية وملاحو حيفا  
مشهورون بهذه الصنعة يفوقون البيرونيين واليافاويين بالمهارة وشده البأس  
والقوة وعندما انزلنا الامتعة الى القارب وقفت اودع الدمشقيين وقد  
اعاد الجميع علي الككرة برجوني تأخير سفري الى ان يهدأ البحر فلم اقبل  
خوفاً من ان يحضر احد من دمشق او يأتي تلغراف الى الحكومة بانزوم  
منعي عن السفر فيتأخر سفري وقلت : لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .  
بوودعت الجماعة وركبت القارب وكان فيه سبعة ملاحين اكثرهم رؤساء



وأحد الرؤساء نادى ابنه فجاء وركب في المؤخرة لأدارة الدفة  
وسار بنا القارب . قبل غروب الشمس وجميع الناس الواقفين على رصيف  
الميناء جعلوا يدعون الى الله . وكلما جئذف الملاحون وتقدموا خمسة  
امتار يأتي الموج ويردنا اربعة امتار الى الوراى وعلى الرغم من اني لم اركب  
البحر في عمري لم اخف ولم يصيبني الدوار وكنت اشجع الملاحين



احد القوارب التي كانت تنقل الركاب من الميناء الى البواخر  
قبل الحرب العامة الاولى

واحدثهم وهم يضحكون كأنهم ذاهبون الى منزله وقد ببح صوتي من شدة  
الصياح لان هدير الامواج كان يذهب بالصوت ادراج الرياح ودخلت  
العممة وكثر الضباب وبعدنا عن البلدة ولم يعد يظهر لنا الا نور مصابيحها  
وكانت انوار الباخرة تظهر لنا من بعد وبينما نحن سائرون باتجاه الباخرة  
واذا بالقارب يتحول سيره ويتحرف قليلا عن اتجاهه فنهت ابن الرئيس

الى ذلك فقال لا تخف نحن ذاهبون الى مستودع هنا في البحر لناخذ بمض  
الملاحين من هناك الى البلدة وبدلاً من ان نأخذهم في الرجعة نأخذهم الآن  
ليساعدونا بالتجديف فقتعت وصرنا نمر بقوارب مربوطة بالصخور فسألت  
عنها فقالوا ان الملاحين يربطون قواربهم قرب مستودع الكلس او الفحم  
(لم اعد اذكر) خوفاً عليها من الاصطدام بالصخور اذا هم ابقوها  
في الشاطئ لان ميناء حيفا كانت تخيف البحارة وايست مثل ميناء  
الاسكندرية أو بور سعيد مثلاً .

وبقينا نسير مدة غير قليلة بين الصخور الى ان وصلنا الى المستودع  
وهو قائم في البحر على صخور مرتفعة عدة امتار عن سطح البحر واصطدم  
القارب بجانب المستودع فجعل ابن الرئيس يشتم بعبارات بذئية لم  
اسمع مثلها في عمري وخاف الجميع من الفرق وبعد قليل سمعنا لفظاً فنادى  
احد الملاحين فاجابوه فتقدمنا بحذر من محلهم والبخارة يتعاشون اصطدام  
القارب بصخرة او بجانب المستودع الى ان وصلنا الى المستودع فزل سبعة  
اشخاص الى القارب وجعل يحذف كل اثنين بمجذاف وعدنا الى البحر  
واتجهنا نحو الباخرة ولولا اتساع القارب ومهارة الملاحين ما وصلنا سالمين ولم  
نكد نقرب من الباخرة حتى سمعنا سلاسل السلم وهو يرتفع فجعلوا يصيحون  
باعلى اصواتهم على الطائفة الذين عرفوا بوصولنا فاعادوا السلم وصعدت الى  
الباخرة واصعدوا الحقايب والاعراض وارادت اعطاهم الأجرة فأبوا  
اكراماً لعبد الله افندي ولائي ذاهب في طلب العلم فشكرتهم ونقدت الذي  
اصد حقائبي ريالاً مجيدياً بخشياً فتمنع ايضاً ولكني اقسمت فأخذه  
وودعتهم وعادوا بالسلامة الى حيفا .

ورؤساء الملاحين الذين رافقوني في تلك الليلة هم السادة : الرئيس محمود



رنتو ، الرئيس احمد حسن رنتو ، السيد اسعد ابو زيد ، السيد احمد ابو زيد ، السيد حسن الحاج ابراهيم ، السيد محمد الحاج ابراهيم فلمهم الشكر اولاً وآخراً على هذا المعروف الذي يجب ان يسطر لهم في هذه المذكرات ورحم الله المتني حيث يقول :

لاخيل عندك تهديها ولا مال فليسمع انطق ان لم تسمع الحال  
فالى الاحياء منهم شكري والى من قضى منهم الرحمة والغفران .  
في الساعة السابعة والنصف زوالية من ذلك اليوم اقلعت بنا الباخرة  
من حيفا وهي باخرة صغيرة ليس فيها شيء من الحمولة وما كدنا نبحر  
حتى اشتد البحر وهاج وجعل يلعب بالباخرة كما تلعب الريح بالريشة وقد  
تحمل الركاب حتى بعض البحارة منهم آلاماً شديدة من الدوار وذهب كل  
راكب الى فراشه وذهبت الى « قمرتي » (١) ونمت الى الصباح نوماً  
مقطعاً حيث صحت في الساعة السابعة من يوم الاثنين ٢٠ شباط ١٩١١  
وصعدت الى الظهر فوجدت الباخرة متجهة الى يافا والمدينة قريبة منا وبعد  
ساعة تقريباً ربطت الباخرة بميداً عن الميناء وكان البحر ساكناً وقال  
الملاحون ان البحر منذ عشرين يوماً لم يسكن ولم تقف باخرة في يافا اشددة  
هياجه وهذه اول باخرة تقف منذ عشرين يوماً فحمدنا الله واقبل الركاب  
والتجار واشتغل الملاحون بنقل صناديق البرتقال وما زالوا يعبثون بالباخرة  
الى ان امتلأت غنابرها وامتلاء الظهر حتى وضعوا صناديق البرتقال في جوانب  
الممرات مما ساعد على تحمل الباخرة لهياج البحر لأنها لما كانت فارغة كانت  
العواصف تلعب بها اما بعد الحمولة فكان البحر بالرغم عن هياجه اقل  
تأثيراً بمداعبتها .

(١) القمرة ، الغرفة في البواخر تسمى قمر



### مدينة يافا :

ما يذكر ان الباعة المتجولين صدعوا من القوارب الى الباخرة يحملون بضائع مختلفة اكثرها من مصنوعات القدس وضواحيها وهي من خشب محفور واصداف مرصوفة ومسابيح وصلبان وغير ذلك من المصنوعات التي يعدها متدينو المسيحيين من الآثار المقدسة وركب في الباخرة كثيرون من زوار القدس من الاوربيين الذين كانوا منقطعين في القدس منذ عشرين يوما للنوء الشديد الذي حصل في ذلك العام وفي الساعة التاسعة زواله ( ١ ) اقلت بنا الباخرة من يافا . وفي الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء الواقع في ٢١ / شباط ١٩١١ ظهرت لنا مدينة بور سعيد المصرية .

\*\*\*

### مدينة بور سعيد :

في الساعة الواحدة بعد الظهر ربطت الباخرة في الميناء ونزل اكثر الركاب رأسا الى الرصيف دون استعمال القوارب ونزلت مع رفيق تعرفت عليه في الباخرة يدعى « كرياكو بك » وهو احد موظفي وزارة الزراعة في الاسكندرية ، اردنا التفرج على البلدة فحصلنا على رخصة من موظف جالس خلف منضدة من خشب وامامه حاجز من الخشب « كلدرايزين » اخذنا اليه حمال في صدره قطعة نحاس محفور فيها رقمه وكفلنا عند هذا الموظف باننا سنعود بمد الفرجة على البلدة وبعد ان تفتت الموظف من اننا لم نكن في الحجاز سمح لنا بالخروج فخرجنا من باب يحرسه رجل يسمونه ( عسكري (٢) ) اعطيتهم ورقة (المقاة) التي اخذناها فسمح لنا بالمرور فخرجنا

(١) كان اهل دمشق وجميع الثمانين يستعملون الساعات العربية في معرفة اوقاتها وقد اتبعت الوقت على الساعة الزوالية منذ ركوب من جيفا فنتبه .  
(٢) العسكر كلمة كان يستعملها الاتراك للجنود فاذا قلت عسكر يعني الجيش والعسكري مفردا الجندي والمصريون لم يزالوا يستعملونها الى اليوم بهذا المعنى .

ودرنا في هذه البلدة اللطيفة التي اثرت مناظرها بي تأثيراً كبيراً لاني لم  
أكن خرجت قبلاً من دمشق وجعلت اقرن بين نظائرها ووساخة دمشق  
وقلت ليت ربي يرزق دمشق رئيساً لبلديتها فيجعلها « كبور سعيد » .  
ووصلنا في سيرنا الى دائرة البريد وكانت تسمى « دائرة البوسطة »  
فكثبت تحارير الى والدي واصدقائي ووضعتها في صندوق البريد واتمنا  
الفسحة وفرجنا على الحدائق والشوارع .

جلسنا في احد المقاهي نتناول كأساً من الشاي واذ بجوقة موسيقية  
مؤلفة من نساء ورجال دخلت المقهى وجعلت تعزف القطع الموسيقية الأفرنجية  
تماماً لي يكن لي عهد به ودارت احدى النساء ويدها صينية على الجالسين  
تستجدي منهم الأجرة ويسمونها « البلصة او البالصة » وانتقلت الجوقة  
الى مقهى آخر وعدنا الى الباخرة واشترت في طريقي عصاً من جلد داخلها  
قضيب حديدي وهي ثقيلة جداً افادتني في الرحلة كثيراً كما سيجي ومن  
الضروري لكل انسان ان يحمل بيده عصاً قوية والعصا نصف سلاح .

وصلنا الباخرة وجاءنا الكفيل يطلب اجرتة فنقده كل واحد مننا  
فرنسكا وذهب شاكرأ . بخلاف دليل اسكندرية الذي سيأتي خبره قريباً .

\*\*\*

### حركة الباخرة :

أقلعت الباخرة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين وسارت  
ببطء وانتشر الركاب افراداً وجماعات في الماشي وعلى السطح منهم من  
راح يتعشى ومنهم من جلس يتمتع بالمناظر ومنهم من أخذ يفتي دمدمة او  
بصفر والباخرة تتعدى ثم اسرعت بالسير وبدأ الليل يخيم ودخل الركاب



متتابعين الى صالونات الباخرة منهم من يطالع ومنهم من يلعب الورق او الشطرنج . وقضينا سهرة لطيفة وقد اجتمع فريق كبير في احدى زوايا صالون الطبقة الثانية وجعلوا يتحدثون وكل من عنده حكاية لطيفة او طرفة طريفة يلقونها على المسافرين وهم يضحكون ولا شك ان السفر اكبر مدرسة للانسان ورفي البشر يظهر في مثل هذه السفرات وكلما طالت السفرة ظهرت الاخلاق على حقيقتها .

والمسافر لا بد له من ان يجتمع ويتعرف الى اناس مختلفين منهم اللطيف ومنهم الثقيل وويل لمن يصطحب ثقيلًا في سفره ، لاشك في انه ( بعدم عافيته معه ) . ووصيتي لسلك من اراد السفر ان يختار الرفيق قبل الطريق خصوصاً في السفرات البعيدة والرفيق ضروري في مثل هذه السفرات لان الانسان معرض للحوادث والسعيد من يتمكن من إيجاد الرفيق الموافق وكثرة الرفقاء في اي سفر بلاه خصوصاً اذا كانت مشاربهم مختلفة او ان بينهم من صحته ( منحرفة ) .

\*\*\*

### الاسكندرية :

في الساعة السادسة من صباح الاربعاء في ٢٤ شباط ١٩١١ ، ايقظني « الكرسون » معلنا وصولنا الى الاسكندرية ، فاسرعت بجمع حوائجي ووضعها في الحقائب وأفطرت ثم وقفت على سطح الباخرة اتمتع بمنظر المرفأ والسفن والحركة في هذا المرفأ الجميل ورسيت الباخرة جانب الرصيف في الساعة التاسعة ونزل الركاب ولما صرنا على البر سألت عن البواخر المسافرة الى مرسيليا واوقاتها فاعلموني ان باخرة المانية ستقوم مساء اليوم الى مرسيليا اسمها « البرنس هنري » فسررت وذهبت قبل ان اخرج امتعتي .

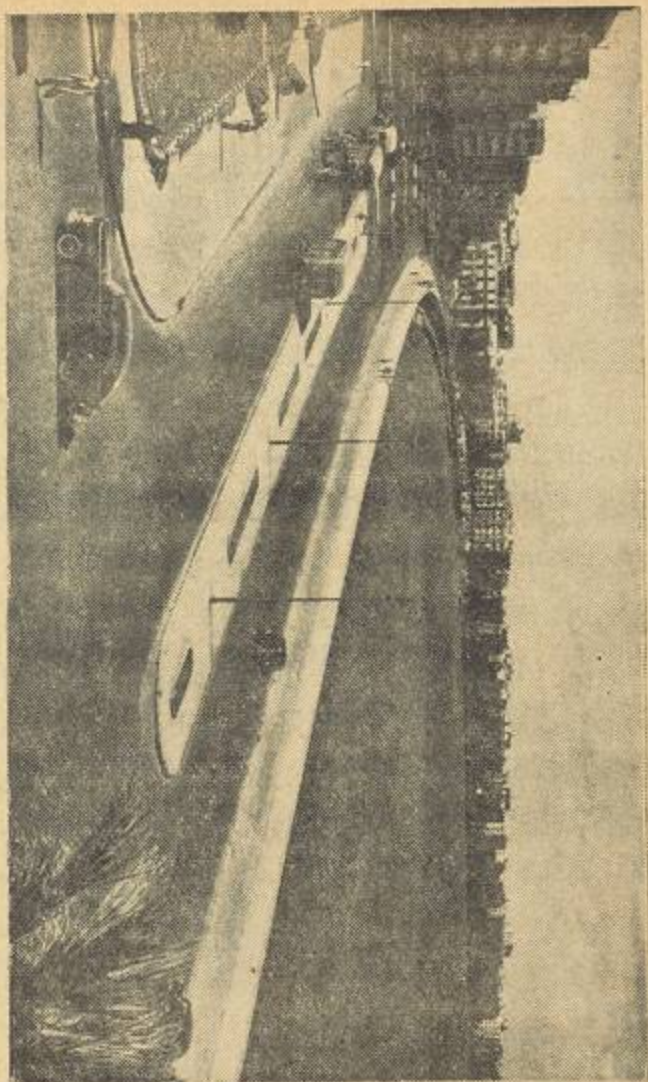


من الباخرة « القصير » الى « الأجنطة » الألمانية وقطعت تذكرة  
ونقلت امتعتي من باخرة الى باخرة بسرعة ولما كان لدينا وقت طويل للسفر  
طلبت من مدير الميناء اذنا بالسباح لي بالخروج الى الاسكندرية للتمتع  
بمناظرها والتفرج عليها فسمح لي وخرج معي نيقولا كريباكو بك وتقدم  
منا دليل أحب أن يدلنا على البلدة فأبى رفيقي كريباكو بك ولكني أصررت  
وأخذنا الدليل وسرنا في البلدة بعد أن كفلنا الدليل لدى الموظف في المرفأ  
على أنف يعود بنا قبل أن تطلع الباخرة ، ولم يسمح لنا الموظف بالخروج  
الا بعد ان اطّلع على أوراقنا والمستندات التي تشعر بأننا سفنادر الاسكندرية  
أنا الى مرسيليا وكريباكو الى الآستانة .

وعلى هذا خرجنا نتمشى في الشوارع واستأجرنا عربية ركبناها ودرنا  
في البلدة مقدار ساعة وطلب كريباكو مني ان نتمشى لأن السائح يتمكن  
في السير من رؤية البلدة اكثر من الراكب فأجبتة الى طلبه وقد لاحظت  
كثرة الباعة المتجولون يحملون في ايديهم الحوائج الخفيفة كالافلام والامشاط  
وغير ذلك واذا عرفوا ان المشتري غير مصري يطلبون ثمن الحاجة اضعافاً  
مضاعفة ومها انقص المشتري من الثمن يجد الحاجة باهظة وقد طلب مني  
احدهم سبعون غرشاً ثمن قلم حبر فرفضت وما زال ينزل من الثمن حتى  
اخذته بعشرة قروش فتأمل .

والفقراء اكثر خصوصاً الاولاد كانوا يسرون حفاة عراة الرؤوس  
يلحقون السياح يطلبون الصدقة بالحاح بصورة بشعة كما هو الحال في بلاد الشرق .  
بلدة الاسكندرية بلدة جميلة لا يمكن وصفها بمجرد مرور طريق  
ولكن يمكنني ان اقول انها ثغر جميل ( باسم ) فيها حركة عظيمة . اشتريت

منظر من مناظر نهر الاسكندرية بالأمم





منها بعض الكتب وبيننا نحن في الطريق مررنا بمصرف « كريديليو نة »  
 فقال كريا كوبك ان لي اموالاً مودوعة في البنك مرادى سحب شيء منها  
 ودخلنا المصرف وطلب سحب ائمال وطلبوا منه اشخاصاً يعرفونه فقال  
 للدليل تعال معي لنحضر لهم من يعرف بي وخرجنا من المصرف وجعل  
 كريا كو يسير بنا من محل لآخر والدليل يسأله الى أين انت سائر فيقول  
 إلحق . الى ان وصلنا الى امام بناية عظيمة فقال له وصلنا إنتظروني هنا  
 لأحضر احد اصدقائي ودخل من الباب « ويا ايديكم » وخرج من باب آخر  
 وانتظرنا مقدار ربع ساعة والبيك لم يحضر ودخلنا نفثس ولكن « اين  
 فطيم بسوق الغزل » وبعد ان درنا جميع الوكالة غرفة غرفة ولم نجد له أثراً  
 عرفنا انه محتال وجد وسيلة للهرب « ففر كها » ولا تسئل عن الدليل  
 الكفيل وما اصابه من الازعاج فلطم على وجهه حتى كاد ان يدمي  
 خدوده وجعل يصيح وخرج الزبد من فيه وأخذ بتلايبي وقال وهو يبكي  
 وينوح انت المسؤول عن رفيقك : ( يا لله وياي للقسام ) واجتمع حولنا  
 الناس وما أقنعته بازوم السير الى المرفأ لاجبار مديره بالأمر الا بألف  
 جهد جهيد ولما وصلنا أعاد الرواية ( وزاد بازعبرة ) امام الموظف الذي  
 كفلنا عنده وجعل ينادي ياعسكري وجاء شرطي أصمير طويل فشكلني اليه  
 وأخبرته الخبر وقلت مادام هذا الدليل يعرف البلدة كان عليه ان يدخل  
 مع الرجل طالما يعرف ان هذه البناية لها ابواب عديدة وكريا كو رومي  
 وأنا عربي ولا رابطة بيننا غير معرفة الطريق فما ذنبي اذا هرب منه وهنا  
 تداخل اولاد الحلال وقالوا ( ارضيه ) قلت بماذا أرضيه فقَالَ أحدم  
 ( بكم جنيه ) وهنا بدأت الرواية تتجدد وزاد الرجل بالصراخ وبالرغم من  
 أنني قبلت أن أدفع له نصف ( بينتو ) أي نصف ليرة افرنسية ذهب فانه لم

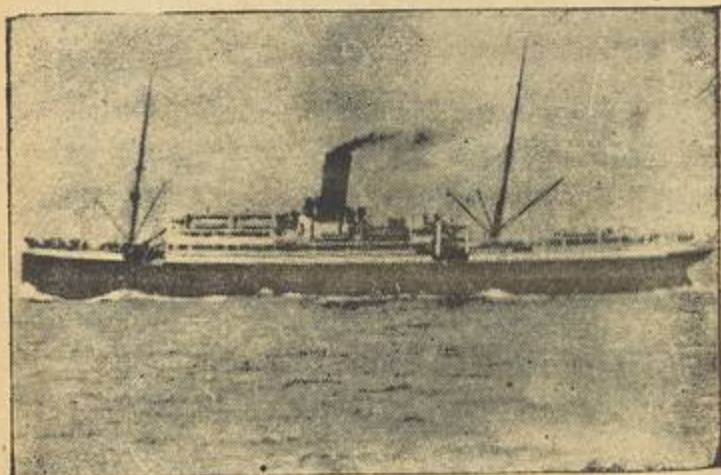


يقبل الا ان نذهب الى القسم فقلت بالله الى اقسام يوجد هناك قطع اس ،  
ولما عرف مني الجد تراجع وقبل النصف ( يبتو ) وهو يشتم كريكو  
بكل مسبة بذيته ، وبعد ان انتهت هذه المشكلة صعدت الى الباخرة الجديدة .

\*\*\*

( الوابور البرنس هنري ) :

هذه الباخرة من بواخر شركة « نورد دوتشر لويد بريمن »



الباخرة البرنس هنري

Prinz Norddeutscher Lloyd Brimm واسمها البرنس هنري  
henrich « وفيها ٣٤٣ قرة (١) لعموم الدرجات بريمن اولى وعدد قمراتها  
« ٢٨٠ » و « سيكوندو » ثانية وعدد قمراتها « ٤٥ » وثالثة وعدد قمراتها « ١٨ »

(١) القمرة كلمة اصطلح عليها المسافرون للفرقة المختصة للنوم في البواخر ولا  
ادري مصدرها .

والأسرة في القمرات في الأولى سرير أو سريران وفي بعضها ثلاثة حسب طلب الراكب ، وأجرة الدرجة اثنا عشر أربعة وستة والثالثة أربعة وستة أو ثمانية والأسرة في القمرتين الثانية والثالثة فوق بعضها ، أما في الأولى ففي كل قمر من ٢ الى ٣ أسرة وجميع القمرات فيها مغاسل تامة وكلها نظيفة وغير هذه الدرجات يوجد السطح ويسمونه ظهر الباخرة والسفر عليه في الصيف لطيف جداً أما في الشتاء فهو مزيج لما يصيب الراكب من تبدل الأنواء من الدوار .

\*\*\*

### صالونات الباخرة وغرف الطعام :

لهذه الباخرة في كل درجة صالون للجلوس يختلف باختلاف الدرجات واحسنها « البريمو » فيه مناخد مختلفة مفروش برياش ثمينة وفيه آلة الموسيقى « بيانو » كبيرة يعزف عليها من شاء من الراكب ويقدم في الصالونات جميع انواع الألعاب كالورق والشطرنج والداما والدومينو وغيرها من الالاب المختصة للصالونات من البريتش للبوكر الى غير ذلك .

وغرف الطعام نظيفة والدرجة الأولى أوانها جميلة ثمينة وعلى كل وحدة من ادوات المائدة علامة الباخرة متخذة شعاراً للأواني وجميع أدوات الباخرة والشعار هو حرفا ( P.H. ب.هـ.ف ) وهما اول حروف البرنس هنري . وكان لكل درجة تماثلي خاصة مع ملاعب على سطح الباخرة وفي المائتي يوضع للراكب كرسي بحرية تفتح وتغلق وتمدد حسب طلب الراكب منها ما يحضره المسافر صحبته ومنها يعطى من قبل ادارة الباخرة مقابل فرنكين اجرة الكرسي من الاسكندرية الى مرسيليا والفرنك معادل



ربع ريال عثماني وعلى جانب كل كرسي اطار صغير ثابت من النحاس يوضع فيه بطاقة ( كارت ) يحمل اسم مستأجره أو صاحبه .

\*\*\*

### ملاعب الباخرة :

يوجد على الظهر ملاعب المدرجات الثلاث فيها أنواع من اللعب منها لعبة فاتي اسمها لم اقبل ، بمفكرتي وهي عبارة عن مربعات مخططة في الأرض واقراص من خشب رقيقة مبسطة بشكل دائرة تضرب بعصوات في اسفلها قطعة من خشب مبسطة بقدر الكف فتدفع الاقراص الى المربعات والشاطر من اللاعبين لا يمكن خصمه من وضع اقراصه في المربعات بل يسعى بضرب اقراصه لاخراج اقراص اللاعب الآخر وقد دخلت في هذه اللعبة وبأقل من ربع ساعة أصبحت بطلا فيها وهناك لعبة اخرى وهي عبارة عن اكياس صغيرة مملوءة رملا ترمى من بعد الى مربعات غير مربعات اللعبة السابقة في هذه المربعات ارقام لكل مربع رقم يرمي اللاعب بالكيس فمن وصل كيسه ابعد من غيره يكون هو الرابح وهذه لعبة لاظهار القوة وغيرها : خشبة مستطيلة بثخن عشر سنتيمات في وسطها عمود رأسه كالأهرام بارتفاع متر في جانبه عدد من حلقات الليف شبيه الكعك يرمي اللاعب من بعد مخصوص بالحلقة فالذي يدخل اكثر من غيره حلقاتاً من الليف في العمود يكون هو الرابح والتلصص كان هناك عدة ألعاب لازوم لذكورها كلها واكثر الركاب يشتركون باللعب نساء ورجالا ولا يمنع عن اللعب الا من يجهد الألعاب ولا افتخر اذا قلت بانني تعلمت جميع هذه الألعاب واتقنتها وكنت محور اللعب طول هذه الفترة . ويوجد من الألعاب غير ما ذكرت لعبة سبق الخيل وهي من اخشاب على شكل الفرسان



تصف في مربعات ستة بعضها جانب بعض لكل فارس بيت خاص كبيوت الشطرنج وكل فارس يحمل رقماً ، وبهذه اللعبة شبكة من شريط مخروطي كساعة الزجاج الرملية لها طرفان مثقوبة من المنتصف عند اجتماع رؤوس المخروطين تدار بدولاب فيها ثلاثة فصوص من الفصوص الترد كبيرة الحجم يحرك دولابها بالدوران ومتى وقف الدولاب تسقط الفصوص المسدسة الأوجه وتستقر في أسفل الشبكة فالرقم الذي يكون في الوجه الأعلى من الزهر يسير فارسه قطعاً المربعات بمقدار اعداد الرقم فإن وقف الزهر على رقم ثلاثة واربعة وستة مشى الفارس ذو الرقم الثالث وذو الرقم الرابع وذو الرقم السادس وإذا جاء الثلاث زهرات برقم واحد يسير فارس الرقم ثلاثة بيوت من بيوت ذلك الرقم والذي يسير الفارس احد الخدم ينقل الفارسان في البيوت الى ان يسبق اول فارس فيكون الرابع للسبق ولهذا سبق اوراق تباع المتفرجين يتراهنون فيها على السابق مقابل مبلغ طفيف يجمع في نهاية الشوط بمجموع الدراهم المدفوعة ثمن اوراق اللعب ويخص منها ( ١٠ ) بالمائة لادارة الباخرة والباقي يعطى للراجلين اي لمن يحملون اوراقاً برقم الفارس الفائز وهذه اللعبة مسلية ولكنها على كل حال لعبة ( قار ) .

\*\*\*

### في البحر الابيض المتوسط :

قلت ان الباخرة تحركت بنا في الساعة الثانية من بعد ظهر الاربعاء في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط ١٩١١ من ميناء الاسكندرية وكان البحر في غاية الهدوء والهواء عليلاً والركاب يمرحون في الماشي وعلى ظهر الباخرة يسرون ازواجاً وفرادى وتقدم مني شابان يتكلمان باللغة العربية جيداً باللهجة المصرية وقدما لي انفسهما احدهما يدعى «السيولاروخ»

بنظاظا والثاني يدعى باصيل بصالتي « وكلاهما يهودي وجلسنا في المعنى  
نتمتع بمناظر البحر والتموجات الخفيفة ونحدث أحاديث مختلفة وبقينا  
على هذا المنوال الى ان حان وقت الطعام فتناولنا العشاء وصعدنا الى الصالون  
وهناك اجتمع جميع ركاب الدرجة الثانية وبدأ التعارف بين الركاب وكان  
بينهم رجل الماني بدين يدعى « الهر بريك » خفيف الروح جداً لم يترك فرصة  
الا اقتنصها للتفريغ عن المسافرين وتسليتهم وبالحق انه كان سلوتنا من  
الاسكندرية الى مرسيليا وبعد التعارف مع بعض الركاب اتحى كل جماعة  
منهم ناحية وجعلوا يلعبون الورق والشطرنج والترد ودار باروخ ورفيقه  
باصيل على الحاضرين يسعون بتشكيل لعبة « بوكر » فتوقوا لاجتاد بعض  
اللاعبين وسألوني هل تلعب البوكر؟ قلت لا . قالوا تعال نلعبك اياها قلت  
لا اريد . قالوا لماذا؟ قلت لانها في البدء لعبة بوكر ولكنها في النهاية  
« بون بير » . ومعناها باللغة التركية « أكل هوا ... » وكان جاني رجلان  
يسمعان حديثنا فضحكا وكانني باللغة التركية وهما روميان ، وكان هذا  
الحديث ورفض اللعب سبباً لعقد أواصر الصداقة بيننا احدهما يدعى  
قسطاكى افندي . والثاني جورجى افندي وقد قضيت اكثر اوقات السفر  
من الاسكندرية الى مرسيليا بصحبتهما وتقدم مني شاب ايطالي وعرفني بنفسه  
يدعى « الميوميثيل سبيرنك » يتكلم اللغة الأفرنسية بصعوبة ، هذا الشاب  
جائني يوماً الى غرفتي وغرفة البواخر تسمى « قرة » وجلس عندي يتحدثني  
بلغة أفرنسية مكسرة ومع الأسف كانت أفرنسيي مكسرة اكثر منه  
وبعد فترة من الزمن اخرج من جيبه رسوم بنات عاريات بأوضاع مختلفة  
ورسوم اخرى فيها مناظر فحش وأفهني ان الباخرة سوف تقف في نابولي  
وانه يعرف نابولي وله فيها صديقات من هؤلاء النسوة وقدم نفسه لي



كدليل خير يجب خدمة الأنسانية مقابل أجر طفيف لا يزيد عن الخمسين  
فرنكا مقابل تعريفي بأحدى الفتيات الجميلات فصرفته بالحسنى وتجنبتة بعد  
ذلك وعندما نزلنا في نابولي « فركتها » منه ولم اصاحبه في الجولة التي  
جلتها فيها كما سيجي .

\*\*\*

### الشطرنج :

من الألعاب المحببة الى المسافرين لعبة الشطرنج والذين كانوا يلعبونها  
اكثرهم من الطبقة الغنية وقد جلست الى جانب لاعبين يلعبان بالشطرنج  
وقضيت وقتا طويلا جانبها وانا اتفرج دون ان اتكلم كلمة واحدة ولم « ادوب »



رقعة الشطرنج

لامع هذا ولا مع هذا « والدودية » في  
لغة الشطرنج هي ان يساعد المتفرج  
احد اللاعبين بالفاته الى لعبة اذا  
لعبها يكون له منها فائدة واكثر  
المتفرجين في بلادنا « يدودون » والذي  
رأيتة في اوربا « لايدوب » احد مع  
احد الا اذا كانوا شلة اصدقاء مرفوعة  
بينهم الكلفة ، وبعد ان اتبها من

لعبها سأني احد الجالسين وهو رجل « الماني يدعى المهر باربو » هل  
تلعب الشطرنج قلت قليلا ، قال اتحب ان تلعب ( دقا ) دستا بالشطرنج قلت  
نعم فلمبنا واجتمع حولنا اللاعبين للتفرج ولعبنا دستا خرجنا به ( باطه )  
ثم آخر غلبي فيه واتصف الليل وجعل الركاب ينسحبون الى ( قراتهم )



وكان البحر هادئاً والباخرة تسير بسرعة يسمع اراجلها صوت ضعيف وكان  
اهتزازها خفيفاً فلم يؤثر الدوران على احد وانسجبت الى قمرتي ونمت بهناء.

\*\*\*

### هل نسيت القبة :

صحت باكرآ ولما ارتديت ملايبي وجدت في رقبتي بعض الحرارة من  
قبة القميص ( الكوتشوك ) فلم أضعها وتركتها مع « الكرافات - قطة  
الرقبة » لاريح رقبتي وذهبت الى غرفة الطعام لتناول الفطور ( كسر  
الصفرة ) ولم أكد ان اصل الى المكان المخصص لي واتقدم للجلوس واذ  
يرئس الخدم ( شيف دو تابل ) يتقدم مني بلطف ويشير الى رقبتي قائلاً :  
اظنك نسيت القبة قلت لا وأريته حبوب الحرارة الظاهرة في رقبتي ، قال  
بأمكانك ان تلفها بشيء يستر الرقبة لأنه لا يجوز الجلوس على المائدة بين  
الركاب بدون ( قبة وكرافات ) فرجعت الى القمرة ووضعت قبتي وعدت  
وبعد الطعام قضينا الوقت على سطح الباخرة وفي المائتي بالرغم عن برودة  
الطقس واخيراً اخذت كتاباً وجلست في مقعدي اطالع وكأني الركاب  
منتشرين في الباخرة منهم من يدمدم ومنهم من يصفر لحنا ومنهم من يقرأ  
او يتحدث رفيقه وقرب الساعة العاشرة صباحاً جائي « المر باربو » طالباً  
اللعب بالشطرنج فقمتم الى الصالون وجلسنا نلعب دستاً .

\*\*\*

### السيدات والشطرنج :

وبينا كنا نلعب واذ بسيدة تدخل بصحبتها زوجها وابنتها ووقفوا يتفرون  
على اللعب وكان الالمانى يتكلم الأفرنسية بصعوبة كذلك كانت  
أفرنسيتي ولذلك كان تفاهمنا بالاشارة وبعد عشر ثقلات في الأحجار اخذت

الذست بغلطة غلطها الرجل وعند الأفرنج لا يجوز الرجوع في اللعب  
خلاف المادة عند العرب فانهم يرجعون في العابهم اذا كان الاتفاق بين  
اللاعبين على ذلك .

فلما اخذت الذست ( الدق ) صفقت بيدي وطلعت من القاموس  
كلمة انتقام وقلت له اخذت بثأري منك وجعلنا فضحكك جميعاً من تكلمي  
بالاشارة وقالت لي السيدة أتحب ان نلعب دستاً ولو لم يكن بيننا معرفة  
فقلت بكل سرور ، قالت أنا مدام المسيو فيليب وهذه ابنتي قلت وانا المسيو  
فخري وخطيبي في بلدتي فضحكنا وجلست فغلبتني دستين واخذت دستاً  
واحداً وقمنا على ان نمود الى اللعب مرة ثانية لأخذ الثأر وظهر ان زوجها  
يلعب اكثر منها لأنه نهبها الى بعض الألعاب أي ( ديدب ) معها ونهته  
الى لزوم الوقوف على الحياد واذا شاء لعبنا سوياً في وقت آخر فقبل وكانوا  
من ركاب الدرجة الأولى فذهبوا بعد اللعب وقمت الى الظهر استريح الهواء  
وجلست أطلع في كتاب تاريخ العباسيين وغرقت بالمطالعة ومرت امامي  
تلك العصور الزاهية ثم ادوار الانحطاط ، فتركت الكتاب وجعلت افكر  
بأمي العربية وهل يمود لها عجزها فنرجع امة حية بين الأمم أم نبقى عالة  
على البشرية نأكل ونشرب ونتام كالحيوانات وبقيت سابحاً بهذه الأفكار  
الى ان نهبني اعلان الندل بضرب جرس الطعام فنزل الركاب جميعهم الى  
الموائد ومن نعم الله عليّ اني كنت ممن اعتاد ان يأكل على الطريقة الغربية  
وكان في زمننا الطعام يوضع على سينية كبيرة من نحاس يجلس حولها افراد  
الأسرة ، اما على الارض فوق بساط او حصير واما على كراسي صغيرة  
ولم تكن ادوات السفرة معروفة لدى الدمشقيين ولم يكن معروفاً غير المعلقة



أما الشوكة (الفرتيكة) المعدن فلم تكن معروفة الا عند الطبقة الراقية  
ولم تكن السكاكين عندنا توضع على الموائد .  
وكان على المائدة اناء خردل بعيد عن الرومي فقام ومد يده لآخذه



فأصابت ابريق الماء  
فوقع على المائدة وساح  
الماء على المنضدة  
واضطرب الجالسون  
جانب الرومي الذين  
اتجه الماء نحوهم وحجل  
الرومي خجلاً ما بعده  
خجل وبعد الطعام  
بينما كنا نسير في الممشى  
واذ برئيس الخدم يتقدم  
من رفيقي الرومي  
ويحتلي به في احد  
جوانب الباخرة ثم  
يتركه ويعود الينا  
الرومي ويخبرني انه  
تلقى درساً في آداب

الطعام من رئيس الخدم [ تناول الطعام على الصينية ]

لا ينسأه مدة حياته ، والذي فهمته منه انه قال له ان الجالس على مائدة الطعام  
لا يجوز له ان يقوم ليتناول شيئاً من الأدوات عن المائدة كما انه لا يجوز  
له ان يمد يده بأكثر مما تصل اليه ، واذا لزم احدهم شيئاً بعيداً عنه  
كالمعلقة أو أي شيء غيرها وكان في جانبه أعظم الرجال قدراً أو أعظم



السيدات مكانة مسموح له بان يطلب منهم ما يريد او بمن هو اقرب الي  
الاداة المطلوبة من الجالسين ، وقد اخذت عبرة من هذا الدرس ولم أقع  
في خطأ مثل هذا لله الحمد .

\*\*\*

### العادات :

العادة في اللغة الديدن سمي بذلك من العود اي الرجوع لأن صاحبها  
يعاودها ويرجع اليها مرة بعد اخرى وقد عرفوها بمحدود كثيرة مرجعها  
جميعا الى الاعمال المتكررة التي يألفها الانسان والحيوان جماعات وافرادا  
وقد قالت العرب المادة خامس طبيعة وقالت الأفرنج العادة طبيعة ثانية .  
والعادة خاصة وعامة فالخاصة تخص كل فرد باحوال معلومة والعامّة  
تشمل امة بأسرها او طائفة من طوائفها أو شعباً من شعوبها او قارة من  
القارات الارضية ولهذا اصبح لكل شعب عادات خاصة به تسوقه الى هذه  
العادات حالات المكان والزمان فيألف من المطاعم والمشارب والمساكن  
والاخلاق والاهواء ما تسوقه اليه حاجته بادىء بدء ثم يألف تلك العادات  
حتى تصبح ملكة فيه ومتى رسخت العادة في قوم أصبحت سنة له وصارت  
عرفاً عاماً ثم قانوناً مشروعاً وان لم يصدر به مراسيم وقرارات حكومية  
مصدقة من المجالس . ولهذا اعتبر المشترون العرف المبني على العادة العامة  
بمترلة لا تنزل عن الشرع المشروع . ومع ان القوى الطبيعية متفاوتة بين  
فرد وفرد آخر من بني الانسان ولكن ائتلاف كل قوم على عادات مخصوصة  
يضرب حجاباً ظاهراً على ذلك التفاوت ويجعل فيه نوعاً من التناسب  
يستحسنه الذوق وترتاح اليه النفس وعادات الأمة هي أساس مظهر اخلاقها  
وآدابها لذلك يجب على السائح مراعاة عادات اهل البلاد التي يزورها ،

ومشاركة أهلها بما لا يمس بأمور دينه ومن خالف عادات القوم الذين يمر بهم يكون عرضة للهزاء والسخرية وليجتنب السائح في الاجتماعات العامة الحركات غير اللائقة والهزاء والسخرية بموائد الأقسام خصوصاً طقوسهم الدينية مها كان فيها من الشواذ وإذا ظهر من السائح حركة استهزاء بقوم وتعدى عليه بعض الرعاع فلا يلو من الا نفسه .

وسأذكر بعض العادات بصورة مجملة عند مروري في كل بلدة من بلدان القارات الاربعة اوربا واميركا و افريقيا وآسيا حسبما تقتضيه الظروف .

\*\*\*

### ام دوك :



في اليوم الأول من ركوبنا  
الباخرة من الاسكندرية تقدمت مني  
سيده افرنسية نصف تسحب كلبا صغيرا  
من نوع « بولدوك Bouledogue »  
من أحرك ما خلق الله من الكلاب  
و ( اسطنها ) تقدمت السيدة وطلبت  
مني بلطف ان اساعدها بحلب  
مقعد بحري لتجلس عليه فأسرعت  
وأحضرت مقعداً وفتحته وقدمته لها  
فشكرتني وجلست جانبي وحضنت  
الكلب وجعلت تقبله وهو يلحس  
وجها وشفتاها فأنفث من ذلك ونفرت

ام دوك لباس النساء في ذلك العصر



نفسى منها و عددت مساعدتي لها عملاً انسانياً و قلت بنفسى هي ساعة و تمضي  
و لم ألبس لهم مثل ( الدبقة ) سوف تعلق بي الى آخر السفرة و كلها المدال  
لا يكن ليرز من حضنها فكانت ثقيله و يلحس وجهها و شفيتها ولا تتركه  
ثابتة واحدة بميداً عنها ، و صار الركاب يتأففون منها و اينما حلت هرب  
الجالسون . و قد صدف ان افلت منها مرة و جلس بمحضن رجل نهر به  
ورماه أرضاً و لما رآته صاحت و قامت قيامتها و ملأت الباخرة زعيقاً و حضنته  
و جعلت تقبله و تراضيه كأنه طفل « حردان » .

هذه السيدة استلطفتني مع اني استنقلت دمها و عقلها فجعلت تتبعني  
من مكان الى مكان و كلما جلست جاني ابحت عن طريقة لا ابتعاد عنها  
و قد اسميتها « ام دوك » و مشى هذا اللقب عليها بين الركاب و قد احست  
المسكينة بنفور الناس منها فصارت تجلس في زاوية تطالع بكتاب و تداعب  
ابنها المحروس دوك الذي ابغضته بمقدار حبي للجمال و من العجائب ان الأرخ  
حسني افندي تلو المشهور بحب الجمال يحوي عنده كلباً من هذا النوع  
و لعل له به عرضاً لا نمرقه و لله في خلقه شؤون . و بمناسبة هذا الكلب  
سأتحدث عن كلاب اوربا .

\*\*\*

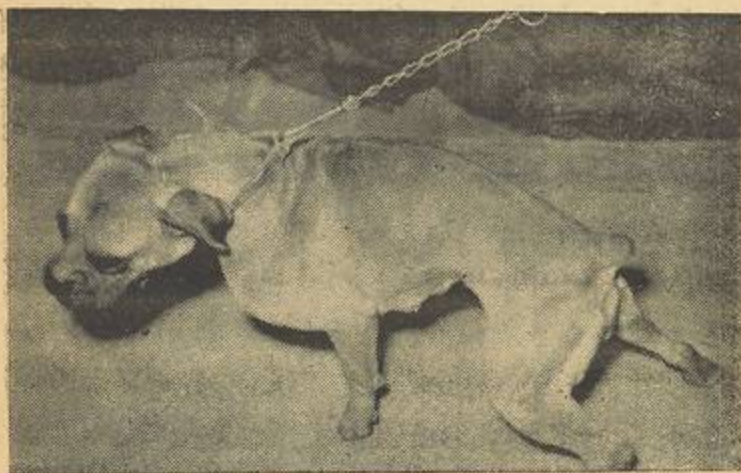
### الكلاب في اوربا :

عناية الأفرنج بالكلاب مشهورة و في فرانسكا في غيرها من البلدان  
جميعات متعددة خصوصية و منها جمعيات عمومية لتحسين انواع الكلاب  
و تشترك هذه الجمعيات في المعارض الدولية او تقيم معارض خاصة لعرض  
انواع و أصناف الكلاب و الحكومات تعطي الكلاب الفائزة أوسمة كما ان



هذه الجمعيات تعطي « الأنواط مداليات » وشهادات لأنواع الممتازة:  
وأصناف الكلاب عديدة منها :

للحراسة في الريف ومنها للحراسة في المنازل ومنها لحراسة المواشي ،  
ومنها الكلب الأليف الجليس « مثل المسيو بولدوك » ومنها المصاحب الصديق  
ومنها المزينة والزخرفة ومنها جلب الحاجات من الأسواق و كلاب الصيد



بولدوك

والقنص والسلوقي وقانص الذآب وقاتل الثيران وللـكلاب اثمان تختلف  
باختلاف الأنواع وتتراوح اثمانها بين ( ٥ ) فرنكات ذهب الى ٥٠٠ ليرة  
انكليزية ذهبية واصحابها يعرفون كيف يربونها وقد جعلوا تجارتهم منها  
واكثر اصحاب الكلاب هن من السيدات وللـكلاب تجار خصوصيون  
معروفون يرسلون الكلاب المباعة الى اقاصي الارض اذا وضع الثمن المطلوب.

## طلبت شرف كلبها :

حدثني السيد خير الدين الزركلي ان احد اصدقائه كتب له رسالة  
نيويورك ان سيدة تركت كلبها في الشارع دون سلسلة وكان هذا الرجل  
يجلس في احدى الحدائق فاحتك الكلب به فطرده وضره بالعصا « البستون »  
فقامت قيامة صاحبه وشكته للشرطي الذي اخذها الى مخفر الشرطة وهناك  
حولوه الى المحكمة وعينت له يوما خاصا وفي يوم المحاكمة طلبت السيدة  
شرف الكلب فقال الرجل اني مسلم والكلب نجس في مذهبي وقد طردته  
فلم يذهب وخوفاً من ان تلحقني النجاسة وتمنعني عن صلاتي اضطررت لضربه  
وعلى السيدة اذا كان لكلبها شرف تخاف عليه فلتربطه بسلسلة ولا تتركه  
يؤذي الناس ، ولما تثبتت المحكمة من الخبر ان الكلب نجس عند الاسلام  
حكمت على السيدة بان تعطيه اجرة اسبوع جزاء تقديرا تعويضا عن عطلته .  
وعلى ذكر الكلاب التي تجلب الحاجات اذكر هذه القصة .

\*\*\*

## الكلاب الاعمى :

حدثت عابدين بك والد الدكتور مطاع بك عابدين قال كان له صديق يدعى  
الاديب افندي مفتي الاي يسكن في السنجدار في حارة المملوك كان لهذا الرجل  
كلب كبير من نوع ممتاز من كلاب اوربا ، هذا الكلب كان يحضر لصاحبه  
لوازم المنزل من عند اللحم والسمان والبقال كما انه يحضر كل يوم التعيين  
من فرن القلعة والتعيين في زمن الحكومة العثمانية كان يعطى للضباط  
والمقاعدن لكل واحد مقدار مخصوص من اللحم والخبز غير الراتب يؤخذ  
عيناً فكان تعيين الملازم ستة ارغفة « طوب خانة » والرئيس تسعة ارغفة  
من خبز الارمن الكبير وكان للمفتي الاي اميني ثلاث تامين اي تسعة ارغفة



يذهب الكلب يومياً الى فرن العسكرية في قلعة دمشق فيضع له الفران تسعة ارغفة في السل ويعود به الى دار صاحبه ومضى مدة على هذا الحال وفي احد الايام جاء بثمانية ارغفة فظن صاحبه انه اكل الرغيف فلم يابه للأمر ، وفي اليوم الثاني والثالث والرابع جعل يأتي بالخبز ناقصاً فتعقبه صاحبه يوماً عن بعد فراه حمل السل وفيه الارغفة التسعة ومشى نحو الشرق في حين ان دار صاحبه غربي القلعة فتعقبه الى ان وصل الى باب السلام وهناك وقف الكلب واخذ الرغيف ووضعه امام كلب أعمى ووقف يحرسه الى ان اكله وعاد الى الدار فتعجب صاحبه وتحير بصنع الله في خلقه وكيف سخر الله الناس والحيوان ليعخدم بعضهم البعض الآخر سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَاتَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

\*\*\*

### هياج البحر :

في اليوم الثاني من ركوبنا البحر اشتدت الأنواء ( وكبر البحر ) وجعلت الأمواج تلعب بالباخرة لعب القط بالفأر وداخ اكثر الركاب منهم من انسحب الى قمرة ومنهم من جلس على كرسيه في الممرات دون ان يحفل بالمصافة ويظهر ان بعضهم كان يكابر بالمحسوس ليرينا انه لا يابه لشيء مما يجري ، ولكن لم يطل الحال حتى هرب جميع الركاب الى قراتهم واكثرهم مصاب بالدوار . وفي اليوم الثاني هدأ البحر قليلا وبقينا الى المساء لانزى الا الماء والسما وفي الساعة الخامسة ظهرت انسا اراضي صقلية



« سيجيليا - Sicile (١) عن بعد فصعد أكثر الركاب الى سطح الباخرة  
ينظرون بالنواظير والسائح الذي يركب البحر لا بد له من ناظور جيد  
ليقرب له المسافات البعيدة وبقينا مقدار ربع ساعة نتطلع الى سواحل  
صقلية ثم بدأت تظهر لنا اراضي « كالابريا - calabre » عن بعد وبعد  
قليل دخلنا « بوغاز مسينا » وهو مضيق بين اراضي صقلية و « كالابريا »  
وبقيت الباخرة في المضيق أكثر من ساعتين ونصف والنوء شديد وقد  
ذكرتنا هذه الليلة بليلة الباخرة قصيرة بين حيفا ويفا بل ان هذه الليلة  
كانت اشد حتى ان الموج كان عند ميل الباخرة على احد جانبيها يضرب  
من فوق السطح وعندما تستوي الباخرة تسيل المياه من الجانب الآخر  
وتحمل الركاب مالا يوصف من الصعاب ولما خرجنا من المضيق اعتدل النوء  
وهذا الاضطراب وعادت الباخرة الى سيرها الاعتيادي وعاد الركاب الى  
العابهم وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت الواقع في ٢٥ شباط قرع  
جرس الطعام فزلنا الى الغرفة متسائلين عن سبب تقديم الوقت فقالوا ان  
الباخرة ستصل الى ثغر « نابولي » وهو من ثغور ايطاليا الجميلة والركاب  
الذين يريدون الفرجة على نابولي يجب ان يتناولوا طعامهم باكراً فتناولنا

(١) صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء المفتوحة وهي اكبر جزر البحر  
المتوسط تفصل عن « كالابريا - calabre » بمضيق مسينا او مسيني وهي جزيرة ايطالية  
فتحها العرب سنة ٢١٢ هـ الموافق ٨٣٠ م في زمن الامون بن الرشيد فتحها اسد  
بن الفرات عينه على الجيش زبانة الله بن ابراهيم بن الاغلب والى الفيروان من قبل  
الامون وبقيت بيد الاغلبين الى سنة ٩١٧ م حيث تغلب عليها الفاطميون فدخات بحوزة  
الحلفاء الفاطميين وبقيت يدم الى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي حيث تغلب عليها  
النورمنديون وجرت عليها حروب كثيرة ودخات في حكم الالمان والانرسيين وجرى  
فيها حوادث كثيرة الى ان انضمت الى ايطاليا سنة ١٨٦١ ولم تنزل تابعة لها الى اليوم .

الطعام بسرعة وكتبت اسمي مع من يريد النزول الى نابولي ولم يكن في ذلك الزمان « جواز سفر — passeport » ولم يطلب مني الجواز الا عند دخولي الى الآستانة في عودتي من اوربا كما سيحيي .

\*\*\*

### ماذا رأيت في نابولي :

في الساعة الحادية عشرة باننا لنا نابولي وكلما تقدمت الباخرة كانت تظهر لنا اليابسة ونابولي نغر من ابدع تغور البحر المتوسط وهي في غاية الجمال بمنظرها الطبيعية فكأنها عروس قائمة على ساحل البحر المتوسط فيها اشجار باسقة وبساتين بديمة ، وقرب الظهر وقفت الباخرة في الميناء وتقرب مني « المسيو سبيرناك » الايطالي متحكما يريد ان ينزل معا فيكون دليلي في نابولي فرفضت بصراحة واستأجرت عربية بواسطة شرطي واقف امام رصيف المرفأ وأرثته الساعة وان مرادي ان ادور البلدة في العربية فتفاهمنا بالاشارة وافهمني ان اجرة العربية « فرنكين بالساعة » فركبت ومشى الحوذي يريني البنائيات والهياكل القائمة في الشوارع ويشرح لي بالاطالمة عنها دون ان افهم منه شيئا وبعد ثلاث ساعات عاد الى الميناء وكانت الساعة حوالي الرابعة ولم يزل لدينا من الوقت ما يسمح لي بالفرجة فسرت على الرصيف متنقلا والذي رأيت في نابولي جمالها وانتظام شوارعها والاشجار القائمة في الشوارع الواسعة وقصرها المزخرف الذي يشبه القلعة وهو مايسميه الافرنسيون :

\*\*\*

« لو كاستيل نوفو »

### سوق الملك :

من اجل ما رأيت في نابولي سوق الملك وهو بناية على هيئة الصليب



احمد خان غزنی کی اہلیہ ..





مبنية على شكل خطين متقاطعين مسقوفة بالزجاج وداخل الخطين المتقاطعين مساحة مدورة والحوانيت على طرفي اركانها الاربعة وفيها مقاهي للاستراحة ولها اربعة ابواب يحار المتفرج بما يراه في هذا السوق من المصنوعات البحرية والنحاسية والمعدنية والاواني الخزفية والتريات والشمعدانات الثمينة التي تقل نظيرها في الدنيا .

\*\*\*

### الفقر في ايطاليا :

يخش السائح من النظرة الاولى ان اكثر اهل ايطاليا من الفقراء . ومن يدقق النظر في وجوه الطبقة العاملة يرى فيها الشحوب ظاهراً . واستجداء الايطاليين السكاير من السياح مباح ولا يجد الايطاليون اي عار بطلب السكاير من الغريب وهذا ما رأيت في كل مرة زرت فيها ايطاليا . والدليل على كثرة الفقراء في ذلك الزمن وقوف عشرات النساء على رصيف الميناء ينتظرن الشبان الاغراب للاجتماع اليهم وكسب بعض الدراهم من بيع انفسهن في سوق اللذة .

جلست في مقهى فاحتاط بي ست سيدات كل منهن تدعوني لزيارتها ولما رأين رفضي طلبن مني ان اضيئهن بكأس من الجمرة « البيرة » فلم اتمكن من الرفض وضيئتهن بما طلبن وتمشيت الى مطعم قريب وقلت مادمت الآن في ايطاليا فلا تجرب اكلتها الوطنية وقلت لرجل واقف « مسيو منجرية معكرونة » فضحك ودلني على مطعم قريب وهناك طلبت بالاشارة صحناً من المعكرونة فاحضروه لي بعد ربع ساعة مع صحن من الجبن المبروش وبالْحَقِيقَة وجدت بهذا النوع لذة فائقة لانعرفها في المعكرونة التي نأكلها في بلدنا وللطليان اعتناء تام بهذا الطعام ولهم في طبخه عدة طرق . واني اقول :

كما ان « الكبة » هي الطعام الوطني للسوريين « فالمكرونة » هي الطعام الوطني  
للإيطاليين والبطاطا للأفريقيين .

ان الإيطاليين مشهورون بدقة الصناعات وبينما انا انتقل في الميناء مر  
بي عدد من الشبان يحملون هياكل من ( جبصين ) او من الزخام الابيض  
واللون وغير ذلك من افواه السكر وعلبها مصنوعة احسن صنع والأواني  
البلورية المركبة مع المعادن ، إن من اواني الزينة او من اواني الأستعمال  
وهي غاية في الأبداع والجمال وهي من اشهر الصناعات في إيطاليا كما ان اهلها  
مشهورون ايضا بالموسيقى وصنع اوائلها على اختلاف انواعها وعندما جلست  
في المقهى كانت اجواق الموسيقى المركبة كل جوقة من عدة اشخاص والتي  
لا يقل عدد احداها عن الخمسة موسيقيين تمر من امامنا وركبون الزوارق  
ويدورون حول البواخر فيقف الركاب يتفرون على الاجواق ويسمعون  
انغام موسيقاها وغناء افرادها نساء ورجالا فيرمي الراكب بما تجود به  
نفسه الى الجوقة فتقع الدرهم في الزوارق فيلتقطها رئيس الجوقة ويقدم  
الشكر المحسن .

\*\*\*

### القطاسون

وهناك اطفال صغار اكبرهم في سن المراهقة واصغرهم لا يقل عن  
السابعة من عمره يلقون انفسهم في البحر ويفوصون لاخراج ما يرميه اليهم  
الراكب من الدرهم فيخرجون القطعة في فمهم ويتسابقون عليها بالقطس  
بما يضحك الانسان ويؤله في آند واحد لان نزول هؤلاء الاطفال في  
البحر في مثل هذا الطقس لتحصيل شيء من الدرهم يدمي القلوب وويل  
للانسان الذي لا يتألم لشقاء اخيه الانسان .



## السرق من الفار :

اما اهل نابولي فكانوا اسرق من الفار واحرق من النار وايطاليا كانت مشهورة بتصدير اللصوص الى العالم واذا لم يكن الغريب واعياً لاشك انه يكون عرضة حتى لسرقة قبعته ومما وقع لي انه كان في رجلي عندما تنزلت الى نابلي « كندرة صب » خوفاً من الطين ولما جلست في « القهوة - المقهى » ناديت ماسح احذية ( بويه جي ) وبعد ان مسح حذائي اعطيته كندرة الصب ليمسحها ومسحها ووضعها في جانبي وذهب وما كاد يتوارى عن عيني حتى التفت فلم اجدها وعبثاً حاولت البحث عنها وقد راجعت البوابيس الواقف فلم اقدر ان افهمه مقصدي ولا فهمت منه ماقاله وطلبت عوضي من الله وعدت الى الباخرة ووقفت مع الركاب على السطح تتفرج على الميناء وعلى العمارة (١) الايطالية الزاسية في هذا المرفأ .

ومما لفت نظري لما كنت ادور في البلدة شاب واقف امام منضدة موضوعة في عربة يجرها حصان عليها صندوق كبير في داخله آلات لم ارها يقف بين الحين والحين في الشارع ويتكلم بسرعة كالخطيب المفوه يعلن عن شيء ولم افهم من كلامه شيئاً وأخيراً يأخذ ورقة بيضاء بقدر الكف يبلها بالماء ويدخلها بثقب مستطيل ويدير دولاباً فتخرج الورقة من جانب الصندوق المقابل مطبوعة ملونة مثل ورقة « البنك نوت » وكان الشارع عتلي . بالنامس عند وقوفه لاقاء خيلته وقد طارت ساعات بعض المتفرجين من ركاب الباخرة الذين وقفوا للانفراج بين الناس واحمد الله اني كنت راكباً في العربة آنذاك فخمي الله ساعتني من السرقة .

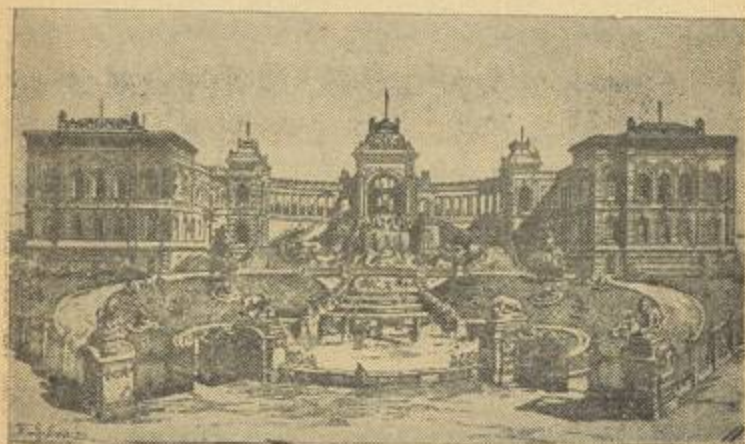
\*\*\*

(١) العمارة طائفة من السنين الحربية تكون ما وهي كلمة مولدة .



## آخر ليلة في الباخرة :

قضينا آخر سهرة في الصالون على العادة وودعنا بعضنا عند منتصف الليل ونهب كل منا الى قمرته وفي صباح الاثنين صحت باكراً وجمعت امتعتي ورتبتها في الحقائب وجلست في الممشى مع الروميين ننتظر بصبر فارغ ان تظهر لنا مرسيليا وبعد ان تناولنا الفطور اخبرنا الخادم ان مرسيليا ظهرت من بعد فصدنا ووقفنا فتفرج الى ان دخلت



بلاس دولونك شامب في مرسييا من اجل البناءات

الباخرة الميناء ورمت مراسيها جانب الرصيف ، ومرسييا من اكبر شعور فرانسوا والحركة فيها تدهش النظر . نقلنا ابصارنا في هذا الميناء ورأينا حركة الملاحين الدائمة وكثرة الزوارق والانشات والبواخر وفي ناحية من الميناء قسم من الاسطول الأفرنسي وحداته قريبة من بعضها ، جماله يهر النظر وما كادت الباخرة تقف حتى هرع الركاب الى النزول ومررنا بالكمرك

وبعد التفتيش خرجنا الى البلدة وركبت عربة بحرها حصان مفرد واكثر عربات فرانس كانت بحصان واحد وطلبت من السائق ان يأخذني الى « اوتيل » قليل التكاليف ( بون مارشه ) فأخذني الى اوتيل صغير وضعت فيه امتعتي واسترحت قليلا وطلبت من صاحبه ان يداني على « القنصلية » العثمانية فداني عليها وكانت قريبة من الفندق فذهبت لأري القنصل وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة ولا وصلت وجدت معاون القنصل وهو شاب تركي يدعى لطيف افندي حيثه برفع القبعة وارجعتها الى رأسي .

\*\*\*

### غليظ افندي :

واذا به يصرخ صوتاً مزعجاً سمعه الناس من الشارع : قبعتك قبعتك ، وكانت كلمته بالأفردني « votre chapeau » قلت بالتركية ماله لقبعتي قال اقلها عن رأسك وتعلم المدينة . قلت أتريد ان اتعلم المدينة بهذه العقلية ان هذه المعاملة هي ثقيلة ونحن اسنا عبيدكم بل نحن أسيادكم ، رواتبكم منا نحن ابناء الشعب وانتم الموظفين لستم الا خدماً للشعب وبما ان اسمك لطيف كان يجب عليك ان تكون معاملتك للناس خصوصاً لرعايا الدولة لطيفة مثل اسمك ولكن بكل اسف اقول ان معاملتك ثقيلة غايظة وليتهم سموك « غليظ افندي » بدل لطيف افندي وتركته مدهوشاً وخرجت وانا ارتعد غضباً من هذه المعاملة وكان في الباب بضعة اشخاص من المراجعين منهم الترك ومنهم العرب ركض اليّ ابناء العرب يشكروني على هذا الموقف الذي رأوه مني تجاه هذا المتعجرف واخبروني ان معاملته لا يبناء العرب دائماً يمثل هذه الفظاظة وانه يقدم ابناء الترك ويقضي حوائجهم بالسرع من البرق ويؤخر ابناء العرب اياماً لا لسبب بل لاظهار تحمكه .



هذا ما رأته من احد صفار موظفي الأتراك في « قنصلاتو » مرسيليا  
مع ان المشهور عن موظفي خارجية الدولة العثمانية انهم من أطف الناس  
وأدمتهم اخلاقاً وما كنت ادري اني ارى بينهم رجلاً فظاً من فصيلة  
« غليظ افندي » .

\*\*\*

### السفراء والقناصل في زمننا

السفير Ambassadeur في اللغة الرسول ، المصلح بين القوم جمعه  
سفراء واصطلحت عليه الدول لممثل دولة اخرى تنتدبه حكومة للاقامة  
في عاصمة الدولة المرسل اليها وهو نائب ملكه او رئيس جمهوريته عند  
هذه الدولة وشخص السفير محترم لا يمس لانه يمثل ملكه وهو معفى من  
جميع الاحكام المحلية في المملكة التي يرسل اليها .

والاعفاء يشمل اعضاء أسرته فهم فيه سواء لا يسجنون ولا يحجز  
عليهم ابداً . هما اتوا من الذنوب وهو الحاكم المطلق على افراد رعيته وجمالية  
بلادهم فاذا حدث من احدهم ذنب يوجب العقاب كان السفير هو الذي  
يعاقب وفي مقر السفارة سجن لحبس المجرمين من رعية دولة السفير وكان  
للدول الاجنبية في الدولة العثمانية امتيازات الاجانب لا يمكن لاحد ان يعبت  
بها منها كان شأنه .

\*\*\*

### الامتيازات الاجنبية في البلاد العثمانية

في اواخر ايام الدولة العثمانية وفي دور الانحطاط كلما غابت دولة من  
الدول الاوروبية الدولة العثمانية يصبح للدول الغالبة امتيازات في بعض النواحي



تجبر الحكومة العثمانية على مراعاتها ومن يطالع التاريخ يعرف مقدار ما تحمله  
العثمانيون من تعدي الاجانب على رعاياهم وكلما نالت دولة امتياز اطالب بقية  
الدول بمثله حتى جاء يوم في دمشق اصبحت فيه عصا الاجنبي سيفاً  
خصوصاً رعايا المعجم لان الدولة العثمانية بعد انكسارها في الحرب التي قامت  
بينها وبين الفرس اخيراً وبعد ان غلبت على امرها رضيت بكل الشروط  
التي وضعها الفرس على الاتراك ومن هذه الشروط حماية الملتجىء الى دار  
السفير او « القنصل » مها كانت جرئته وقد رأيت بأمر عيني كيف كان  
قنصل المعجم يحمي المجرمين وقد كانت دار القنصلية في محلتنا في محلة  
« شابكليه قنوات » وكنت في سن السابعة تقريباً وكنت العب مع اولاده  
علي خان وميرزا خان .

وكتيراً ما يدخل اناس الى الدار ركضاً ورجال البوليس وراءهم ولما  
يدخل الملتجىء الى دار القنصل وشعار دولة المعجم معلق على بابها يقف  
رجال الشرطة خارج الباب ويعودون ادراجهم خائبين .

وفي اول القرن الحادي عشر هجري الى اواخر القرن الثاني عشر  
كانت شوكة قناصل المعجم قائمة وكثيرون من الدمشقيين خصوصاً  
الجعفرين منهم كانوا يسعون للحصول على الجنسية الايرانية وكم جان من  
كبار الجناة خلص من المشنقة بالالتجاء الى دور القناصل . وكان  
يأتي بعد القنصلية الايرانية القنصلية الروسية ثم الانكليزية والالمانية  
والافرنسية وهكذا الى آخر قناصل الدول التي لها علاقات وسفراء في  
البلاد العثمانية .

\*\*\*

## عباية :

منذ مائة سنة تقريباً تعين سرور آغا (قبوتولي) مديراً لشرطة دمشق وكان شجاعاً قطع دابر الشقاوة ، وكان يلبس العباية وقد اتخذ أشقياء دمشق آنذاك كلمة العباية دليلاً على صاحبها وعندما يخرج سرور آغا من دائرة الشرطة او من داره يصرخ اول من يراه بكلمة عباية فيسمعها اقرب رجل فينادي بها وهكذا كل من سمعها يكررها ولا يمضي عشر دقائق حتى يعرف آخر رجل في المدينة ان سرور آغا متوجه نحوه وكان الاشقياء وارباب السوابق والمحكومون يفرون عند سماع كلمة العباية ويختبئون الى ان يمر سرور آغا . وبعد موته بقيت هذه الكلمة في أفواه الدمشقيين .

\*\*\*

## حاكم ظالم :

وقد استلم بلدية دمشق متمسلاً (١) ترك يدعى مصطفى بك وهو رجل شديد يعامل الناس بالقسوة والشدة وقد اطلقوا عليه كلمة عباية وقد وقعت له حادثة مع احد الوجوه يعرف منها مقدار تأثير القناصل في ذلك الزمان وهي ان السيد ابو الخير تملو جد صديق الظريف المعروف السيد حسني تملو وهو من اكبر تجار الجبوب كان جالساً امام بابكته (٢) مع بعض عملائه واذا بالنداء عباية عباية فلم يلتفت الى ذلك وبعد برهة وصل مصطفى بك المتسلم الى امام البابكة وكان الوقت شتاء فوجد امام بابها شيئاً من الوحول فقال للسيد ابو الخير لماذا هذا الوسخ امام باب منزلك قال سننظفه الآن وكانت العادة في تلك الايام ان ينظف الناس الشوارع والحارات والبلدية

(١) التسلم موظف من قبل الحكومة كان يقوم بوخليفة رئيس البلدية .

(٢) البابكة هي عند اهل دمشق مخزن مبيع الجبوب ويسمونها الحلبيون خان الجبوب .



تنظف الباحات الكبيرة واطراف دائرة الحكومة فقط ، وأمر احد الخدم ان ينظف المحل فأبى مصطفى بك وقال لا ينظفه الا انت بيدك وبفروتك وكان يلبس فروة فتداخل الناس وتوسطوا لديه بان يقوم بالعمل احد العبيد الواقفين فأبى وأصر فما كان من السيد ابو الخير تلبوا الا ان اجابه أمرك مطاع وتناول المكنتة ورحمهم على مصطفى بك وأشبعه ضرباً بمصاها وفر من الميدان ودخل محتماً بدار قنصل المعجم فأجاره من الحكومة وأعطاه الجنسية العجمية وبقي السيد ابو الخير من رعايا الدولة الإيرانية الى ان اقتضى له امر احتاج فيه ان يكون متجنساً بالجنسية العثمانية وكانت الأسباب التي دعت له للتجنس قد زالت فرجع الى جنسيته الأصلية ولله الحمد ان حفيده السيد حسني هو اليوم من رعايا الدولة السورية .

\*\*\*



بناية السفارة الألمانية في آستانة . كأنها قعة من قلاع الأتيازات الأجنبية



## الامتيازات الاجنبية في بلاد الشرق :

ولم ترق الامر على بلاد الدولة العثمانية بل ان الدول الاجنبية خصوصاً الدول المسماة بالعظمى كان سفراؤها و رعاياها عائشين في مجبوحة من الامتيازات يحفظون حقوقهم و حقوق رعاياهم و من دخل تحت ظلمهم و في حوزتهم و كل ارض في الشرق اقام فيها اجنبي فهي بمقام ارض حكومته و سفراء الدول العظمى كانت سلطتهم و تأثير امتيازاتهم عظيماً في بلاد المشرق كالصين و اليابان و ايران و افغانستان و الحبشة و مصر و غيرها من الدول الشرقية ، و لم يكن للسفراء في البلاد الغربية هذا التأثير و امتياز السفير فيها لا يزيد على ما يترتب لقضاء منطوق الاوامر المسلمة اليه و حكمه فيها حكم امره لا يتعداه فانه اذا لزمه دين حق للدائن ان يصاحبه بالطرق القانونية .

و اليابان بعد حرب سنة ١٩٠٥ و انتصارها على الروس اصبحت من الدول العظمى و ارتفعت عنها سيطرة الدولة الغربية و صارت مثلهم و هكذا شأن القوي مع الضعيف فالضعيف مخذول و القوي ظالم متعسف و لله في خلقه شؤون .

\*\*\*

## الغاء العثمانيين الامتيازات و اعلان الدستور :

بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ خفت وطأة القناصل و رعاياهم و بعد مدة الغت الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية و اقامت لذلك احتفالات عظيمة و زينت جميع البلاد .

و في هذا العصر بعد ان وضعت المعاهدات و المواثيق الدولية حدوداً للسفراء و رجال السلك السياسي و قفت كل دولة عند حدها و اصبحت الدول في معاملاتها سواسية .

## تأثير التبعة على الشرقيين :

من هذه الامتيازات اصبح للسفراء والقناصل حق بأن يعينوا من ابناء البلاد حراسا باسم « قواس » يرتدون ( السراويل الطويلة مع الدوامر المزركشة بالقصب ) ويحملون السيوف والمعبي المفضضة وينتخبون من اقوى



قواس فصلاتو انكتره

اثناء سيرهم في الاسواق واذا ازدحم الطريق وتأخر بعضهم عن فتحة امام القنصل فان القواس يستعمل السوط لتفريق الناس هذا كان قبالا وفي

الفتيات ومن الطبقة المعروفة « بالقبضيات » ولباس رأس القواس قطما هو الطربوش فاقدما كانوا يلبسون الطربوش العباسي فوقه المامسة الاغباني ومع الزمن بدلوه بالطربوش المادي وما زالوا الى اليوم على هذا اللباس .

واتناء سير القنصل في البلدة في غير الايام الرسمية يسير القواس امامه والسوط بيده ليقفح له الطريق ويدفع عنه الاذى ولم أر في حياتي من تجرأ على قنصل بأذى



اوائل القرن العشرين ابطلوا هذه العادة ومن ذلك الزمن اصبح القواس رمزاً لقوة الأجنبي وعنوان القنصل اثناء السير واذا ركبوا في العربات يجلس القواس جانب الخوذي ومن الشروط المطلوبة في القواس جمال الوجه وقوة القلب والعضلات وكبر الشارب فلا يؤخذ القواس الا من أجل الشبان وأقوام وأشجهم . واشدة ما كان يقاسيه اجدادنا وآباءنا من تسلط الأجنبي ومساعدة الحكومات المحلية له جعل الخوف متأصلاً في نفوسهم وانتقل منهم الينا واصبح الخوف من صاحب القبعة عادة ورثناها عنهم ومن طول الأيام التي تمتع الأجنبي فيها بهذه الامتيازات استأصلت عوامل الخوف في نفوس الشرقيين واصبحوا ينظرون للغربي نظرة الاحترام ومن عاشر الأفرنج في بلادهم وقضى معهم ولو مدة قصيرة وعرف حقانهم لا تبقى نظراته اليهم تلك النظرة القديمة وتصبح معاملته لهم كمااملة الند للند وهانحن اليوم نعيش بهذه النعمة في بلادنا ادام الله علينا الاستقلال وحفظنا من نوائب الدهر انه سميع مجيب .

\*\*\*

### حديقة الحيوانات :

تركت « القنصلية » وعدت الى الفندق واسترحت قليلا وانا افكر بمعاملة لطيف افندي لأبناء العرب ولما لم يكن لي من غرض في القنصلية قررت ان لا اراجع قنصلا تركيا في عمري وخرجت للتفرج على هرسيديا ودرت بمض شوارعها فوجدت اجملها واكثر حركة فيها شارع البورصة وفيه اكثر المسارح وقاعات الملاهي وسألت عن احسن مسرح فدلوني على مسرح اسمه « فاريتيه - variété » وقد دهشت من الحركة في هذا الثغر وجعلت اتفرج على الحوانيت والمخازن وانواع البضائع وحسن تنسيقها في الواجهات ولم اكن اعرف احداً في هذه البلدة ولكن من حسن



حظي اني التقيت برجل من ابناء العرب من الذين رأيتهم في « القنصلية »  
 العثمانية فسألته عن احسن « الفرج » في هذه البلدة فقال جنينة الحيوانات  
 وقال اذا شئت صحبتك اليها . فذهبنا وقضينا فيها ثلاث ساعات رأيت فيها  
 اجناس الحيوانات والطيور والزواحف وغيرها على اختلاف انواعها وسررت  
 جدا من هذه النزهة وعدت الى الأوتيل وتناولت الطعام واسترحت قليلا  
 وخرجت الى شارع البورصة وما زلت انتقل في هذا الشارع وانقل نظري  
 من عربة الى سيارة « وكانت السيارات لم تزل في بدء عهدها » ومن واجهة  
 حاوت الى السيدة متأففة الى ان دقت الساعة التاسعة توجهت الى التياترو .



السيارات في عام ١٩١١

\*\*\*

تياترو الفاريتيه :

هذا التياترو من ارقى مسارح مرسيليا ولكنه يأتي بالدرجة الثالثة بعد

مسارح باريس قطعت « البيليت » ودفعت خمس فرنكات وجلست في مكان متوسط واجرة المقعد تبدأ من « الفرنك الى الاثني عشر فرنكا » والحساب آنذاك على السعر الذهبي وموقع الفرنك الواحد اما في آخر طابق وهو الرابع واما في آخر الجالسين في الطابق الأول حيث يقف المتفرج طوال الليل على اقدامه .

وفي هذا المسرح « بوفات » يؤمها المتفرجون في اوقات الاستراحة « انترآكت » واللباس عادي وكانت تلك الليلة المقاعد جميعها ملاءى والذي فهمته من المسيو جورج نادر في اليوم الثاني ان جميع مسارح مرسيليا دائماً تكون ملاءى بالمتفرجين وأكثرهم من الاغراب الذين يصلون مرسيليا في كل يوم .

\*\*\*

### كراندبال ماسكه :

في الساعة التي نزلت فيها الى مرسيليا وقع نظري على اعلان كبير يعلن عن حفلة راقصة كبرى مقنعة ( كراندبال ماسكه ) ولم اكن في عمري حضرت حفلة رقص وكنت اقرأ في الروايات عن المراقص المقنعة والسافرة والخيال يتسع لمثل هذه الابحاث خصوصاً اذا كان قلم الكاتب سيالاً . وكانت نفسي مشوقة لاطفاء الظلمة لرؤية الحفلات الراقصة التي طالما كنا نتغنى بها على السمع . والحفلة موعدها يوم الخميس ٢ آذار ١٩١١ وستقام في مسرح الأوبرا في مرسيليا ، وكنت أينما سرت اجد على الحيطان في كل شارع اعلان الـ ( كراندبال ) فلم يعد يغيب عن فكري خاطر الاشتراك بهذه الحفلة وقد سألت صاحب الأوتيل عنها ففهمت منه ان لها البسة



خاصة اما لباس تنكر واما لباس اسود ولم يكن معي (بدلة) سموكن (١) -  
 (smoking) ولا اريد شراء (بدلة) جديدة وعلمت انه يوجد محلات خاصة  
 لايجار هذه البدلات فذهبت الى أحدها وصاحبتة سيدة نصف ولما رأني  
 غريباً لأحسن التكلم وعرفت اني اريد استئجار بدلة لحضور الحفلة اسرعت  
 فأخرجت لي عدة انواع من الألبسة المزركشة التي يلبسها المهرجون في  
 المسارح النقاله قلت لا اريد هذا بل اريد (بدلة) سوداء فأحضرت لي المطلوب  
 واتفقنا على خمس فرنكات اجرة البدلة في تلك الالهة ولما كنت أتكلم  
 واراجع الكلمات في القاموس تجمع حولنا بعض عاملات الخياطة الاثني يعملن  
 عندها وعددهن يزيد عن العشرين وجملن يسمعن كلامي وبأقل من عشر  
 دقائق صرنا كالأخوان وسألتي هل انت ذاهب وحدك ام معك رفيقة ؟  
 قلت وحدي قالت يوجد آنسة تريد حضور الحفلة وليس لها (كفاليه)  
 يعني رفيق فهل تريد مراقبتها والأجرة لا تزيد شيئاً حيث بالتمذكرة  
 الواحدة يدخل الشخص والشخصان وبما انك وحيد فبنفس  
 الأجرة يمكنك اصطحابها ، قلت هل هي لطيفة قالت نعم وسترى  
 وخبرت بالتلفون سيدة اعلمتها انه يوجد طالب زراعة وحيد يريد حضور  
 البال فهل تريد ان تصحبه فقبلت مع الشكر وبعد مدة قليلة دخلت  
 سيدة بدينة قل ان يوجد مثلها في مرسيليا فقدمتنا صاحبة المحل الى بعضنا  
 وهي تدعى (الده وازيل مرغريت براك) وصاحبة المحل تدعى « المدام (٢)  
 جانيت روبي » .

(١) سيأتي بحث خاص عن الالباس في اوربا

(٢) المدام معناها السيدة يقال لكل امرأة متزوجة مدام والبنات مطلقاً يقال لهن  
 « مدموازيل » ويختصرونها يقولون دموازيل يعني انسة هذا ما اصطلاح عليه الغريون .



## معمل الخياطة :

معمل المدام روبي صغير بالنسبة لمصانع الخياطة الكبرى ، فيه نحو عشرين  
آنسة كل واحدة لها ( ماكينة خياطة ) والذي يلفت النظر ان جميع البنات  
كن مشغولات في تصليح الاثواب المأجورة الى الذاهيين للحفلة  
والمستأجرون ينتظرون في غرفة خارجية وكل منهم يجب ان يأخذ ثوبه  
قبلا وبينما كانت الآنسة مارغريت ترتدي ثوبها المصنوع خصيصاً لها وهو



لباس التنكر في حفلات الرقص والغناء

من أفخم الاثواب الخاصة ( بالمرافق - carnivals ) مصنوع بألوان  
مختلفة يضحك من النظر اليه زاءدا سمناً على سمنها وقد تأخرنا عن الساعة  
التاسعة فجملت استعجل رفيقتي وهي تتأني بارتداء ثيابها وفهمت انها تتأخر  
قصداً حتى تم صاحبة المحل اعمالها وتذهب معنا وكانت آنستان من  
المصانعات احضرتنا لنفسيتها لباسا خاصا لتلك الليلة وهذا اللباس هو بشكل

بذلات القرون الوسطى وعلى اطراف البذلات اجراس صغيرة من تلك التي توضع في رقاب القطط، والقبعات كانت على طراز قبعة نابليون وضع على دأرها من هذه الاجراس فكانت البنات اذا تحركت انبعثت منها اصدااء ناعمة من تلك الاجراس تلفت النظر ونحو الساعة العاشرة توجهنا بالوكب مشاة من شارع البورص الى الأوبرا واخذت الأنسة مرغريت من احد الاولاد الصغار تذكرة دخول وقالت لي ادفع له ثمانية فرنكات وكان ثمن التذكرة عشر فرنكات اذا اشتراها المرء من (شباك الأوبرا) وقد فهمت ان ادارة الأوبرا تعطي الفقراء تذاكر للبيع تخصم لهم فيها مقداراً من المبلغ المحدد كمساعدة لهم على فقرهم وهذه الحال رأيتها في كثير من المسارح في فرنسا .

وصلنا لساحة الأوبرة واذا بالأضواء تسطع فيها كالشموس والناس مصطفون على أطرافها يتفرجون على الداخلين فمهم من يأتي بالسيارات ومنهم بالعربات والكترة مشاة على الأرجل ونحن منهم طبعاً .

وكنا نسير مزدوجين اثنين اثنين في صف مستطيل وقد انتظم في صفنا بعض المتفرجين فصرنا (طابوراً) نمشي مشية عسكرية والناس تصفق لنا اذ كنت رفيع القدارندي البذلة السوداء وعلى رأسي قبعة سوداء مرتفعة وتسمى (هودفورم) وهي القبعة الرسمية وكانت رفيقي الأنسة مرغريت بثوبها المنفوخ المخطط آية بالثخانة وقد استلفتنا الأ نظار بهذا السير المنتظم المضحك .

ظل التصفيق من المتفرجين الواقفين في استدارة الساحة متواصلاً الى ان دخلنا الأوبرا وكان كل واحد منا يضع على وجهه قناعاً مستعاراً يستر فيه القسم الأعلى من الوجه ويسمى بالفرنسية (masque)



وفي الاوبرا كانت الجوقة الموسيقية داخل المسرح افرادها جالسون  
على المقاعد والمقاعد بشكل مدرج بحيث يظهر الجميع للنظارة .  
وقد رفعت المقاعد من الطابق السفلى واصبحت قاعة الراقصين .

\*\*\*

### قاعة الرقص :

كانت القاعة المعدة للراقصين بديعة جداً يطل عليها المتفرجون من  
جميع الجهات فالرقص كان يجري في القاعة الأرضية وكانت الألوانج  
ومقاعد جميع الطوابق ملاءى بالجالسين واكثرهم مقنع ولا تقع العين الا  
على ازواج مزدوجة من النساء والرجال فالجالسون في الألوانج وجميعهم  
من الأغنياء مع كل شلة منهم سقط فيه انواع الالعاب الصغيرة كالشايخيش  
والزمامير ، والصفاير والمصفقات واوراق الكر ، واوراق الثلج .  
( confetti ) وبالونات مطاط من التي يلعب بها الاولاد يرمون هذه  
اللعب بين آونة واخرى فيلتقطها الراقصون ويزمرون بها ويرسلون البالونات  
في جو الصالون بعد نفضها ويصفرون بالصفارات واوراق الكر فهي عبارة  
عن بكرات من الورق يمسك اللاعب بطرف البكرة ويرميها الى بعد فيكر  
الورق منها بأشكال مختلفة كل بكرة بلون فيلتف الراقصون بهذا الورق  
دون ان يحصل لهم منه أذى كما ان ورق الثلج وهو ورق صغير مدور مثل  
الأوراق التي تبقى في اسفل الثقابة التي تنقب الأوراق لتوضع في الاضبارات  
وعندما يلقي من الأمكنة العالية بأشكال مختلفة تقع عليه الاضواء ( فيرصف )  
ويكون له لمان بديع وهو يتساقط فوق الرؤوس ومن كثرة مااتي من  
هذا الورق في تلك الليلة منع الراقصين من الرقص لكثرة مااجتمع منه في  
الأرض حتى اوقف الرقص الى ان جمعوا ماتكدس من الأوراق



وآعادوا الجمع ثلاث مرات . وقد اشتركت موسيقى الجيش بهذه الحفلة وعزفت بعض الألحان الشجية رقصوا عليها بسرور والرقص على انغام الموسيقى النحاسية يهيج الراقصين أكثر من الحان الموسيقى الورتية التي عادت بعد انتهاء الموسيقى العسكرية .



جوقة موسيقية فرنسية

### رقصة الكادريل :

من أجمل الرقصات التي رأيتها رقصة تسمى الكادريل يمسك الراقصون أيدي بعضهم فيصحبون حلقة ويرقصون بخطوات موزونة ويدورون في القاعة والراقصون يجب ان يكونوا من الجنسين الخشن والناعم على التوالي وفي هذه الرقصة تجري مداعبات لطيفة عندما تشتد الرقصة فأصحاب الروح الخفيفة يأتون بحركات تضحك الحاضرين والمرء في مثل هذه الحفلات يحسب نفسه مقصراً إذا كان يأمله ان يضحك الناس ولم يفعل .

وبما اني لم اُعرف الرقص فلم اشترك في اي رقصة بل كنت اسير  
بين النظارة والمتفرجين وارجع الى المكان الذي جلسنا فيه حين دخولنا  
وقد وضعت كل سيدة من اللائي كنا معنا حقيبة يدها وبرامج الحفلة على  
مقاعدهن وبذلك حفظن المقاعد فكنت اسير وارجع الى المكان وهو في  
الطابق الثالث واجلس قليلا للاستراحة ثم ادور في المقاصير والمآشي فأرى  
الناس كالطيور المزدوجة كل اثنين منها على غصن يتناحيان وانا وحيد  
اسير بفردني انتظر انتهاء رفقائي من الرقص لتجتمع .

\*\*\*

### مغربت ترقص :

من أبتدع ماجرى في تلك الليلة ان رفيقتي مارغريت طلبت مني ان  
ارقص فأعترت فاصرت متعجبة من امتناعي قلت السبب الوحيد هو اني  
لاأعرف الرقص فنظرت الي بدهشة متعجبة قائلة « تيه ن » وهي كلمة  
تعجب يقولها الافرنسيون اذا فاجأهم خبر غير منظر .

ولما اكدت لها الامر وفهمت الحقيقة مني بعد صعوبة بالفهم لعجزتي  
باللغة قالت اذاً اسمح لي ان اجد لي مراقصاً راقصني قلت تفضلي فقامت  
وبعد بضع دقائق واذا بالضجة والتصفيق يتبعان من جميع الجهات والناس  
جميعهم ينظرون الى جهة واحدة واذا بالمدوازيل مرغريت ترقص مع رجل  
بدين فكانا أضخم راقصين في تلك الحفلة وقد ان يرى مثلها بهذه الضخامة  
لا بحفلة مرسيليا بل في الدنيا على ماظن ، وكانت دقائق لطيفة سر لها  
جميع الحضور وبعد انتهاء الرقصة سعدت مع راقصها الى ان اوصلها الى  
عندنا فجلست وهي تعبة تنفخ كالبقرة وتمسح العرق المتصبب من جبينها ،  
والمحني الرجل البدين مودعاً وادار ظهره المذهب من عندها وقت بسرعة



واخذت مروحتها وفتحتها ووقفت على مقعد في جانبها وجعلت اهوي لها وهي تحبب ضحمة وانار فيع « محروت » وهكذا ضحك الناس بالتصفيق وقصينا سهرة من أطف السهرات وكنت آسفاً لعدم تمكني من الرقص تلك الليلة.

\*\*\*

### الرقص :

الرقص والموسيقى عنصران تأسسا على الوزن ولهذا فقد عاشا معاً منذ عرفا ولا اريد ان ابحت عن تاريخ الرقص بل سأذكر الأنواع التي كانت مستعملة في تلك الأيام . وانواع الرقص كثيرة : التاريخي ، الديني المسرحي ، التمثيلي ، « رقص القصور الملكية — باله دو كور » الرقص الشعبي ، الجمعيات ويقال له رقص الصالونات وانواعه كثيرة والتي كانت منتشرة تلك الايام هي « البولكا » مازوركا ، كادريل ؛ فالس ، وبعضها يستعمل حتى الآن كالفالس مثلا وسأرجى الكلام في هذا البحث الى الأبحاث القادمة .

\*\*\*

### الوداع :

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل جعل الناس ينصرفون الى بيوتهم وقد تعب رفاقي من الرقص فمزمتنا على الذهاب وعرفوا اني مسافر هذا الصباح الى مونت بيليه فمزمتوا على مرافقتي الى المحطة وبعد ان بدانا لباس السهرة ذهبنا الى مطعم قريب من الفندق تناولنا فيه شيئاً من الطعام وأحضرت حقائبي وفي الساعة الخامسة كنا في المحطة وقد بقي لحركة القطار ربيع ساعة وضعت حقائبي فيها في احدى العربات ولما صفر « الكساري » ودعتهم وبكت السيدات فابكينني وأحسست كأنني اودع اسرتي كما اني



لحظت انهن كانهن يودعن قريباً لمن وهذا من خلق الافرنسيين في بلادهم  
فيقدر ما رأيت من شعبيهم نساء ورجالاً من العطف والنبل بقدر ما رأيت من  
مستمعهم نساء ورجالاً من الفظاظة والغلظة ، وفي الابحاث الآتية سيطلع  
القارئ على حوادث كثيرة تثبت أقوالي في الحالتين .

سار بنا القطار وانا اشير اليهم بمندبلي وهن يشرن لي ، الى ان غبن  
عن عيني ووصلت الى مونت بيليه قرب العصر يوم الجمعة في ٣/٣/١٩١١ .

### مونت بيلية :

وصلت مؤن بيليه وكان بانتظاري صبحي بك الحسيبي احد طلاب المدرسة  
الزراعية وكنت اعلمته من مرسيليا عن ساعة وصولي وبدلالته قضيت  
الليلة الأولى في احد الفنادق وفي اليوم الثاني نقلني الى بانسيون عند  
سيدة عجوز ايس في الدار غيرها « ساحبه الله على هذه الاستفادة » .  
وبلدة مونت بيليه واقعة في جنوبي فرنسا وهي مركز مقاطعة الهيرول  
تبعد عن باريس ٧٥٢ كيلو متراً نفوسها كانت تقرب من الثمانين الفاً وتعد  
اول بلدة للعلوم في فرنسا فيها معاهد كثيرة ، معهد للأدب وآخر للعلوم  
والصيدلة والطب ويقال ان بناية المعهد الطبي هي من بقايا آثار العرب الذين احتلوا  
هذه المدينة عندما احتلوا اسبانيا وفيها من المعاهد ايضا معهد للصناعة وآخر  
للتجارة ، وفيها مركز جمعية الطب والجراحة وجمع علمي تأسس سنة ١٨٤٧ .  
مياها العذبة تأتيها من قرية « سان كليمان » والمياه تمر في قناة فوق  
قطار كقناطر المياه في حماة وهي التي ترفعها اليها النواعير وفيها موقع  
بديع يسمى البيرو وهو من اجمل باحات المدن في اقصاه قصر قديم مبني  
في القرن السادس عشر يدعى « شاتودو » يقع في الجهة الغربية للمدينة .

وفيه متحف صغير وبالرغم عن صغره بالنسبة الى غيره من المتاحف فان فيه  
 من الآثار اشياء قديمة ثمينة جداً لا يوجد لها نظير تأسس سنة ١٨٢٥-  
 وفي ساحة المدينة مسرح يسمى «كرانديتار» اي التياترو  
 الكبير وبالرغم عن اسمه فهو مسرح صغير بالنسبة للمسارح الكبرى  
 في فرنسا .

\*\*\*



« شاتو نو » في مونت بيليه

### المدارس الزراعية في فرنسا :

كان في فرنسا ثلاث مدارس زراعية كبرى في مونت بيليه وفي  
 كرينيون وفي رين وهذه المدارس من أعظم مدارس العالم الزراعية ، يخرج  
 الطالب منها بشهادة مهندس زراعي ويوجد غيرها مدارس زراعية من  
 الدرجة الثانية تسمى « فيرم ايكول » سيأتي البحث عنها .



### مدرسة مونت بيليه الزراعية :

هي من المدارس الكبرى في فرانس ذات ثلاثة صفوف تدرس جميع الدروس الزراعية الآتية : الزراعة العامة ، النباتات ، الآلات الزراعية ، المروج والمراعي ، الحيوانات وتربيتها ، الدواجن ، الكروم ، عمل المحور بجميع أنواعها ، الألبان بجميع أنواعها ، طبقات الأرض ، الري ، مصارف المياه ، الأمراض النباتية ، لمحّة مختصرة عن أمراض الحيوانات وهذه اقل من دروس البيطرة ، الصنائع الزراعية وغير ذلك من الدروس اللازمة لمهندس الزراعة .

\*\*\*

### انتقالي الى غرفة :

في اليوم الثاني من وصولي الى مونت بيليه انتقلت الى غرفة استأجرها لي صديقي الحسيبي بأربيهن فرنكاً مع الطعام لمدة خمسة عشر يوماً عند السيدة تدعى مدام (آليس دوموندا)

تسكن في شارع « دوله ريبيره rue de l'Herberie » وهي امرأة موظف توفي قريباً جاءت معه بحسب وظيفته من بلدها نيس وكانت تنتقل معه من مكان الى مكان حسب اقتضاء الوظيفة ولا ادري وظيفته ولكن الذي يظهر من أثاث الدار انه كان في وظيفة لائقة .

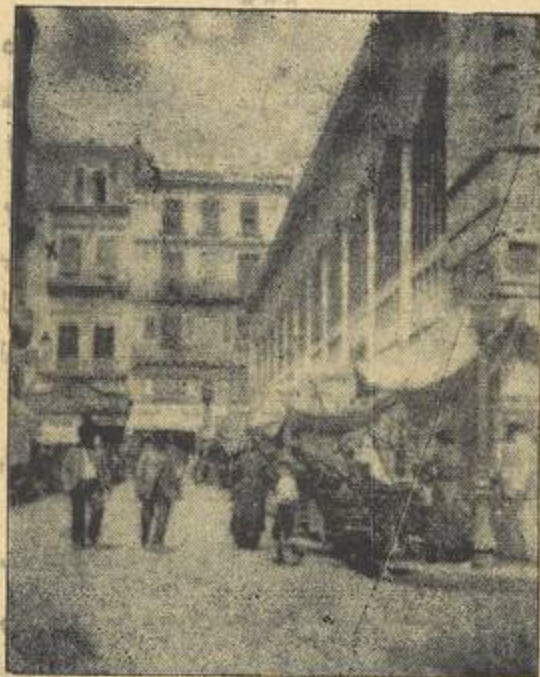
\*\*\*

### البانسيون :

البانسيون هو عبارة عن غرفة مفروشة للايجار يستأجرها الطالب بمبلغ يتفق عليه مع صاحبة المنزل « والبانسيونات » قبان عادي « وبانسيون دو فاميل » عائلي ، والعاذي هو استئجار الغرفة بفرشها دون



طعام ، اما المائتي فهو استئجار النرفة مع الطعام والنعيل وجميع ما يحتاج  
 الانسان فيكون في غرفة كأنه في داره وهذه البانسيونات كثيرة في فرنسا  
 وأكثر أصحابها من النساء الأرامل الاثني يفقدن أزواجهن وهذه



البانسيون الذي كنت اسكن به X

البانسيونات منها مائة الراحة ومنها مائة العذاب وهذا حسب طبائع  
 صاحبة الدار وسأذكر بعض الحوادث عن اخلاق اصحاب البانسيونات التي  
 سكنتها في ليون وباريس .  
 أما المدام آيس هذه فكانت عجوزاً طيبة حسنة الاخلاق عاملتني

معاملة الأم لولدها . اولادها الاربعة موظفون كل منهم في ناحية وليس معها في الدار غير ابنتها الكبير وهو رجل في نواحي الاربعين من عمره .  
عطيب المنصر حسن التربية قضيت معها أحسن وقت مدة اقامتي عندها .

\*\*\*

### قهوة دوليسبلاناد :

قهوة لطيفة نظيفة تقع في شارع ( ماركاديه ) ، كنا نجتمع فيها اوقات الفراغ مع الطلاب العرب والعمانيين وقد تعرفت الى شاب تركي يدعى جواد بك من أطف شبان الترك كان يحصل الزراعة مع الحسيني وشاب دمشق يدعى ميشيل النحاس كان يحصل الهندسة الصناعية وشاب مصري يتادونه « السبي مكيد » يعني السيد عبد المجيد خفيف الروح جداً كان يخفف عنا آلام الغربة .

وهذه البلدة هادئة ساكنة بعكس باريس وليتي تمكنت من اتمام دروسي فيها ولكن ما الفائدة وليس كل مايتغنى المرء بدرسه .

\*\*\*

### المدرسة الزراعية :

في اليوم الثالث من وصولي ذهبت مع السيد الحسيني الى المدرسة وقابلت المدير وطلبت قيدي بين الطلاب ولما كلمني ووجدني مقصراً باللغة قال لا يمكنه قبولي اذا لم احسن التكلم والقراءة بالفرنسية وعليه طلب مني ان اداوم على مدرسة ابتدائية لتعلم اللغة الفرنسية ومن العيث قبول مثلي في الصفوف الابتدائية في تلك البلاد ولما عرفت انه لا يمكنني الدوام في هذه المدرسة جعلت أبحث عن مدرسة متوسطة يقبلونني فيها الى ان احسن القراءة والتكلم بالفرنسية فأرشدوني الى مدرسة زراعية في ليون تدعى ( ايكول فيرم )



فمزمت على السفر الى ليون وقبل انتهاء الخمسة عشر يوماً التي استأجرت.  
فيها الدار اعلمت المدام آليس بالأمر واقمحتها عذري واضطراري للسفر  
فقبلت العذر وأرجمت لي الفرق عن الأيام السبعة الباقية لأنني قضيت في

مونت بيليه اسبوعاً



في المراجعة ولما

انقطع أملي غادرتها

الى ليون لدخول

مدرستها وركبت

القطار باكراً وخرج

لوداعي السيد الحسيني

والمدام آليس وابنها

ووالدي مكيد

ورأيت من هذه

السيدة في هذا

الاسبوع عطف

الوالدة ووداع الأم

الولد فكنا نبكي كلنا

عند الوداع ولا ازال

اذكر ما أصابني من

سجى بك الحبيبي وجواد بك الترك

التأثر البالغ من هذا الوداع والأهسان إخواناً إنساناً أينما كان وليت أطاع

السياسيين تزول من الرؤوس ليعيش البشر إخواناً على وجه هذه البسيطة

ولكن ما العمل وأطاع الطاعين تزجج انخلق على مر السنين .



### في القطار :

القطر في فرنسا منظمة بالنسبة الى القطار الذي نعرفه في سوريا .  
وعني : « رايد سريع » لا يقف الا على المحطات الكبرى واكسبرس هواقل  
سرعة من السريع ولا يقف الا على المحطات الكبرى والمتوسطة والقطار  
المادي يقف على جميع المحطات والأجرة تختلف باختلاف القطر ويجمع  
الانسان في القطار بأشخاص مختلفين من جميع الأمم وعلى المسافر ان  
يحترم جميع الركاب مها كانت طبقتهم وسنهم وعند الصعود والهبوط من  
والى القطار يجب التأني بالمسير وعدم دفع الناس الى الوصول الى المقعد بسرعة  
والأحسن للمسافر في القطار ان يصل قبل ربع ساعة من قيام القطار الى  
المحطة ليتم نواقصه ويجد مقعده بسهولة وراحة فلا يصكر على غيره بالدفع  
و « الدفش » ومن عادات الأوربيين في القطار احناء الرأس بالسلام عند  
الدخول والخروج من عربات القطار خصوصاً اذا كان في العربة سيدات .  
من أقباح العادات قطع الحذاء اثناء السفر واذا كانت رائحة أرجل  
المسافر كريهة فانه يؤدي الركاب ويسلب راحتهم وهذا لا يجوز  
مطلقاً ان يكون .

\*\*\*

### الكلاب في القطار :

ومن المعبت اخذ الكلاب في القطار والركابها في عربات الركاب ولم يكن  
المسافر ان يشحن كلبه بقفص في « الباكاج » عربة الشحن فيضع له طعامه  
والماء ويستلمه في محطة البلدة الذاهب اليها . وكثير من الحكومات الأوربية  
تمنع ركوب الكلاب مع المسافرين في القطار .

\*\*\*

### التدخين ممنوع :

والتدخين ممنوع في القطار ولكن بعضهم يدخن رغم المنع اذا كانت نوافذ العربة مفتوحة. خصوصاً في الشتاء فان الدخان يؤذي الركاب وعلى الأكثر السيدات منهم ولذا على المسافر مراعاة هذه المادة والاستئذان من المسافرين بالتدخين قبل البدء فيه واذا رجاه أحدكم بعدم التدخين يجب ان يمتنع لأن بعض الأمراض يضرها دخان السكاير خصوصاً مرض الربو « آسم » وفي بعض القطارات يمنع التدخين ومن اراد التدخين فليخرج الى المشى وبعناية التدخين في القطار :

\*\*\*

### الفت الغليون :

ذكروا ان السيدة في قطار طلبت من احد الركاب عدم ازعاجها بالتدخين وكان بيده غليون يدخن فيه فلم يلتفت الى احتجاجها وأتادت الطلب بشدة فلم يأبه لها فأخذت الغليون من يده وألقته من نافذة القطار وهو في سيره فلم يغضب الرجل لكنه مد يده وأخذ كلب السيدة الصغير والقاه من النافذة فقامت قيامة صاحبه وجاء شرطي القطار واجتمع الركاب من كل صوب وكانت المحطة قريبة وما كاد القطار يقف وينزل الشرطي والمتخاصمين الى رصيف المحطة لأجراء التحقيق حتى رأوا الكلب الصغير يركض نحو المحطة وفيه الغليون فأخذت السيدة كلبها والرجل اخذ غليونه و « قلمو الدق مانماً واحدة بواحدة » .

\*\*\*

### وصولي الى ليون :

في الساعة الثانية بعد نصف الليل وصل القطار الى ليون وكان البرد



قارساً جداً والرياح الباردة تسليخ الوجوه ، ليس معي رجمان ولا أعرف  
 اللغة ولم أصادف أحداً أعرفه وتقدم مني رجل لا يحمل اي (شارة) علامة  
 على عضده أو في صدره كالحمايين أو الادلاء الرسميين وسأني عما اريد قلت  
 اريد فندقاً رخيص الأجرة « بون مارشه » قال تفضل وكنت وضعت  
 الحقيبة وصندوق ادوات الطعام عند حارس الثياب « كار ديروب »  
 فسلمته الحقيبة والصندوق ودفعت الأجرة ثلاث « سوات — السو واحد  
 من عشرين من الفرنك » عن كل وحدة ليحفظها لي الى الغد واخذت



محطة بروتون في لبنان

وصلا مهره بحتم الغرفة وسرت مع الدليل الى خارج المحطة فوجدت عربات  
 الأجرة منتظرة الركاب واكثرها بحصان واحد وبنرنا على الأقدام وانا  
 احمل يدي غلبة القبعات وكنت اشترت من الانسكندرية ثلاث قبعات  
 احداها « ميلون — نصف رسمية » وهي تشبه بطيخ الشام والثانية قبعة



عادية والثالثة للسفر « كسكيت » ووصلنا الى اوتيل جانب المحطة والمسافة  
بينها لا تزيد عن المائة وخمسين متراً واخرجت فرنكا لا عطيه اياه فلم يقبل  
وطلب عشرة فرنكات مع ان اجرة الغرفة في الفندق فرنكان ، قلت لماذا  
المشرة قال اجرتي وجعل يعلي صوته ولم اقدر ان اتفاهم معه وكما اشار  
له البواب بالسكوت زاد بالصراخ حتى اقلق سكان الفندق ولما رأى البواب  
ان الرجل « فاجر » دفعني وياه الى خارج الفندق والتي بعلبة القبعات الى  
الخارج واغلق الباب وبقيت على الرصيف والهواء العاصف يسقع الوجوه  
وعندما وقعت علبة القبعات على الأرض فتحت وخرجت منها القبعات ودارت  
القبعة « المليون » على حرفها والشارع منحدر وكانت شدة الهواء تدفع  
القبعة فلم تتمكن من اللحاق بها الا بعد جهد جهيد والرجل يركض خلفي ،  
اخذت القبعة بعدما امتلأت بالوحول والثفت الى الرجل وقلت واخيراً  
ماذا تريد قال اجرتي قلت إما ان تأخذ فرنكا واما تفضل الى مخفر الشرطة  
واذا ابيت فليس لك من دواء الا هذي العصا فاضرب الرجل عند سماعه  
كلمة الشرطة وقبل بالفرنك أخذه ومضى يشتمني بكلمات لم افهمها وكانت  
شتمه لي بصوت عال فتركته يهذي ومشيت نحو مقهى قريب وانا اخحك  
وجلست في المقهى استريح وطلع الصبح ، وسألت صاحب المقهى عن  
محل ابنا العرب في ليون فقال اذهب الى الجامعة وبقيت في المقهى الى  
الساعة الثامنة ونصف ثم ذهبت الى الجامعة وجلست انتظر خروج الطلاب  
الى الساعة الحادية عشرة واذ بشيان خارجين وبينهم شاب اسم طويل  
فتقدمت منه وقلت السلام عايكم فرد السلام وتقدم مني وصافحني بشوق  
وحرارة والثفت حولنا بضعة طلاب جميعهم مصريون وتعارفنا « على الواقف »  
وقالوا هيا الى المقهى وكان بالقرب من الجامعة مقهى يدعى مقهى السلام .

### مقهى السلام :

وما كدت اخبرهم خبري حتى تكاثر الطلاب المصريون واصبحوا مقننار  
عشرة شبان وكلما جاء واحد يعرفني به الشاب الاول واسمه اللي فؤاد  
وعرفني بشاب يدعى محمود فخري وهو ابن احد اغنياء القاهرة جاء للدرس  
المحقوق في ليون دعاني لتناول الغذاء وتلطف بأن يكون دليلي وكثرت  
سؤالات هؤلاء الشبان عن حالة البلاد العثمانية والحرية والدستور وكلهم  
متعطش لسماع اخبار العثمانيين وجميعهم من أنصارهم بكرهون الانكليز  
وكانت الروح الوطنية تتوثب في صدور هؤلاء الشبان المصريون الذين  
يستفسرون عن الانقلاب العثماني بكل تلهف ويسمعون كلامي بكل شوق  
وارتياح وبعد ان قضيتا ساعة في الحديث تفرق الطلاب ووعدني فخري  
بأنه سيجد لي في القند « بانسيونا » عند اسرة كريمة ليوفر علي شيئاً من  
اجرة الفنادق .

ثم اخذني الى فندق قريب بت فيه ليلتي وفي ظهر اليوم الثاني جاءني  
حسب الوعد واخذني الى دار سيدة تدعى مدام ماري شوبان تسكن في  
شارع « بوبوكو » وهي آية في الشناعة وابنتها صيرة طبق الاصل  
عن والدتها . استأجرت الغرفة بثمانين فرنكاً مع الطعام والفسيل في الشهر  
مشترطاً تركها بعد خمسة عشر يوماً اذا لم اجسد فيها الراحة ودفعت مقدماً  
عشرين فرنكاً على الحساب

\*\*\*

### قوم ايكول :

هذه المدرسة من المدارس المتوسطة تعلم الطالب الزراعة العملية مع  
قسم بسيط من العلوم النظرية ومناها مدرسة المزرعة ذهبت اليها مع



المدام بلانش كومبو. وصديقي فخري محمود وكان المدير بانتظارنا بناء على  
 وعد مع المدام بالتلفون . وبعد التعارف طلبت دخولي في المدرسة وقدمت  
 له شهادة المدرسة الاعدادية فقال ارجو ان تترجما وتصدقها من قنصلكم  
 في ليون ودعانا لزيارة المدرسة فصحبناه ودار بنا على جميع الصفوف وعلى  
 الاصطبل ومحسب الدواجن وحديقة المدرسة وارانا الآلات الزراعية  
 الميكانيكية الحديثة. واحتفل بنا جداً ووعدني بقبولي بعد ترجمة الشهادة  
 وفي هذا اليوم بعد رجوعنا الى ايون زرت القنصل وقدمت له الشهادة  
 طالباً ترجمتها والتصديق على الترجمة وكان القنصل العثماني قنصلاً فخرياً  
 من تجار ليون الافرنسيين ولما لم يكن لديه ترجمان يحسن الترجمة طلب  
 مني ترجمتها ليصدق عليها وذهبت ابحت عن من يحسن الترجمة وكنت كتبت  
 كتاباً الى احمد قدرى احد طلاب الطب في باريس من ابناء دمشق اعلمه  
 بقضيتي وطلبت منه ترجمة الشهادة وتصديقها من السفارة فاخذت الجواب  
 بعد يومين يطلبني فيه الى باريس ليدخلني في مدرسة كرينيون لان فيها  
 مدرسة كمدسة ليون واكون بقرب الطلاب السوريين فعزمت على السفر  
 الى باريس وبدأت اقطع علاقتي من ايون وقبل الرحيل منها لا بد من  
 ذكر شيء مما رأيت فيها

\*\*\*

### مدينة ليون :

ثالث مدينة في فرانس وهي مركز اقليم الرون يمر فيها نهر الان « الرون »  
 والساون ، نفوسها تقرب من النصف مليون ، آنذاك ، فيها جامعة كبيرة  
 يدرس فيها الفروع الآتية : الحقوق ، الطب ، الصيدلة ، العلوم ، الادب ،  
 بيطرية ، وفيها مدرسة عسكرية للطب . وفيها معاهد علمية كثيرة منها معهد ،



للرياضة ، للتجارة العليا ، للكيمياء الصناعية ، للحياكة ومدرسة اعدادية  
للاستعمار تسمى « Ecol De preparation colonial » .

اسست سنة ١٨٩٩ وفيها معهد للفنون الجميلة ، ومعهد هندسة وفيها  
معهد موسيقى « قونسروا توار » اسس سنة ١٨٧٢ اسمه الميوسو  
« مونكن Mongin » رئيس الأور كسترا في الأوبرا وهذا المعهد مربوط  
« بكونسروا توار باريز » لهذا المعهد بناية لابأس بها فيها ١٢ قاعة المدرس منها  
قاعتان كبيرتان للأجتماعات تتسع احداها لأكثر من ثلاثماية شخص ،  
وفي ليون ١٢ مدرسة تجهيزية ثلاثة الذكور واربعه للإناث واربعه مختلطة  
كما ان فيها مدرسة صناعية الميكانيك اكثر هذه المدارس رأيتها من الخارج  
وبعضها زرتها مع محمود فخري ولا يمكنني ان ابحت عنها بالتفصيل لاني  
لم ادرس احوالها بدقة والذي يمكنني ان اقله ان رؤية هذه المدارس  
والمعاهد وانكباب الطلاب على تحصيل العلوم فيها جعل في نفسي شيئاً  
يدفني لتمام التحصيل لا اخدم امي المسكينة وكم كان الخيال يتجسم في  
رأسي فأرى نفسي ساعياً لفتح المدارس والمعاهد في بلادي مجدداً في دفع  
الطلاب للتحصيل للنهوض ببلادي والسير بها في موكب الحضارة واني  
احمد الله بأنني لم امت حتى رأيت بأعيني أمثال تلك المعاهد والمدارس في  
دمشق تقوم بدلاً عن « الحجوات والكتائب » .

\*\*\*

### المدام شوبان :

صاحبة « البانسيون » بقيت معها خمسة عشر يوماً ولا يدلي من ذكر  
كلمة عنها .

افرنسية كالافرنسيات العربيات « بالنروزة » وبالرغم عن اللطف الذي

تمتظاھر به فاقل كلمة كافية لان « تطلع خلقها » قلت اني كنت اشترطت ان  
اكون حراً بعد الاسبوعين اذا لم اجد في دارها راحتي ولما اخبرتها اني  
مسافر الى باريس قامت قيامتها والمصيبة عجزت عن تفهيمها مرادي لعدم  
معرفتي اللغة الافرنسية وراحت تعاتبني وتمن علي بما قامت به نحو من  
الخدمات خارجا عن الشرط وهو اني سألتها في يوم عن محل لرفو الثياب  
واريتها طرف سترتي وقد اصابها العث واكل منها بمقدار ظفر انسان  
فقالت لازوم للرفاء انا ارفوها لك وبالفعل اصلحت السترة « الله يستر  
عليها » وشكرتها على ذلك وعندما عرفت اني سأغادر الدار قالت لم ترتح  
عندي ألم يكن الطعام جيداً ونظيفاً ألم ألم . . . ألم ارفو لك السترة دون  
مقابل واضح الخيط من عندي قلت بلي وقد شكرتك آنذاك قالت اذا لماذا  
انت ذاهب وجعلت ابنتها « تنروز » أكثر من امها حتى انها من شدة  
تأثرها بكت . وكادت تبكي ولم اقنعها باني مسافر الى باريس حتى اتيت  
بفخري يشهد بذلك وبعد ان اقسام بشرفه صدقته وغادرت الدار على  
ستر وسلامة .

\*\*\*

### اقتصاد الأفونسيات :

كان في غرفتي مصباحان اشعلتهما في الليلة الاولى واذا بالسيدة تنبني الى  
الزوم الاقتصاد بالنور وذلك باطفاء المصباح الواحد اذا لم يكن عندي  
ضيوف لان المصباح الواحد يكفيني للمطالعة واشمال المصباحين يعد تبديراً  
واسيراً فاجبتها الى طلبها وسرت حسب اشارتها الى ان غادرت الدار .

\*\*\*



### صحن بفرنك :

كانت المدام شوبان تشمل في المطبخ مصباحا غازياً وفي احد الايام رايتها تقفل اوراقا من الجرائد وتجعلها رفيعة على شكل السهام هذه الاوراق تضعها في المطبخ باداة كالكنازة معاقه جانب المصباح فاذا ما اعتم الوقت اخذت ورقة وشعلتها من « الطباخ البريموس » وانارت فيها المصباح فقلت لها لماذا تمدين نفسك بهذا العمل والكبريت خيـص . فضحكت وقالت يا ولدي انا فارغة الآن والجرائد لم يعد لي حاجة بها فاذا استفدت من هذه الاوراق بعض الفرنكات في السنة بامكاني ان اشترى بسكل فرنك صحن او كاسا من البلور افيد منها في الدار او فرهنسا من ثمن الكبريت وما دام الطباخ مشعلا فلماذا الاسراف في الكبريت وكبريته فوق كبريته يجتمع منها غلبة بل غلب فسكت وقلت ويل للسرفين وفكرت بهذا الحادث عندما احتل الأفرنسيون سوريا وقلت أي وقعة سوداء مع امة نساؤها توفر الكبريتة اتربح منها فرنكا في السنة .

\*\*\*

### مرافع نصف الصوم :

صدف وجودي في ايون في منتصف الصوم عند الكاثوليك فحضرت المرافع في ايون ويسمونها ( كافالكاد دو ميكاريم ) . يفطرون بها ويستبيحون الخبازة ويكثرون من عمل المسأخر وقد ضربوا الخيام واقاموا اسواقا في الباحات والطرق التي حول بنايات الجامعة ونقلت البضائع على انواعها لهم الخيام كما انهم اقلوا سرادقات كثيرة من سرادق « السيركات » (١) عرضوا

(١) « السيرك » ملب كبير متقل يقام تحت الخيام يتقل به اللاعبون من بلدة الى بلدة .



فيها كثيراً من الألعاب « البهلوانية » والتمثيلية والمضحكة والكر كوز  
 الأفرنجي المسمى marionette وهي دمي من اللعب الصغيرة على اشكال  
 مختلفة لها في رأسها خيوط من مطاط يمسك بها رجل جالس في اعلى مسرح  
 صغير يساعده مساعد او اثنين حسب الألعاب التي يقوم بها فيمثل رواية  
 وجميعها مضحكة ويسير الدمى بالخيطان وفي صدر المسرح الصغير ستارة



منظر من مناظر ايون

توداء والأضواء مطفأة والمسرح مفضاه بمصاييح خفيفة بحيث لا يرى  
 المتفرج الخيوط حينما يحركها اللاعب فيظن ان الدمى تسير من نفسها وهذه  
 اللعبة يحبها الأولاد والروايات التي تمثل ليس فيها كلمة بذميمة بخلاف ألعاب  
 الكركوز عندنا .

\*\*\*

### خيمة المولوية :

رأيت في المرفع خيمة كبيرة عرفت انها مخصوصة لقتل الدراويش فيها دغوف مرفوعة عن الارض مقدار نصف متر جعلوا حولها دائرة من الحبال تفصل المتفرجين عن اللاعبين ووضعوا على باب الخيمة اعلانات كبيرة فيها رسوم الدراويش « بكلاهاهم » (١) الطويلة واجرة الدخول « ثلاثة سوات » والسو واحد من عشرين من الفرنك .

دخلت لارئي هذه « الفرجة » وكان الفصل يتجدد كل ساعتين ورأيت في الداخل جماعة اخلاط يقلدون الدراويش بالفتلة والطقوس التي تقام في التكايا في المواسم الدينية وجوقة موسيقية مركبة من ثلاثة نايات وكان وقانون وقرزان والدراويش اخلاط من ترك وعرب من اسلام ومسيحيين جماعة مرتزقة جعلوا هذا العمل ويسميه الدراويش « مقابلة » باباً للرزق وقد تأرت جداً من هذا المنظر لاني القائمين به كانوا يتخذونه هزواً لا ضحاك الناس عليهم والدولة العثمانية لا تحتاج على هذا العمل وكيف تحتاج وقنصلها في ليون افرنسي مسيحي فتأمل .

\*\*\*

### الأسود :

من أم الألعاب اسود ستة من اكبر الاسود يلاعبها مروض شاب قتر كض بين يديه كما ترقض الكلاب بين يدي الصياد وفي يده سوط طويل مثل سوط الخوذي « العربي » يضرب الاسد فيه ضرباً موجعاً فيذل ويطيع المروض ويجري الحركات المطلوبة منه بصعوده على مقاعد

« الكلام كلمة فارسية معناها الغنسة كانوا قديماً يتممون نوتها واخيراً بقيت اسماً لغلنسة دراويش المولوية وسياقي بنها .



خشبية خاصة لوقوفه على الارجل ووضع الأيدي على حديد الاقفاص  
والخلاصة انها فرجة مخيفة يقف المتفرج ماسكاً قلبه بيده خوفاً على  
المروض الواقف بين ستة اسود في قفص صغير .

\*\*\*

### رقص البراغيث :

الغريون لا يتركون ناحية يمكنهم الاستفادة منها ولهم روح مطاطة  
بتدريب وتعليم الحيوانات الكبير منها والصغير ومن اغرب ما رأته في  
المرجع رجل يرقص البراغيث ولولم اربعيني رقصها لما صدقت الخبر . رجل  
امام صندوق صغير فيه لوحة من البلور في آخرها ابواب صغيرة تحت  
اقواس تفتح فيخرج منها عدة براغيث داخلها تنف من الشعر والصوف  
يقف المتفرج امام الصندوق بعد دفع الاجرة وهي فرنك عن المتفرج وكلا  
صار عدد المتفرجين اكثر من عشرة يفتح الرجل الابواب ويضرب بأصبعه  
امام الابواب عدة ضربات ويبدأ بالترميز زمرة فم فيخرج بضعة براغيث الى الباحة  
وتبدأ ، بالوثب والنط مادام الرجل يزمز ومتى قطع التزمير وقفت البراغيث  
تستريح « انتر اكت » ثم يعود الى التزمير ويضرب بأصبعه على الزجاج فتعود  
البراغيث للرقص والنط واخيراً يقطع التزمير فتقف البراغيث ويفتح  
ويديق بأصبعه على الزجاج فتلب وتهرع الى مقرها وتلق الابواب  
ولا تفتح الا بعد ساعة على الاقل اذا اجتمع العدد الكافي من المتفرجين وتخرج  
البراغيث كالسابق وهكذا دواليك وهذا مما يحار به الفكر .

\*\*\*

### محمود فخري ميوب :

في احدى ليالي المرفع كنت اسير انا وفخري ونظراً للازدحام



تأخر عني بالسيرة وما انه قصير النظر كان يضع على عينيه نظارات « منمّرة »  
 وكانت « موضة النظارات » ان تكون بلاحاملات ترتكز على الآذان بل كان لها  
 سلسلة تعلق بقبة الرداء وبينما انا اسير سمعت صوت غجري بناديني فعدت  
 لارى واذا برجل بدين يضرب غجري على رأسه ويقول « فوتر شاپو فوتر  
 شاپو » يعنى قبعتك قبعتك وغجري محبول بين يدي الافرنسي ومناظره في  
 الارض فعدت بسرعة ودخلت بينها مستفسراً عن سبب الشجار فقهمت ان  
 غجري صدم الافرنجي دون انتباه وطلب « البردون » بالفم فقط دون ان  
 يرفع القبعة وكانت الصدمة شديدة فما كان من الافرنسي الا ان جعل يضرب  
 غجري على قبعتة ويقول قبعتك حتى غطى بها عينيه ورمى مناظره في  
 الارض ففرقت يديها ولكن الافرنجي زادها « بالهورة » فصغمت صغمة  
 رنت لها جوانب المكان ورفعت العصا الجلد وهددته بانه اذا اتى بأقل حركة  
 فسوف يرى ما لايسره فكسر الشر ومضى بحاله واتمنا الليلة على خير .

\*\*\*

### السفر الى شالون سورسون :

صحوت في الساعة الخامسة من يوم الاربعاء الواقع / ٢٩ اذار / ١٩١١  
 وكنت قطعت جميع علائق وحضرت حوائجي وجاء محمود غجري مع المدام  
 بلانش كومو وفؤاد المصري وخرجنا جميعاً الى محطة « بروتو »  
 وصحبنا المدام شوبان مع ابنتها وودعتهن وبكتا وبكيت ووصلت الى (شالون  
 سورسون) في الساعة العاشرة فوجدت السادة الامير مصطفى الشهابي  
 وعز الدين علم الدين وعبد الغني الشهبندر وهم شبان البعثة السورية الاولى  
 التي ارسلت الى فرانس سنة ١٩١٠ بانتظاري في المحطة لاني كنت اعلمتهم  
 قبلا عن يوم سفري فيجاؤوا والمحطة وعلى رؤوسهم الطرايش ولما رأيتهم قلعت

« الكسكيت » قبعة السفر ووضعت الطربوش ودخلنا شالون على هذه الصورة فكننا مطمح الانظار وذهبنا الى الدار التي يقطنها اترفاق واسترحنا قليلاً ثم خرجنا للتفرج على البلدة واول ما روي اياه مدرستهم ثم متحفاً



صغيراً فيه بعض حوائج

الأمير عبد القادر

الجزائري منها سرج

حصانه مع ركبته وغير

ذلك من اشياؤه الخاصة

التي حصل عليها

الافرنسيون في الحروب

التي حصلت بينها « رسم

الامير عبد القادر جاء

في الجزء الاول بالخطأ

حيث كان المراد وضع

رسم ولده الامير علي

فليرجع اليه من شاء من

القراء » وشالون

سورسون مدينة صغيرة

تقع على بعد ٢٨٠ كيلو

البعثة الدمشقية الى فرانس سنة ١٩١٠ من السيد عبد الفني

متراً تقريباً من باريس الشهنر الأمير مصطفى الشاهي الوافد عز الدين عم الدين

مدرستها الزراعية في الضواحي تقع على بعد ١١ كيلو متراً من المدينة

ومدرستها تدعى :



المدرسة التطبيقية للزراعة والكروم ( Ecole pratique  
 d'agriculture et de viticulture ) وراضي البلدة تخرج احسن  
 الخورسكانها ٢٥٠٠ الفا فيها معامل حديد، ونغار، وزجاجات الخمر وبرايط  
 « كفوف » قفايز، زيت، الخ. ولما حان وقت القطار اوصلني الزفاق الى المحطة  
 ودعهم ومشى القطار الى ديجون ومنها الى باريس ووصلتها بمد منتصف  
 الليل وكان في انتظاري الدكتور احمد قدرى الذي كتبت اليه اعلمه  
 عن الساعة التي اصل فيها ولم نكف نعرف بعضنا الا بالاسم وهو قريب  
 خطيبي لأمها ولاجل ان يعرفني من بين الركاب اخبرته اني سأضع في  
 صدر ردائي وردة حمراء تفرقي عن الناس بالفعل لم يكذب ينظر الوردة  
 الحمراء، حتى عرفني فأخذني الى اوتيل « كوجاس » في « كارتيه  
 لاتان - الحى اللاتيني » وهو مركز الطلبة وفي اليوم الثاني تعرفت الى  
 عوني عبد الهادي ورفيق التميمي وهما من شبان فلسطين الاعمين  
 وقضيت بضعة ايام اسمى فيها مع قدرى للدخول الى مدرسة  
 كرينيون الزراعية وبينما نحن جادون في امر الدخول الى  
 المدرسة وترجمة الشهادة واذ بكتاب من نسيب بك البكري جواباً على  
 كتاب مني كنت شوقته فيه المجهى الى فرنسا ولو فراراً اذا لم يوافق والده  
 ووقع الكتاب بيد عطا باشا البكري الذي طار عقله على ولده ووضعه تحت  
 المراقبة الشديدة حتى كاد ان يزهق انفاسه .

وقد اعلمني بكتابه ان والذي اقم يمينا منلظة بعد عودته الى دمشق  
 انه لن يرسل الي غرماً واحداً ولو بلغه اني في حالة التلف  
 واوصاني بان اغير فكري واستعيض عن التحصيل بسياحة صغيرة اطالع فيها  
 على بلاد الغرب وادرس احوالها واعود لاجل ان يزوجوني ويفرحوا



بني على رأيهم وبما اني اعرف والدي وعناده وايس لي من يرسل ما يكفيني  
 مؤونة التحصيل ولما لم اكن اعرف لغة القوم ولا يمكنني العمل لتحصيل  
 مصروفي عزمت على العودة الى دمشق وقررت ان ابدل التحصيل بالسياحة  
 وكان من الشبان الذين



الدكتور احمد قنري

تعرفت اليهم ثلاثة اطباء  
 اتموا تحصيلهم في باريس  
 ومرادهم الرجوع فاتفقت  
 معهم على ان نصطحب  
 في السفر ونعود الى  
 الآستانة بالسكة الحديدية  
 الشرقية ومنها الى بيروت  
 في انحر وهكذا كان  
 والاطباء هم المرحوم  
 الطبيب الامير شريف  
 الشهابي والطبيب الامير  
 عز الدين الشهابي  
 والطبيب احمد راتب  
 وسأذكر سفرنا بالتفصيل .

\*\*\*

البانسيون في باريس :

في اليوم الرابع من وصولي انتقلت الى بانسيون « دوفاميل » عند سيدة  
 بولونية ارملة تدعى « المدام كدوكو فيشكا » لها ولد صغير في السادسة من

عمره تيمش وابنها من واردها من هذا البانسيون الواقع في ٣ رودولستر  
اباد ، وعدد السكان ١٨ طالباً وطالبة أكثرهم من البولونيين منهم الدكتور  
قدري والداعي لله .

\*\*\*

### معلمة الأفرنسي :

وكانت صاحبة البانسيون اتفقت مع سيده افرنسية تسمى المدام  
( كوير ) ان تناول الغذاء مع الطلاب لتصحح لهم الكلام اثناء الطعام  
وتعطي الدروس الافرنسية لمن شاء منهم مقابل فرنكين في الساعة ، وقد  
اتفقت معها على اخذ درس ساعة في كل يوم وبالفعل بقيت تدرسي مدة  
اقامتي في باريس وقد افدت منها كثيراً في هذه المدة القليلة التي قضيتها معها  
اذ بالطريقة التي كانت تتبعها في التعليم وهي طريقة « برلنيس » أصبحت  
أتمكن من فهم مايقال وتفهم المرام بالأشياء الضرورية اللازمة .

\*\*\*

### شبان العرب في باريس :

مع الأسف لم يكن في باريس من أبناء العرب من الطلاب الا عدد  
قليل بالنسبة الى غيرهم من الأمم ، والذين تعرفت بهم غير من ذكرت  
سابقاً السادة : محمد الحمصاني ، عبد الغني العريسي من بيروت ، محمد رستم  
حيدر من بعلبك وتوفيق الناطور ، وتوفيق فايد ، هؤلاء الذين كنت  
اجتمع اليهم طوال المدة التي بقيتها في باريس واجتماعنا على الأكثر كان  
في غرفة عوني عبد الهادي الذي قضى مدة طويلة في تحصيل الحقوق وتعليمه  
على حساب والده وهؤلاء الشبان كان بعضهم مرسل على حساب الدولة  
كما سيأتي :

## البعثات العلمية :

قبل الانقلاب العثماني كانت البعثات العلمية الى اوروبا في حكم العدم الا بعض الضباط الذين كانوا يرسلون الى المانيا وكان بعض احرار الترك يفرون الى اوربا من الاستبداد الحميدي ولكن الحكومة الاتحادية في سنة ١٩١٠ أجرت فحصاً لخرجي التجهيز في الآستانة والذين نجحوا فيه ارسلوهم الى فرانسوا لما كانت اللغة الأفرنسية هي المنتشرة اكثر من غيرها ارسل جميع افراد البعثة الى فرانسوا والاكثرية الساحقة كانت من الأتراك والذين دخلوا الفحص ونجحوا من ابناء العرب هم :

محمد رستم حيدر ، رفيق التميمي فدخلا في مدرسة « سان لويس » الثانوية وحصلوا على شهادتها واتما تحصيلها العالي في جامعة الصوريون .

وقد ارسلت الجمعيات الوطنية في بيروت السادة محمد الحمصاني وتوفيق الناطور وعبد الغني العربي وتوفيق فايد وهؤلاء من الذين وضعوا اساس جمعية عربية الفتاة التي سيأتي ذكرها فيما بعد .

\*\*\*

## متاحف باريس :

المتحف « musée » توضع فيه الآثار القديمة والعاديات التي تعثر عليها الحكومة من الحفريات وفي باريس عدة متاحف اهمها متحف اللوفر ومتحف فرسايل وكلاهما من قصور ملوك فرانسوا والمتحف العسكري « الأنفاليد » وفيه قبر وقبة الامبراطور نابليون وبعض الحوائج التي يستعملها وفي هذا المتحف انواع اللباس العسكري على اختلاف العصور وفيه كثير من الترايات التي اخذتها الجيوش الأفرنسية في الحروب المتعددة في جميع



المصور وتماذج من لباس الفرسان والمشاة مع جميع انواع الاسلحة التي  
استعملها الجيش الأفرنسي في مختلف الأزمان .

\*\*\*

### ما يجلب النظر في باريس :

باريس جنة الله في الارض فيها من كل فاكهة زوجان لا يطلب الانسان فيها

شيئا الا ويحده .

هي دار السلام

والعرفان كما انها

دار الدعارة

والطفيان وهي

كعبة السياح

ومنزل الطلاب ،

مرتع الجهال

ومقصد الختال

مثل البحر

الداخل اليها

مفقود والخارج

منها مولود وبالرغم

عن ملايين الليرات

التي تدخلها

بواسطة السياح

فان اكثرية اهله



قبعة نابليون ورايات الجيش الأفرنسي وغدارات الامبراطور

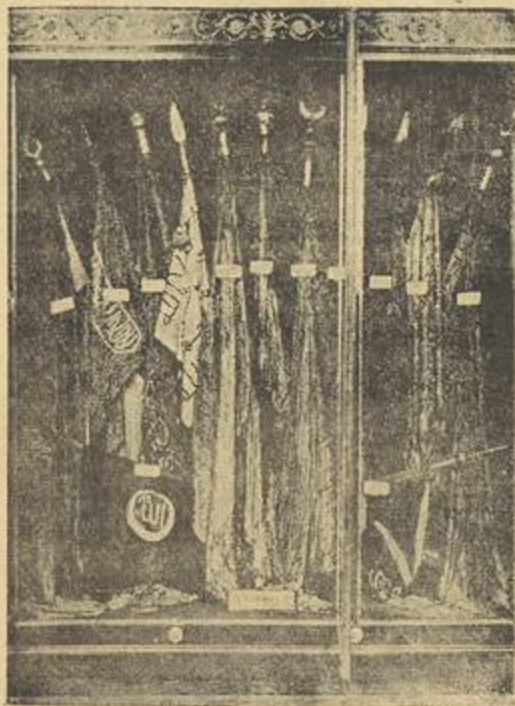


لباس الجنود الحارب في متحف الانفاليد من المشاة



متحف الانفاليد العسكري لباس الجنود الحاربين من الفرسان

فقراء تجمع المتناقضات وتعيب لكل انسان فيها الحياة وام  
مايستلقت النظر فيهما من البنائات العظيمة (تورايفل) البرج الحديدي احد  
عجائب الدنيا وام مايلقت النظر ايضاً كثرة الطلاب الاجانب منهم التشيكيون



بعض الأعلام التي كسبها الأفرنسيون في حروبهم

وعددهم يزيد عن الخمسين الف طالب وطالبة يأتي من بعدهم البولونيون  
وعددهم يزيد عن الاربعين الفاً وبعدهم ياتي اليابانيون ويتراوح عدد طلابهم



بين العشرين والخمسة والعشرين ألفاً والغريب في امرهم اني لم أر طالباً يابانياً  
 واحداً في غير ايام الآحاد (بعطط) في المحلات العامة وكان من المصريين مقدار  
 مائة وخمسين طالباً « والمصريون فيهم البركة بالعظمة » ولم ار طالبة  
 عربية واحدة بين الوف الطالبات الاجنديات اما الطلاب العثمانيون فكان

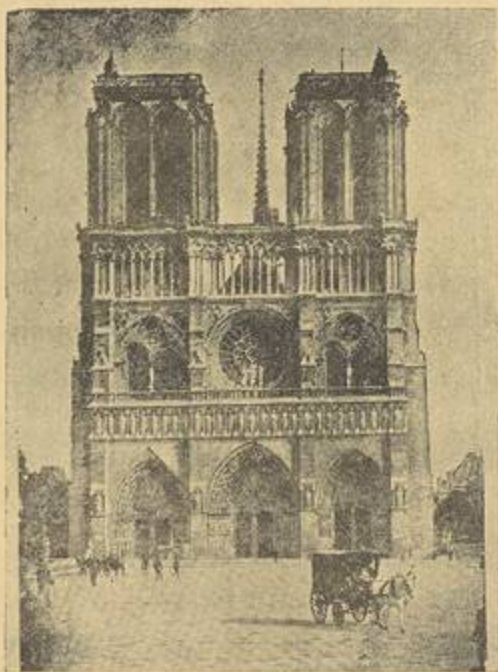


برج ايفل : باريس

عددهم ثلاثون طالباً ليس  
 بينهم طالبة وهذه البعثة  
 العثمانية الاولى ( طالبان )  
 منها عربيان وثلاثة ارمن  
 ورومي واحد وخمسة  
 وعشرون طالباً من الاتراك  
 وكان من ابناء العرب غير  
 هؤلاء بعض الطلاب من  
 بعثة الجمعية الخيرية البيروتية  
 والبعض على حساب اهلهم  
 وهؤلاء جميعهم لا يزيد  
 عددهم عن الخمسة عشر طالباً  
 سيأتي ذكرهم فيما  
 بعد وهذا مما يزيد  
 الحسرة في نفسي لتأخر  
 امتي في ارسال البعثات ومن

قرأ تاريخ نهضة مصر الحديثة ايام الحديوي محمد علي يرى ان البعثات  
 التي ارسلها الى اوربا كان لها الباع الطويل في نهضة مصر وعمرانها .  
 ومن أجل المباني التي استلفت النظر في باريس مسرح الاوبرا

وكنيسة (نوتردام) وكنيسة (مادلين) وساحة (الكونكورد) التي فيها المسلة  
الفرعونية التي اخذت من مصر وتيازو الشاتله وتيارو ساره برنار  
الممشة الشهيرة التي لم أر تمثيلها اسوء حظي مع انها كانت على



كنيسة نوتردام دو باريس

قيد الحياة والحاصل لا يمكن الوصف ان يصف باريس من ناحية او نواح  
خاصة بل كل ما فيها حسن جميل من واجب كل من يقدر على السياحة من  
الأغنياء ان يزورها ولو مرة في العمر .

## انبعاث الحركة العربية :

في سنة ١٩١١ تأسست جمعية عربية الفتاة في باريس وقبل البحث في تأسيسها ورجلها وأعمالها لا بد لي من الرجوع بالقرىء الى ما قبل الانقلاب العثماني والتبسط قليلاً بالبحث عن العوامل التي ايقظت في العرب روح الوطنية وكنت ذكرت في الجزء الأول شيئاً عن الانقلاب العثماني وعوامله ولكن البحث كان مقتضباً جداً ولذا رأيت ان امهد للإبحاث الآتية بكلمة لا بد منها ليقف الشبان الذين لا يعرفون عن العهد الحميدي الا الاسم وليعرف الحقيقة من يطالع المذكرات من الشعوب المسلمة خصوصاً المصريين الذين لا يزالون يلوون ووننا تقيامنا على الدولة العثمانية ومحاربتنا ايها مع ان الأتراك اخواننا في الدين فأقول :

\*\*\*

## الدور الحميدي :

السلطان عبد الحميد الذي تبوأ عرش بني عثمان ثلاثاً وثلاثين سنة لا يكفي لذكر دوره عشرات الأجزاء من هذه المذكرات وفي كتب التاريخ ما فيه الكفاية عن ذلك ولكن الذي يهمني ان يعرفه القراء ما كانت عليه حالة البلاد في عهد هذا السلطان وشيء من الأعمال التي قام بها بعد اعتلائه العرش العثماني عقيب خلع عمه السلطان عبد العزيز واخيه السلطان مراد وقد أخلف بوعدده لا حرار الترك وعطل الدستور المرة الأولى قبل ان تمر سنة على اعلانه ونق شيوخ الأحرار مدحت باشا الى الطائف وقد قيل انه ارسل من قتله فيها وفر الكهبرون من احرار الأتراك الى اوربا خوفاً منه وفي اوربا صدروا الجرائد ونشروا النشرات ضد العهد الحميدي. ساعدهم بهذه الدعايات الدول الأوروبية من اصحاب المطامع في الولايات العثمانية تلك



الدول التي كانت تنتظر تقسيم تركه الرجل المريض ، ويمنون به الدولة  
 العثمانية وانسلاخ بعض الولايات العثمانية عن جسم الدولة أثار الرأي العام  
 ضد السلطان عبد الحميد الذي أصبح اسمه مقروناً بالظلم والاستبداد مما ساعد  
 أخيراً على القضاء عليه باعلان الدستور للمرة الثانية ثم بحلعه من العرش العثماني .  
 والسلطان عبد الحميد قضى أيام حكمه بالخوف والهلع والأكثر من تعيين  
 الجواسيس حتى قالوا ان الجواسيس في آخر أيامه كان عددهم يزيد عن الثلاثين  
 الفا في الدولة العثمانية وجميع هؤلاء كانوا يتناولون الرواتب من خزينة  
 الدولة ويقومون بالتجسس داخل البلاد العثمانية وخارجها . وقد مكث الأتقوا  
 وكسرت الاقلام وحكمت البلاد بطريقة استبدادية هلمت لها القلوب . والتفت  
 حوله بعض شياطين الانس من جميع الاجناس والعناصر وجعلوا يزينون  
 له البطش بالاحرار ويفترون على الناس ومن له خصم يقدم بحقه التقارير  
 الكاذبة مما يسبب له وامائله الشقاء وقد ذكر بعض المؤرخين ان اكثر  
 من ظلموا في أيامه وسجنوا كانوا من الابرياء وذهبوا ضحية اخصاصهم  
 الذين وشوا بهم او ضحية لفاقدى الاخلاق من الجواسيس الذين يخترعون  
 الوشائيات ليجوزوا على رضا السلطان هذا ما كان يتهم به اخصاص العهد .

\*\*\*

### الجرائد في ذلك العهد

اما الجرائد في عهده فكانت عبارة عن صحف تجسارية ، ليس لها هم الا  
 كسب الدرهم وتضليل الامة بالاخبار الكاذبة التي ترضي جلاله السلطان .  
 وتكيل الثناء بالكيل الوافي له ولوزرائه وكبار رجال الدولة بحيث لم يكن  
 احد من الناس يقرأ في جريدة واحدة اي انتقاداً لصغر موظف ولا ترى  
 في الجرائد الا المدح والثناء على السلطان واعماله المجيدة وتجييد اعمال

الموظفين بحق وبغير حق وشكر « صاحب الشوكة » يعني السلطان بمناسبة  
وبغير مناسبة والجريدة التي تعارض او تنتقد ولو بالإشارة فجزاؤها الاغلاق  
وسجن صاحبها ومحرريها .

وليت بالامكان ذكر بعض ما كانت تكتبه الجرائد من مدح للسلطان  
عقيب انسلاخ كثير من البلاد عن جسم الدولة في زمن السلطان عبد الحميد  
خان الثاني ؛ ولكن المجال غير مساعد والبلاد العثمانية التي سلخت عن جسم  
الدولة في عهده هي :

١ — ولايتا الفلخ والبغدان استقلتا اي بعد تولي عبد الحميد بستين  
وسميتا دولة رومانيا سنة ١٨٧٨ .

٢ — ولايات سلسترة وودين ونيش استقلت سنة ١٨٧٨ ايضا وسميت  
دولة بلغاريا .

٣ — ولاية الروم ابلي الشرقية وهي جنوبي بلغاريا .

٤ — الجبل الاسود « قره طاغ » استقل سنة ١٨٧٨ .

٥ — الصرب استقلت ١٨٧٨ .

٦ — قبرص احتلها الانكليز ١٨٧٨ ،

٧ — ولايات اردهان واقسارص وباطوم وارمينيا دخلت جميعها في  
حوزة الروس .

٨ — تونس الغرب دخلت تحت سلطة فرانس سنة ١٨٨١ .

٩ — تساليا اضيفت الى بلاد اليونان سنة ١٨٨١ .

١٠ — مصر احتلها الانكليز سنة ١٨٨٢ .

١١ — السودان فتحها الانكليز سنة ١٨٨١ كل هذا جرى بعد انكسار

العثمانيين في الحروب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٨ فكان لذلك صدى عظيم في



جميع البلاد واتخذ الاحرار الاتراك من ذلك سلاحاً لمحاربة السلطان عبد الحميد وحكوماته .

كل هذا كان يجري والعرب في سبات عميق قد خدّهم اسم الدين واطاعة او امر الخليفة التي امر بها الله في كتابه العزيز واطيعوا الله والرسول واولى الامر منكم . بهذه العقلية كان الترك يحكمون العرب ولما اعلن الدستور واستولى شبان الاتراك على الحكم وهم رجال جمعية الاتحاد والترقي ومدّوا اقدامهم فيه كما ذكرنا سابقاً فلبوا ظهر المجن لجميع العناصر غير التركية من المسلمين وغير المسلمين ومن ذلك التاريخ قامت العناصر العثمانية بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية والنوادي العنصرية وكان المسيحيون منذ القديم لهم تشكيلات سرية تساعدهم الدول الاوربية وتحميهم وبمداعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ظهر الوجود وابانوا تشكيلاتهم القديمة وبالرغم عن اظهارهم الفرح والسرور باعلان الدستور فانهم كانوا يكيدون له سرا .

\*\*\*

### الجمعيات العربية :

في وسط هذا التيار تنبه أحرار العرب من الشبان واحسوا بالخطر المحدق بالبلاد العثمانية جميعها وحفظا للكيان العربي بدأوا بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية في مختلف الولايات ، فأول جمعية عربية تأسست بعد الدستور هي :

\*\*\*

### جمعية الاخاء العربي :

أسسها في الآستانة كبار رجال الحكومة من ابناء العرب واجتمع



عيا عدد منهم من مختلف الاقطار من سوريا والعراق وطرابلس الغرب وغيرها والمؤسسون هم صادق باشا المؤيد من دمشق قومسیر الدولة العثمانية في امارة البلغار وايلة الروم ابلي الشرقي وشكري بك الحسيني القدس مستشار وزارة المعارف .



صادق باشا المؤيد

وعارف بك المارديني عضو في مجلس شورا الدولة واخيراً والي سورية اصله من ماردین تزوج احمدی « البرنسات » الأميرات في مصر وعاش فيها مدة طويلة وقد قابلته وهو وال في دمشق كما سيجي . يتكلم باللهجة المصرية ومنهم يوسف شتوان بك احد المقربين للسلطان الذي انتخب نائبا عن متصرفية بني غازي في افريقيا وهو النائب الوحيد الذي فسخ المجلس النيابي انتخابه وقام

الدكتور احمد قدري ويوسف مخبر حيدر مع بعض شبان العرب بمظاهرة دخلوا فيها الى المجلس واجبروا الاتحاديين على تصديق نيابته . ومنهم نخلة بك المطران من وجوه بعلبك ومنهم المرحوم شفيق بك المؤيد

وهو من أبرز الشخصيات العربية وأكثرها حركة ومن الذين شق لهم  
الأثر الأكبر أيام الحرب كما سيأتي .

\*\*\*

### عربية الفتاة :

هي الجمعية العربية السورية التي تأسست سنة ١٩١١ في باريس والتي



لعبت دوراً مهماً من ابتداء  
الحرب العامة الى ان انحلت  
بعد خروج جلالة الملك  
فيصل بن الحسين من دمشق  
وسأذكر الآن ما عرفته عن  
تأسيسها والمؤسسين وسوف  
اذكر فيما بعد بعض الاعمال  
التي قامت بها قبل وبعد تأسيس  
الحكومة العربية الفيصلية  
في دمشق حتى أيام الحلال  
الجمعية .

كل شيء اساسه الفكرة  
وفكرة تأسيس الجمعية  
العربية المسماة بالفتاة قامت  
برؤوس ثلاثة من شباننا

عارف بك الماردني

في الآستانة وهم عوني عبد الهادي من نابلس ( فلسطين ) والدكتور  
احمد قدرى من دمشق ( سوريا ) ومحمد رستم حيدر من بعلبك



ان هؤلاء الشباب كانوا ايام الانقلاب العثماني في الآستانة وقد  
 تحمسوا للحرية حسبما تقتضيه سن الشباب فكانوا يتبنون كل مظاهرة تقوم  
 في الآستانة ويستمعون الى الخطباء الذين يثيرون الشعور بخطاباتهم وقد أثر  
 فيهم تحامل الشباب الأتراك



شفيق بك المؤيد

على كبار موظفي العرب  
 كأحمد عزت باشا العابد  
 الكاتب الثاني في «المابين» (١)  
 والشيخ ابو الهدى الصيادي  
 ونجيب باشا ملحمة وغيرهم  
 ومع ان الرجعيين من موظفي  
 الدولة كان اكثرهم من  
 الأتراك فكان المهجوم على  
 ابناء العرب. ٩ / اكثر من  
 غيرهم من موظفي الأتراك  
 الذين لم يكن يذكر اسمهم  
 الا عرضاً.

أثر هذا النهج على  
 هؤلاء الشباب وجعلوا  
 يفكرون بطريقة للخلاص

من الأتراك فخطر لهم خاطر تأسيس جمعية مثل جمعية «جون تورك».

(١) المابين الدائرة الخاصة التي يجتمع فيها الوزراء في القصر الملكي العثماني ومن ثم  
 اصبحت اسماً لسراي الحكومة ومقرراً للوزراء.



تركيا الفتاة وهي التي قلبوا اسمها بعد الاقلاب الى جمعية الاتحاد والترقي  
 وبما يجب ان يذكر ان اول يوم فكروا فيه بهذه الجمعية يوم كانوا



يعشون فيه بظاهرة كبرى  
 في حي (البنك اوغلي) وهو  
 اكبر حي في الآستانة يسكنه  
 الأتاجان يظن المار فيه انه  
 في شارع اوربي سمعوا من  
 الضابط سري بك احمد  
 الخطباء حملة شعواء على احمد  
 عزت باشا العابد ووصفهم  
 بالخونة فتحركت العاطفة  
 العربية بهؤلاء الشبان  
 وصاروا كلما قرأوا شيئاً عن  
 رجال العرب في الجرائد  
 او رأوا رسومهم  
 « الكاريكاتورية » التي لم  
 يعتادوا عليها وتحملها كلمة عرب  
 ومعناها عند الترك « الكلب  
 الأسود » يحرقون الأرم

هكذا كانت الجرائد التركية ترسم رجالنا وتكتب  
 تحت الرسم خائن عرب عزت

وبدأوا يفكرون بلزوم تأسيس جمعية عربية تحفظ كيان العرب ولا يستبعد ان  
 تكون الغيرة من شأن الاترك كان لها اعظم الاثر ايضاً في تشكيل الجمعية  
 المذكورة وبما يجب ذكره ان العوامل التي دفعتهم للسرعة بتأسيس الجمعية هي  
 الدعايات التي حركت انعره التركية فصارت تزداد يوماً فيوماً حتى اصبح جميع

الاتراك النساء ورجالاً، شيوخاً واطفالاً في الشوارع والمساجد في الأزقة والمدارس  
لا ينظرون الى العرب خصوصاً الموظفين منهم الا بعين الأزدراء والاحتقار  
ولم يمض على هذا الانقلاب مدة حتى رفع الاتحاديون البرقع عن وجوههم  
وكشفوا عن ماتكنه ضمائرهم نحو العرب وغيرهم من العناصر العثمانية وجعلوا  
ينفتون في قومهم سمّ العنصرية التركية ويحبذون سياسة التتريك  
ويحضون الناس على تتريك جميع العناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية  
وتبدلت كلمات عثمان وعثمانية بكلمات ترك وتركية !!!

كل هذا كان يجري في حين كان الخطباء لا يفتأون ينادون بالحرية  
والاتحاد والمساواة والاخاء والعدالة حتى اصبحت هذه الجمل «كليشية»  
تردها جميع الافواه ولكنها كانت عبارة عن اقوال فقط واعمال رجال  
الحكومة على خلافها تماما وقد ظهر هذا للجميع وذلك باستيلاء الاتراك على  
جميع مراكز الحكم وابعاد غير عناصر عنها والهيمنة على كل الشؤون في  
الدولة واسسوا لحزب الاتحاد والترقي فروعاً في جميع الولايات وجعلوا  
ادارتها في ايدي الموظفين الاتراك الذين عينوهم حديثاً واكثرهم من الشبان  
الاغرار الذين يمجزون حتى عن ادارة انفسهم واصبح اصغر موظف  
اتحادى يعامل الوالي القديم معاملة الأمر السامور الصغير والنف حولهم  
الناس وجعلوا يدخلون في الجمعية افواجاً افواجاً ولم يقبلوا بينهم الا كل  
من كانوا يتوخون من ورائه فائدة مادية او مغنوية خصوصاً الذين بيدهم قوة  
انتخابية واكثر الذين التفوا حولهم وانتسبوا اليهم المرتزة من وجوه  
البلاد ورؤساء الأحياء الذين يمتاشون من ابواب الحكام حتى  
ان الزعماء الحقيقيين للبلاد اضطروا للخضوع ومداراة الاتحاديين خوفاً  
على مصالحهم وصارت نوادي الحزب في الآستانة والملاحقات مركز المراجعة



في جميع الأمور وقد ضعفت قوة الحكومة واستغنى كثير من الموظفين  
 القدياء من اصحاب الكرامة عن وظائفهم حرصاً على كراماتهم واعظم ناحية  
 ظهرت فيها نواياهم في المدارس العالية لما كان يظهر من الشبان الاثراك من  
 التهور في المجادلات التي تحصل بين الطلاب ويفرضها من الشباب وكم من  
 سررة جرى النزاع بين شبان العنصرين التركي والعربي عقيب جدال سياسي  
 في الصفوف وباحث المدارس .  
 ومن الحوادث التي كان لها تأثيرها على الاثراك هو اجتماع ابناء العرب  
 من متخرجي الصف الاخير في مدرسة الملكية ١٩١١ وسحب صورة



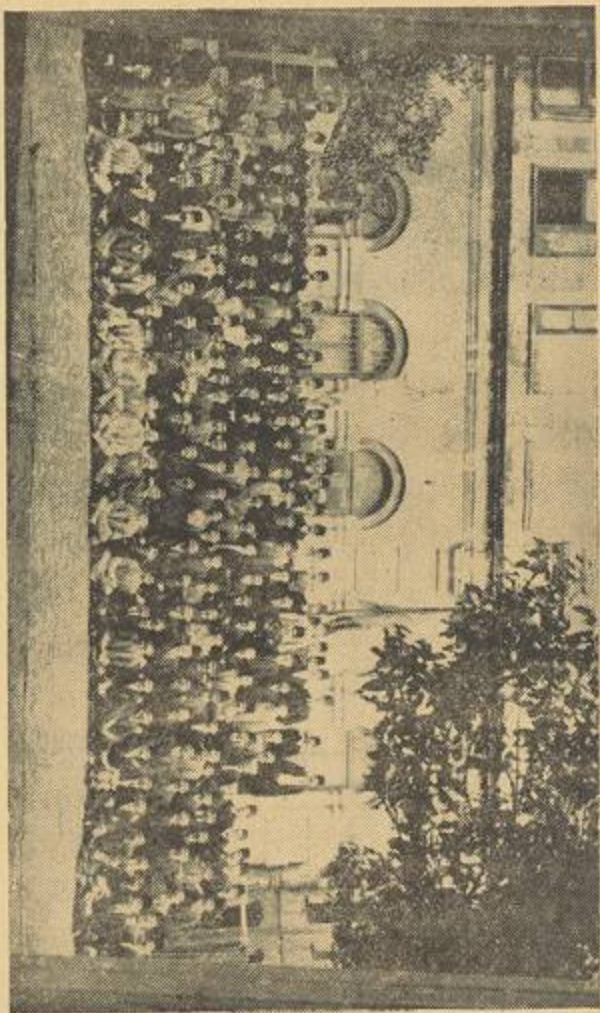
اول صورة لطلاب العرب من خريجي المدرسة الملكية الشاهانية انفرادوا برسم خمس



فوتوغرافية لهم ومع اول صف دخل في هذه المدرسة بعد الانقلاب  
وم السادة : ١ - توفيق الطرابلسي : طرابلس الشام ٢ - مسلم المطار -  
دمشق ٣ نسيب الابوي - دمشق ٤ مظفر البغدادي - العراق  
٥ عبد الستار السندروسي - طرابلس الشام ٦ زكي التميمي - نابلس  
فلسطين ٧ عبد القادر عوض - دمشق ٨ توفيق الحياتي حلب ٩ نسيب  
النابلسي دمشق ١٠ عاكف الجابري حلب ١١ عارف الخطيب حماة ١٢  
عبد المالك الجيرودي جبرود دمشق ١٣ عمر زكي الأفيوني طرابلس الشام  
١٤ معين الماضي حيفا - فلسطين ١٥ ثابت السويدي - العراق بغداد . بعد  
اخذ هذا الرسم غلت الضجة بين الطلاب وبعد اخذ ورد ومنعاً للشر  
واظهاراً لحسن نية العرب نحو الأتراك اخذ الرسم الآتي لعموم الطلاب  
المأذونين في ذلك العام مع اساتذتهم وبذلك خففوا شيئاً من حدة زملائهم  
شبان الأتراك الذين استلموا بعد مدة اكبر مراكز الدولة مما زاد في حقد  
مستنيري العرب خصوصاً رفقاءهم في المدرسة الملكية وعند وصولي الى  
الآستانة سأذكر بالتفصيل حركة شبان العرب والأعمال التي قاموا بها  
وتأسيس المنتدى الأدبي واخبار بقية الجمعيات العربية ولترجع الآن الى  
مأربته في باريس :

\*\*\*

التفويض الدروس المسجلة الجامعة سنة ١٩١١ في القدس





## ندره المطران :

قلت سابقاً اني قررت العودة الى البلاد ولذا اصبحت من الضروري ان  
أطلع على كل ما يمكنني الاطلاع عليه من بلاد الغرب ولما كانت السياحة  
تحتاج الى النقود وكانت تقودي قليلة جعلت اقتصد بقدر الامكان ولا  
تخرج القطعة من يدي الا « مسحاء » . وقد جلست يوماً في قهوة السلام  
« كاهن دولابه » استريح من طول السير على الاقدام وبما ان والذي لم  
يجابني على اي كتاب ارسلته اليه اضطررت ان اكتب كتاباً الى صديقه  
المرحوم كمال افندي المهابي اخبره فيه عن عزمي على الرجوع الى دمشق  
وجلست جاني سيدة جعلت تنظر الى الكتابة العربية وتتعجب وسألني  
ما هذه الكتابة قلت عربية « فجعلت » وقالت انت عرب قلت نعم فتعجبت  
ولم تصدق وطلبت مني ان اقدم لها شيئاً من المشروب فلم اقبل قالت انك لم  
تفهم ما اريد قلت بلى فهمت انك تريد ان تشربي المشروب وانا ادفع  
التمن قالت نعم قلت لا اريد قالت لماذا قلت لاني تلميذ فقير فضحكت  
وتركتني واذا رجل يسألني بالعربي انت من الشام يا افندي قلت نعم قال  
ابن المهابي وقد رأى عنوان الكتاب قلت لا بل انا ابن البارودي قال ماذا  
يكون محمود بك لك قلت والذي فقام وصافحني وقال هذا اخي وكنت  
رأيت ندره بك مرة في دمشق في حفلة اقامها الاكراد لرجال الاتحاد والترقي  
في بدء ايام الانقلاب خطب فيها ندره بك وأجاد وحاز اعجاب الحاضرين  
بما ابقى في ذاكرتي اثرأ طيباً له ولما عرفته قلت اولست حضرتك ندره بك  
المطران قال نعم من أين عرفني قلت رأيتك مرة تخطب في دمشق وبقيت  
صورتك في ذاكرتي وانا معجب بك فدعاني للجلوس معه وقدمني الى شاب



افرنسي يفوتي اسمه بصفته رئيس تحرير جريدة « الجون ترك » التي كانت تصدر في باريس وفهم مني قضيتي وقال سأكتب الي والدك بلزوم ابقائك في باريس للتحصيل فقلت سبق السيف العذل وانا على اهبة السفر قال انا ايضاً معجب بك وبصراحتك وهذه المرة الاولى التي ارى فيها شاباً يتمتع عن اجابة طلب سيده قلت لاجود الامن الموجود ودراهمي التي معي ربما تكفي لوصولي الي بلادي ولست مجبوراً للاستدانة لاجل ان اضيف سيده لاعرفها فدعاني لتناول الطعام في مطعم « كرانداوتيل » ودعى المحرر وذهبتا بعربة . و « الاوتيل » واقع جانب بناية الأوبرا وقاعة الطعام كبيرة جداً فيها موائد كثيرة جلسنا على مائدة مفردة

\*\*\*

### يواسون آنكله :

واحضر لنا الندل « الكرسون » القائمة وبما اني ضيف الشرف قدم لي القائمة ، فأخذتها كأني اعرف القراءة وألقيت نظري عليها فوقع على كلمة « يواسون آنكله » فهمت منه سمك انكليزي فطلبت منه فقال لي ندره بك انك لاتقدر ان تأكل هذا اللون لأنه لا يوافق مزاجك ولثلاثا اخجل امام الافرنسي قلت له اني استطيت هذا اللون قال طيب وجاء السمك و « عينكم تشوف فخري » بعد ان تناولت اول اقامة ماذا حل بي لاقدر ان اصف الحال التي وقعت فيها فقد جحظت عيوني واحتبست اللقمة في حلقي وكدت اختنق منها فشربت كأساً من اللبن المزوج بماء الفيشي الى ان قدرت ان ابلغ اللقمة الاولى ووضعت الثانية بقمي فكدت اقضي منها ولم أعد اعرف ما عمل و « بألف زور » بلعتها بعد شرب كأس ابن وماء

الفيشي فنادى ندره بك الكرسون وقال له خذ هذا الصحن واحضر له  
صحن لحمه « شاتوريان » وقال أما قلت لك انك لا تقدر ان تأكل هذا  
السماك قلت استجيت من رفيقك بأن ينظر اليّ بعين الاستخفاف قال  
لا تفكر بهذا وكل شيء لا تعرفه سل عنه قبل الاستعمال لئلا تقع بمثل  
ما وقعت فيه الآن ولا اقدر ان اصور للقارىء مقدار خجلي بعد هذا الفصل  
واخذت على نفسي عهداً بأن لا أمد يدي الى طعام لا أعرفه وكانت تلك  
الحادثة آخر ما وقع لي من نوعها ولم أقع في مثلها بعد ذلك اليوم .

تم الجزء الثاني : يتبع

## مستعمل الجزء الثاني

| الصفحة           | الصفحة                       |
|------------------|------------------------------|
| ٢٥               | ٣ الأهداء                    |
| ٢٦               | ٥ مقدمة : الجزء الثاني       |
| ٢٧               | ٧ فكرة السفر الى اوربا       |
| ٣٠               | مداوم في قلم محكمة الاستئناف |
| ٣١               | والذي في الآستانة            |
| ٣٥               | ١٠ القنادق في دمشق           |
| مدينة بور سعيد   | ١١ الخانات                   |
| ٣٦               | ١٣ خانات المدن               |
| ٣٧               | ١٤ التجارة                   |
| ٤١               | ١٦ اخلاق التجار              |
| ٤٢               | ١٧ الحزائمون                 |
| الطعام           | ٢٠ جناب الأكرم ،             |
| ٤٣               | دام بقاءه                    |
| ٤٤               | ٢١ التجارير                  |
| ٤٦               | ٢٢ الكتاب الخصوصيون          |
| ٤٧               | القومسيونجية والمرابون       |
| السيدات والشطرنج | ٢٣ امانة التجار              |
| ٥٠               | ٢٤ الأمانات الصغيرة ،        |
| ٥١               | طالب افندي الحلبيوني         |



|    |                              |    |                               |
|----|------------------------------|----|-------------------------------|
| ٧١ | تيازو الفاريتيه              | ٥٢ | الكلاب في اوربا               |
| ٧٢ | كراندبال ماسكه               | ٥٤ | طلبت شرف كلبها ،              |
| ٧٤ | معمل الخياطة                 |    | الكلاب الاغنى                 |
| ٧٦ | قاعة الرقص                   | ٥٥ | هناج البحر                    |
| ٧٧ | رقصة الكادريل                | ٥٧ | ماذا رأيت في نابولي           |
| ٧٨ | مرغريت رقص                   |    | سوق الملك                     |
| ٧٩ | الرقص                        | ٥٩ | الفقر في ايطاليا              |
|    | الوداع                       | ٦٠ | الغطاسون                      |
| ٨٠ | مونت بيليه                   | ٦٢ | اسرق من الفار                 |
| ٨١ | المدارس الزراعية في فرانسا   | ٦٣ | آخر ليلة في الباخرة           |
| ٨٢ | مدرسة مونت بيليه الزراعية    | ٦٣ | غليظ افندي                    |
|    | انتقالي الى غرفة : البانسيون | ٦٤ | السفراء والقناصل في زمننا ،   |
| ٨٤ | قهوة دوليسبلاند              |    | الامتيازات الاجنبية في البلاد |
|    | المدرسة الزراعية             |    | العثمانية                     |
| ٨٦ | في القطار                    | ٦٦ | عباية                         |
|    | الكلاب في القطار             | ٦٧ | حاكم ظلم                      |
| ٨٧ | التدخين ممنوع                | ٦٨ | الامتيازات الاجنبية في بلاد   |
|    | القت الغليون ، وصولي الى     |    | الشرق                         |
|    | ليون                         |    | الغاء العثمانيين الامتيازات   |
| ٩٠ | مقهى السلام ، فيرم ايكول     | ٦٩ | تأثير القبعة على الشرقيين     |
| ٩١ | مدينة ليون                   | ٧٠ | حديقة الحيوانات               |

|     |                                    |     |                                  |
|-----|------------------------------------|-----|----------------------------------|
| ١٠٤ | ما يجلب النظر في باريس             | ٩٢  | مدام شويان                       |
| ١٠٩ | انبعاث الحركة العربية              | ٩٣  | اقتصاد الافرنسيات                |
|     | الدور الحميدي                      | ٩٤  | صحن بفرنك ، مرافع                |
| ١١٠ | الجرائد في ذلك العهد               |     | نصف الصوم                        |
| ١١٢ | الجمعيات العربية ، جمعية<br>الاخاء | ٩٦  | خيمة المولوية ، الاسود           |
| ١١٤ | عربية الفتاة                       | ٩٧  | رقص البراغيث                     |
| ١٢١ | ندره المطران                       |     | محمود فخري ميوب                  |
| ١٢٢ | بواسون انكله                       | ٩٨  | السفر الى شالون سورسون           |
| ١٢٤ | مشمتمل الجزء الثاني                | ١٠١ | البانسيون في باريس               |
| ١٢٧ | » » الاول                          | ١٠٢ | معلة الافرنسية                   |
| ١٢٨ | جدول الخطأ والصواب                 |     | شبان العرب في باريس              |
| *** |                                    | ١٠٣ | البعثات العلمية ، متاحف<br>باريس |

## مستمل الجزء الأول

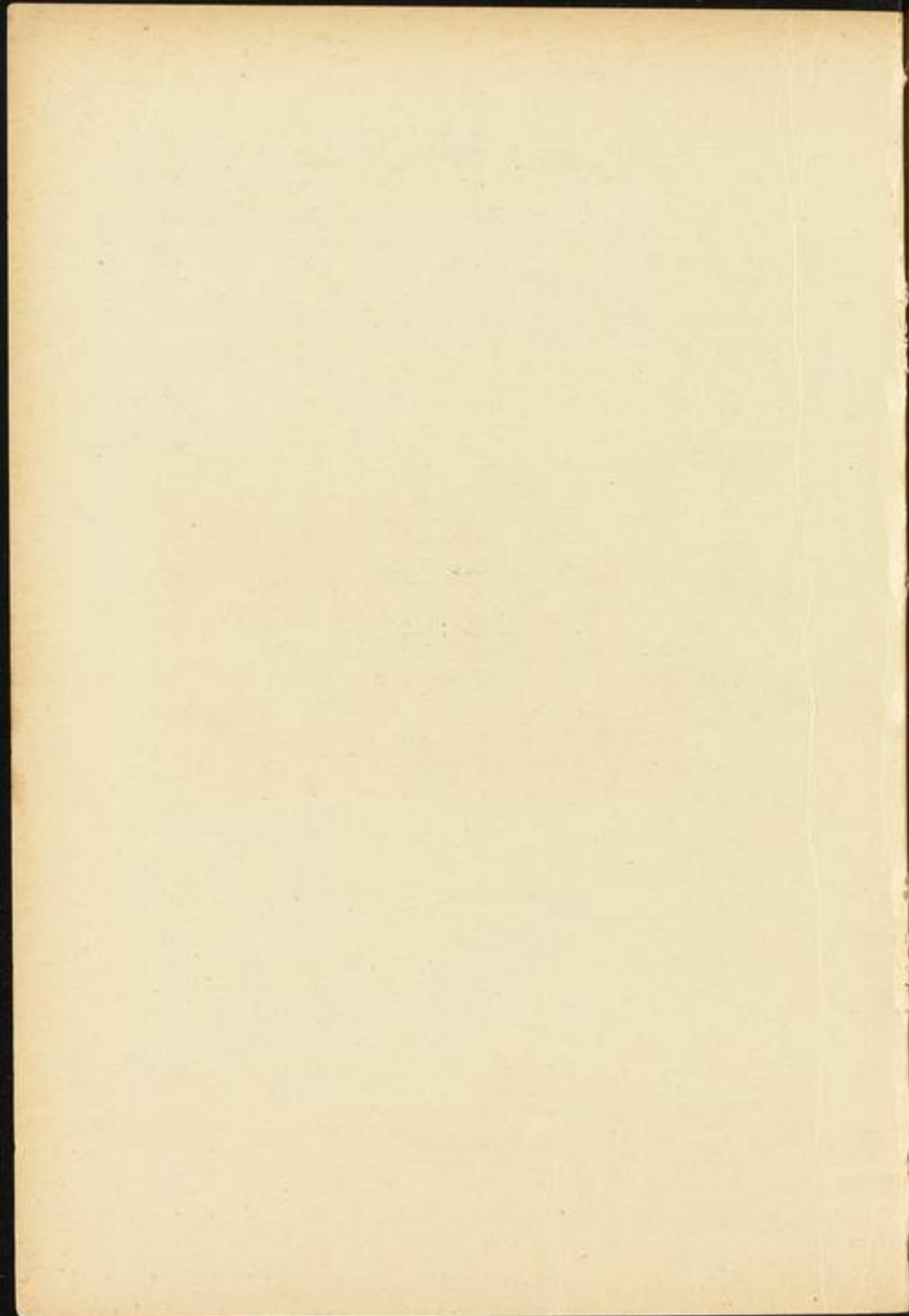
| الصفحة                      | الصفحة                    |
|-----------------------------|---------------------------|
| أنا وحسين عوني ٦٧           | ٣ الأهداء                 |
| الردة على الانقلاب ٧٠       | ٥ المقدمة                 |
| السلطان عبد الحميد ٧٥       | ٧ هارب من الموت           |
| أنا صاحب جريدة ٧٩           | ١٢ عهد الكتابيب           |
| حياة التسلية ٨٤             | ٢١ من مدرسة الى مدرسة     |
| حياة البطالة ٩١             | ٣٠ سبع سنوات في الاعدادية |
| أنا جندي ٩٧                 | ٤٣ من حياة ذلك العصر      |
| دار العجزة والميتم ١٠١      | ٤٨ باشاوات وأوسمة         |
| زواجي ١٠٣                   | ٥١ وسام ... للحجار        |
| المجمعات الخاصة ١٠٦         | ٥٤ يقظة الروح العربية ر   |
| من ألوان الحياة في دمشق ١١٢ | ٥٧ عيون تتفتح             |
| ليالي الأنس ١١٨             | ٦٠ الانقلاب العثماني      |
| فهرست الخطأ والصواب ١٢٢     | ٦٢ هزة الانقلاب           |



## جدول الخطأ والصواب

| الصواب    | الخطأ        | سطر | صفحة |
|-----------|--------------|-----|------|
| الأعني    | الأعلا       | ٦   | ١٣   |
| يؤمنون    | بأمون        | ٧   | ١٤   |
| ان كان    | كان          | ١٧  | ١٦   |
| حزامين    | حزامون       | ٢٠  | ١٧   |
| المتجوئين | المتجولون    | ١٣  | ٣٨   |
| شيء بعيد  | شيداً بعيداً | ٢٣  | ٤٩   |
| شفتيها    | شفتاها       | ٢٠  | ٥١   |
| الذئاب    | الذآب        | ٦   | ٥٣   |
| م         | هن           | ٩   | ٥٣   |
| المبيعة   | المباعة      | ١٠  | ٥٣   |
| ثلاثة     | ثلاث         | ٢١  | ٥٤   |
| ومضت      | ومضى         | ٢   | ٥٥   |
| حكومته    | حكومة        | ٧   | ٦٤   |
| مقصراً    | مقصر         | ١٥  | ٨٤   |
| المصريين  | المصريون     | ٨   | ٩٠   |
| ثلاثاً    | ثلاثة        | ١٢  | ١٠٩  |
| استقلنا   | استقلنا اي   | ٨   | ١١١  |

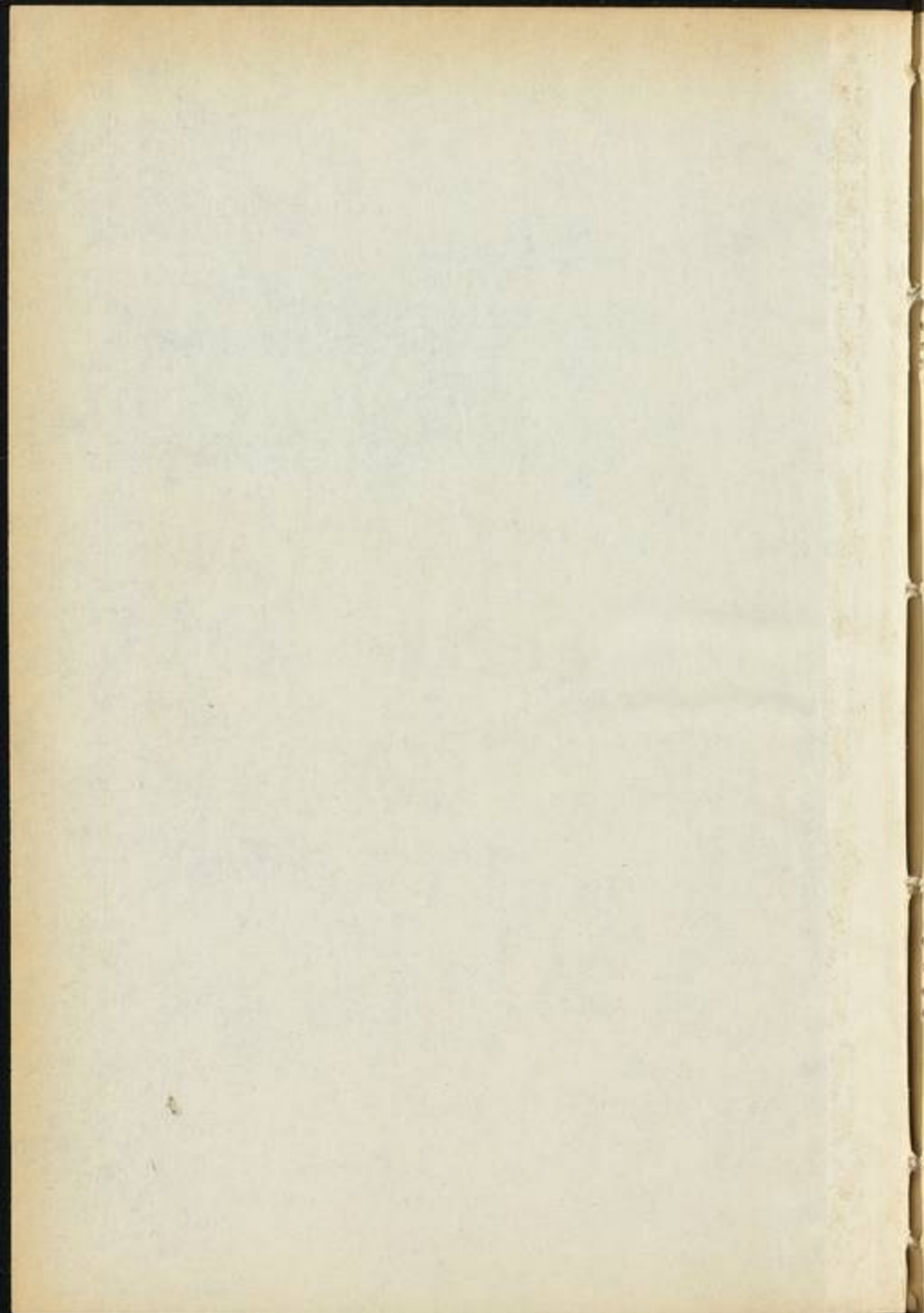
يطلب الجزء الأول من مكتبة اليقظة دمشق تلفون ١٢٢٦٤

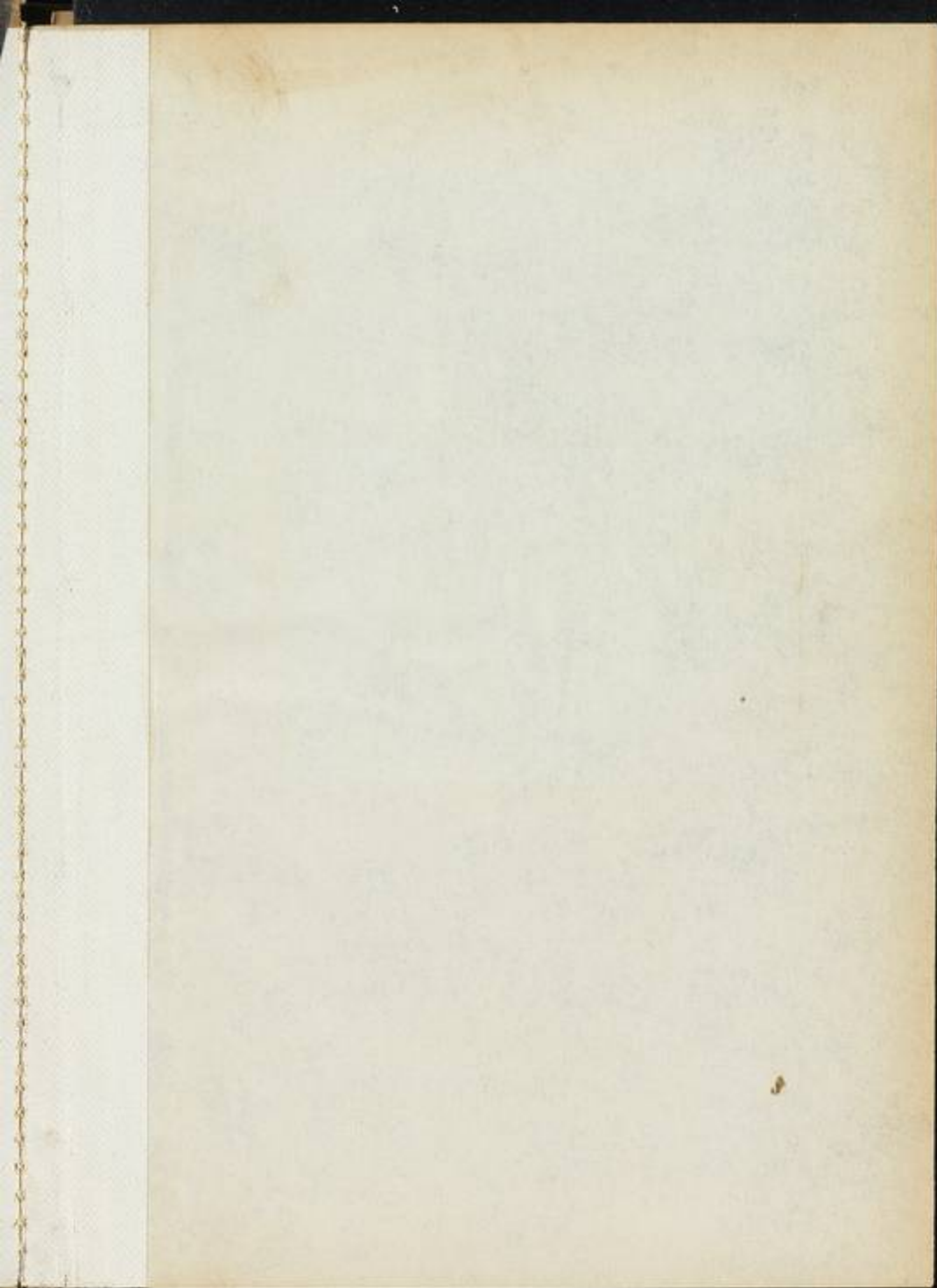


حقوق الطبع محفوظة  
للمنشر: عاطف العجم

ثمان النسخة  
(١٠٠) ق







LIBRARY  
OF  
PRINCETON UNIVERSITY



